عظات وعبر

دراسات
في
الدين
والاخلاق
والاجتماع

تاليف

حبيب سعيد



عظات وعبر

دراسات
فى
الدين
والاخلاق
والاجتماع

تأليف

حبيب سعيد

صدر عن :
دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بالقاهرة
بالاشتراك مع مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى

هـذا الـكتاب

من قبل أصدرت كتاباً عنوانه « أوراق متناثرة » ، وهو دراسات فى الدين والأخلاق والاجتماع . وقد تلقاه القراء الكرام لقاءً حسناً ، مما شجعنى على التفكير فى اصدار كتاب آخر على نهجه ، يعالج موضوعات أخرى غير التى عالجها الكتاب الأول .

وهذه الأحاديث - مثل الأولى - مستقاة من مصادر شتى واختبارات عديدة ... من مشاهدات فى مشاكل الحياة ، وحوادث وقعت فى التاريخ ، ومتجهات فى تفكير العصر الحديث ، ورسائل تلقيتها من القراء الخ .

ومن هذه كلها استخلصت « العظات والعبر » التى أقدمها الان لقرائى ، وقد استندت فى التحليل والاستنتاج إلى المبادىء المسيحية ، وإلى المثائل الأخلاقية التى رسمها لنا ربنا ومخلصنا .

وقد نشرت بعض هذه الأحاديث فى مجلة « الشرق والغرب » ، وهى تعالج مشاكل الساعة ، وتشرح موقف المسيحى حيال تطورات العصر ، وأسباب الحيرة التى نقف أمامها مشدوهين .

والله إسأل أن تكون هذه « العظات والعبر » مصدر خير وبركة للقارئين ، وحافزاً للتأمل الروحى الخاشع ، والعمل الجدى النافع ؟

المؤلف

محتويات الكتاب

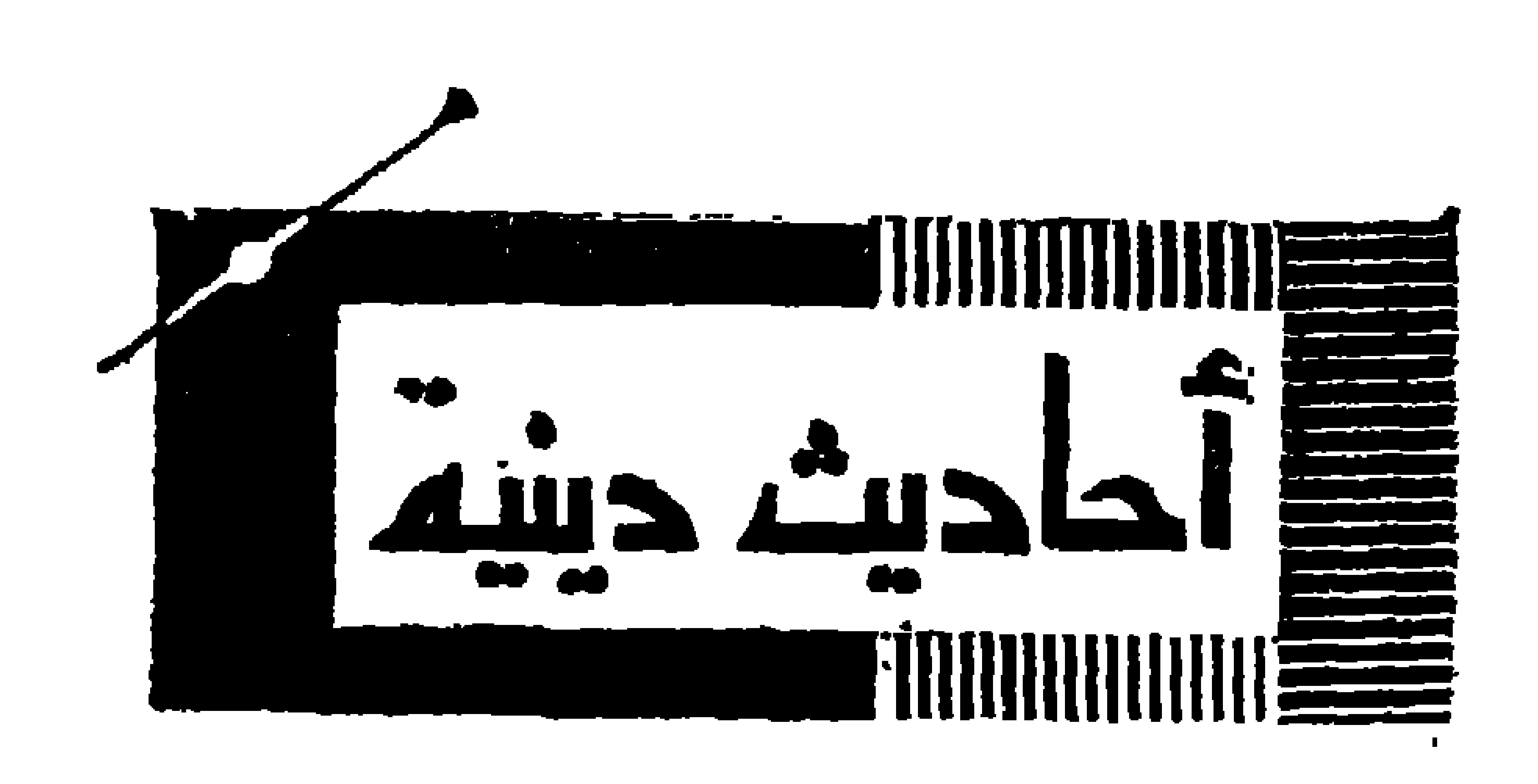
أحاديث دينية

صفحة

صفحة

أحاديث أخلاقية واجتماعية

صفحة


أحاديث دينية



في ميلاده ...

« المفكرون في العالم على يقين من أن تغيير المظاهر الخارجية في الحياة ، وترقيـة أسباب الثقافة والتعليم ، ومحاولة إزالة الأعراض الظاهرة للفقر والمرض والخوف تفشل فشلا ذريعاً إذا بقي القلب الداخـلي كما هو دون تغيير ... ».

أدر طرفك ذات اليمين وذات اليسار ، لترى في العالم ، هنا وهناك ، أكداساً من الشر والقسوة والإثم ، وكثرة من الأهوال والمتاعب والقلاقل. وفكر ثم فكر ، وتتبع علة هذه الأدواء جميعها . فلا تجـدها إلا داخل الإنسان في الطبيعة البشرية ذاتها . فالجوع والخوف والفقر والمرض جاثمة على صدور الملايين ، لا لأن الأرض قد شحت وضنت بخيراتها ، بل لأن حماقة البشر وأنانيتهم ومنازعاتهم وكراهيتهم — هذه كلها قد توالدت ونشطت فأنبتت مرارة وعلقماً .

والمفكرون في العالم على يقين من أن تغيير المظاهر الخارجية في الحياة ، وترقية أسباب الثقافة والتعليم ، ومحاولة إزالة الأعراض الظاهرة للفقر والمرض والخوف تفشل فشلا ذريعاً إذا بقي القلب الداخلي كما هو دون تغيير . لقد ملكنا السيطرة على كل قوة في العالم ما عدا الطبيعة البشرية . لقد أفلحنا في ترويض كل القوى الكامنة ماعدا أنفسنا . فهل قضي على كل آمالنا وأحلامنا، ومقاصدنا النبيلة ومثلنا العليا — أن تتحطم على صخرة الطبيعة البشرية هذه ؟

إن رسالة المسيحية تحدثنا بأن الله قد غيّر من قبل ــ وهو يغيّر اليوم ــ الطبائع البشرية . وميلاد المسيح هو الخطوة الحاسمة التى بدأ بها الله عملية التغيير والبديل .

فى ميلاد المسيح قد لمس الله الطبيعة البشرية لمسة عرف بها الانسان معرفة حقة . ومن الأقوال الدارجة « العلم عند الله » . نقوله بنغمة مستسلمة للقضاء والقدر . وكأنما الآلام والأمراض والمجاعات ، وأفراح البشر ودموعهم ، يعرفها الله وحده ، وهو منفصل عن الناس ، ناء عنهم ، لا تربطهم به صلة . ولله ملك السموات والأرض ، وهو غنى لا يفتقر إلى شىء ، فكيف يعرف الفاقة والعوز ، والراحة والشبع ؟ كيف يعرف الضعف والتعب ، وعلل الجسد البشرى وويلاته ، وأشواقه الملحة ، ومخاوفه المستكنة ، ورغباته العميقة ؟ الله يرى النهاية من البداية ، ومخارج الحياة معروفة لديه، فكيف يعرف عمانا وجهلنا، وضلالتنا وطيشنا ؟ الله قدوس ، فكيف يعرف معنى التجربة القاسية التى تكتسح الانسان أمامها ، وتمتص قوة مقاومته ؟ إن ألم الجسد ، وعذاب العقل ، وكربة الروح ، هى الحقائق الوحيدة التى يعرفها كثيرون من الناس ، فكيف تكون هذه حقيقية عند الله ؟ كيف يعرف الله ؟ !

إن ميلاده يقطع السبيل على كل قائل « إن الله لن يقدر أن ينزل إلى حيث أنا ، ولا يقدر أن يشاطرنى الغمة التى أعانيها » ، وذلك لأن المسيح ــ كلمة الله وروحه ــ قد هبط إلى الأرض ، وولد فى أحقر مستوى للبشرية ، وامتزجت أنفاس طفولته بأنفاس البهائم والحيوانات ، وكبر فى أمة صغيرة وشعب مغلوب على أمره ، محروم من الحقوق والمزايا . لم يتخذ المسيح الجسد البشرى كرداء من أردية التنكر والتهريج، كما يفعل الناس عادة فى بعض حالات المجون والتلهي ــ بل قد صار جسداً حقاً . ولما بدأ الآب القديس « دميان » عمله بين البرص ، نظر إلى هذا الداء الوبيل نظرة المسيحى الذى امتلأت عيناه بالمحبة والفهم . ولكن لما صبّ الماء الساخن على ذراعه ولم

يشعر بشيء من الألم ، وعرف أنه أصيب بالداء — نظر إلى البرص نظرة جديدة . وهذه هى الطريقة التى ينظر بها الله إلى الطبيعة البشرية

فى مجيئه لمس الله الطبيعة البشرية لمسة خلعت عليها قدسية وكرامة . ويوم ولد المسيح كان الناس يفرقون تفريقاً صارخاً بين ما هو مقدس ، وبين ماهو دنيوى . وكانت الحواجز المقامة فى أبهاء هيكل اليهود رمزاً إلى هذه النظرة البشرية ، لأن القوم راعوا درجات متفاوتة فى القدسية والكرامة فكانت بعض الأيام مقدسة دون غيرها مثل أيام المواسم والأعياد ، وكان بعض الناس مقدسين دون غيرهم مثل الكهنة واللاويين، وكانت أفنية الهيكل مقدسة، وقدس الأقداس أكرم بقعة فيه . ولأنهم نظروا إلى الأشياء وإلى الناس هذه النظرات المتفاوتة ، كانت الحياة العادية بما فيها من أوضاع ، تافهة مليلة غير مقدسة ، وفقد الناس الشعور بقوة الله وعنايته بهم . كانت واجبات الكاهن اليومية مقدسة ، أما أتعاب الفلاح الذى يشق الأرض ، والصياد الذى يمسك السمك غذاء للناس ، والنجار الذى يصنع الأنيرة والمحاريث والمناضد، لم تكن كذلك . كانت الأدوات والآلات التى يستخدمها عامة الشعب فى شئون الحياة اليومية بعيدة عن رعاية الله ونظره ، بل كانت فى بعض الأحيان تدنس الإنسان ، بحيث كان لزاماً عليه أن يتوضأ ويغتسل منها قبل أن يقترب إلى الله .

وميلاد المسيح هو القصة الخالدة التى تحدثنا عن الله وهو يتخطى كل هذه الحواجز التى اصطنعها البشر ، ويلمس بيديه — البشريتين والإلهيتين — كل أشياء الحياة العادية : علف البهائم فى المذود ، نشارة الأخشاب فى الحظيرة ، الأدوات والآلات التى يعمل بها الكادحون فى سبيل لقمة العيش المغموسة بالعرق ، بذار الزارعين ومناجل الحاصدين ، زورق الصياد وشباكه ، عجين المرأة وخبزها ، ورتق الملابس وترقيعها — هذه كلها قد لمستها يده فأحالتها مقدسة كريمة . « كلمة » الله الذى صار جسداً وحلَّ بين الناس ، هو الذى

قدس الطفولة والبيت ، وأوقات العمل والفراغ ، وكل شأن من شئون الحياة التي يغرق فيها الناس ، ومن أجلها يكافحون ويتألمون . فما أحوجنا فى هذا العصر إلى أن نسترد هذا الشعور الرقيق الذى ينظر إلى توافه الحياة العادية نظرة مقدسة ، فى عالم مادى قاس ، يتدافع فيه الناس بالمناكب ، ويقيسون فيه الأشياء بأقيسة مادية خاطئة ...

وفى ميلاده لمس الله الطبيعة البشرية لمسة مجددة ، بدلت كل شىء . إن قصة حياة يسوع كلها ، من المهد إلى الصليب ، أشبه بتلك الأسطورة القديمة التى تحدثنا عن الملك صاحب اللمسة السحرية الذهبية . ويوم الميلاد هو الفصل الأول فى رواية لم تنته فصولها بعد ، فيها لمس الله الطبيعة البشرية الضعيفة الواهنة ، فجدَّدها فى كل موضع لمسها فيه ... لمس المريض المدنف فابرأه من علته ، ولمس الأعمى فأعاد إليه نعمة البصر ، ولمس العاجز المقعد فغدا يهرول فرحاً طروباً ، ولمس اليائس الكليل فتلمعت عيناه بنور الرجاء ، ولمس الخاطىء فهلل وكبر أمام أعجوبة الفداء ... تناول منشفة ووعاء من الماء ، فجعل من الخدمة الوضيعة الحقيرة نموذجاً للكرامة والعظمة . وأخذا خبزاً عادياً بين يديه ، فأحاله سراً مقدساً ، ولمس الصليب الخشبى فجعله رمزاً للانتصار وشعاراً للمجد والفخار ، ولمس الموت ذاته ، فكسر شوكته وجعله بابا للبقاء والخلود . نعم جدد كل شىء لمسته يداه ...

ولما صار جسداً ، توج الجسد البشرى بتاج من العزة والكرامة ، وازدانت المواد الخام فى الطبيعة البشرية بأكاليل المجد والعظمة . وقد علَّم الناس كيف يرون الله تماماً ، لا فى مجد شروق الشمس وروعة غروبها ، ولا فى عجائب القبة الزرقاء ، ولا فى جمال الكون وتنسيقه ، بل فى شخصية بشرية . ويعلن لنا التجسد فى هذا العصر الذى كدنا نيأس فيه من طبيعتنا البشرية ، ان فى هذه الطبيعة عينها يمكن أن نرى الله أكثر من أى شىء آخر فى الكون .

وكيف نيأس ، وقد كلمنا الله فى « كلمته » !

يا أبتاه اغفر لهم...

« ما أكثر الحمقى بيننا الذين يصلبون المسيح كل يوم
ولا يعلمون ماذا يفعلون ... » .

حين نفكر فى هذه القولة المأثورة ، نراها مظهراً لنخوة السيد ، وعزة نفسه ، وكرم أخلاقه ، وصفحه الكريم ـ السيد الذى علّم أتباعه أن يحبوا أعداءهم — ويغفروا إلى سبعين مرة سبع مرات .

وهذا تأويل صحيح . ولكن لنلق نظرة إلى هذه القولة ، لا من ناحية عظمة السيد وصفحه الكريم وغفرانه الشامل ، بل من ناحية القوم الذين صلبوه . . . إنهم فعلوا أمراً لم يفهموه ، وارتكبوا وزراً لم يدركوا معناه . « لا يعلمون ماذا يفعلون » .

وليست هذه هى الحادثة الأولى فى التاريخ التى تمثلت فيها البلادة الإنسانية ، والغباء البشرى . والتاريخ حافل بأحداث جسام تنبىء عن جهل العقل البشرى ، وحماقته ، وبلادته . فالأثينيون الذى قدموا كأس السم الدهاق لفيلسوفهم الكبير سقراط ، لم يكونوا قوماً أردياء ، بل كانوا أكثر أبناء عصرهم غيرة وتدينا ، وأصفاهم فهماً وبصيرة . ولكنهم فى جهل وغباء ظنوا سقراط كافراً ملحداً ، لأن عقيدته فى الله تسامت وارتفعت فوق المستوى الذى ألفه الرأى العام . . . كذلك لم يكن القوم الذين أحرقوا غليليو بالنار أشراراً ، بل كانوا حمقى بلداء . ولم يكن القضاة الذين حكموا على جان دارك أردياء ، بل عديمى

الإحساس فاقدى الشعور . . . وهنا فى الصليب ، الذى هو أفجع المآسى فى التاريخ ، نسمع المصلوب المهان يقول « لا يعلمون ماذا يفعلون » .

وإذا ما بعدنا عن عبر التاريخ ، لنلقى نظرة إلى حياتنا العامة ، نرانا أمام هذه الحقيقة عينها . فالذين يحدثون وقود الحرب ، ويمهدون لها الطريق ، ويذكون أوارها ، ليسوا بالضرورة أشراراً أثمة ، بل حمقى أغبياء . والذين يزعمون أن النظام الإقتصادى الرأسمالى لا عيب فيه ، وأن الغنى الباذخ والفقر المدقع يقدران أن يعيشا جنباً إلى جنب آماداً طوالا ، ليسوا بالضرورة فجاراً بل أغبياء مخدوعين .

ولسنا نقف عند التاريخ وحسب . ولا الحياة العامة فقط . فإن هذا الطريق عينه يؤدى بنا إلى نفس الإنسان ذاته . وإذا خلا امرؤ إلى نفسه ، فى توبة صادقة ، ليرى الأشياء التى تخجله أكثر من سواها ، فإنه واجد الحماقة والجهل والغباء فى مقدمة الأشياء . ولم يكن حكم المسيح على الصليب فريداً من نوعه ، بل فى خلال خدمته كلها لقى صنوفاً من الغباء . وما أكثر أقواله التى وصف سامعيه فى مناسبات شتى بالجهل والحماقة .

❈ ❈ ❈

وفى حياتنا اليوم صنوف كثيرة من هذا الغباء ، أظهرها وأبرزها ذلك التعصب الممقوت ، والعقل المغلق ، والفكر الضيق ، وهذا التعصب هو الذى صلب المسيح . فأولئك الفريسيون الذين اصطدم بهم المسيح من بدء خدمته ، كانوا من أدق الناس فى مراعاة الآداب العامة ، والتدين الظاهرى ، والعادات الوضعية ، كانوا من أشد الغلاة فى رعاية الدين الرسمى . فلم يكن الشر هو الذى صلب المسيح ، بل التعصب ، وضيق العقل ، والتزمت البغيض . وليس هذا تاريخاً قديماً ، فما عليك إلا أن تضع الولاء الظاهرى للدين الرسمى تحت إمرة عقول مُغلقة صغيرة ، حتى ترى أمامك أخطر قوة فى العالم متى انطلقت من عقالها .

وهذه الحقيقة ماثلة أيضاً فى الكنائس ، فالمتزمتون المتعصبون لمذهبهم

أو عقيدتهم ، ليسوا بالضرورة أشراراً ، بل على نقيض ذلك قد يكونون أخياراً صالحين . ولكنهم قوم أغبياء ، ضيقو الفكر . هم لعنة الدين والكنيسة ، وهم مفسدون لقضية المسيح والمسيحية . وقديماً شهد بولس عن هؤلاء فقال عنهم : « لهم غيرة الله ولكن ليس حسب المعرفة » .

❋ ❋ ❋

ثم هناك الغباء الذى يسوقنا إلى الإختيار السيء الباطل . وقد كانت أورشليم فى الأسبوع الأخير تضطرم بالمصالح المتنافسة المتعارضة : المصالح المالية التى أعتز بها الصدوقيون فى ولائهم لرومية ، والمصالح الدينية التى أعتز بها الفريسيون ، والمصالح الوطنية المتطرفة التى اضطرمت فى نفوس « الغيورين » ضد رومية . ويقف يسوع وحده معارضاً لهذه المصالح كلها ، لأنها ليست حسب مشيئة الله . ولم يكن بدٌّ من تضحية بعض هذه المصالح فى سبيل الأخرى . فائتمرت هذه كلها على إسقاط المسيح وتضحيته ، لأنه وقف فى طريقها ، وحاول أن يطهرها من أدرانها وميولها الشريرة الآثمة . وفى اللحظة الأخيرة ، اللحظة الفاصلة أمام مجلس بيلاطس ، وجدوا أنفسهم فى موقف الاختيار : بين قاتل زنيم ، وبين يسوع البار ، فصاحوا بأعلى أصواتهم « أطلق لنا باراباس ! ! » .

فهل هذا شرٌّ ؟ نعم شرٌّ . ولكنه غباء قبل أن يكون شراً . وإنى أقول الحق ان أياً منا يفحص دخيلة نفسه ، يجد فيها بعض هذه الأشياء المخزية ، الاختيار السيء الباطل الناشيء عن الجهل وعمى القلب . وما أكثر ما اخترنا باراباس ، وأهملنا المسيح ، فى سبيل الإحتفاظ بمصالحنا التى نعتزّ بها ، ونؤثرها على كل شيء آخر . هنا مأساة حياتنا العصرية الحاضرة !

وفى الحياة أشياء كثيرة نسميها شريرة آثمة ، ومن الميسور التخلص منها لو أننا أدركنا مدى غباوتنا فى التمسك بها . فمن الذى ينظر إلى نزعة الحرب فى هذه الأيام ولا يراها سخيفة غبية ؟ ومن ذا الذى ينظر إلى أخلاقنا

العامة ، وتصرفاتنا الوطنية ، ولا يراها صوراً بشعة للجهل والحماقة والغباء .

❋ ❋ ❋

وهناك غباء قصر النظر . ومن دلائل الذكاء وحسن الإدراك أن يضحي المرء بمنفعة عاجلة في سبيل خير آجل . وما أكثر ما يصيبنا من نكبات حينما نؤثر العاجل على الآجل . ويوم دخل المسيح في موكب النصر مدينة أورشليم ، وقابلته الجموع بهتاف النصر والترحاب ، لم تغره هذه المظاهر البراقة ، بل نظر إلى ما وراءها ، فإذا ظلال الصليب تنسدل على المدينة المقدسة ، فيقول بأنة الحزن المتوجع : «آه ، لو تعلمين يا أورشليم... ماهو اسلامك ! »

ونحن كثيراً ما تبهرنا روعة الشيء العاجل والمنفعة الدانية ، وكثيراً ما تغرر بنا الشهوات العاجلة ، والأرباح العاجلة ، والعواطف العاجلة ، ونندم ولات ساعة مندم . ولعلَّ في هذه أبرز صنوف الحماقة البشرية .

❋ ❋ ❋

وعلى أية حال ، كان يسوع مصيباً في وصف القوم الذين صلبوه ، فهم لم يعلموا ماذا فعلوا . واليوم قد انقضت ألفان من سني الدهر الطويل منذ مأساة الجلجثة ، وقد غدا مَن علّق فوقها رب الحياة في أعين ملايين من أبناء الإنسانية. وليتنا نرفع الرؤوس لنرى الصليب قائماً . فيوم مات لنكولن رئيس الولايات المتحدة ومحرر العبيد ، نُقل جثمانه من واشنطون إلى بلدته، وفي الطريق مرَّ الجثمان بقرية صغيرة ، وهناك رأى المشيعون امرأة زنجية تقف فوق حاجز الطريق ، وترفع ولدها الصغير فوق رؤوس الجماهير المصطفة، وتسمَّعوها تقول : ألقِ عليه يا بنيَّ نظرة طويلة، فقدمات لأجلنا .

« هو » مات لأجلنا . ولكن يجب أن نذكر أن الحماقة البشرية هي التي سمرته فوق الصليب . وما أكثر الحمقى بيننا ، الذين يصلبونه اليوم، ولا يعلمون ماذا يفعلون !

صليب ... وقبر

« أوضاع الصليب ثلاثة : صليب القديس أنطونيوس
وهو يشبه الحرف T وصليب القديس أندراوس وهو
يشبه الحرف X والثالث عارضة أفقية يخترقها عمود
رأسي من الخشب ... » .

كان الموت صلباً نوعاً من أنواع الإعدام فى الشرق، جرى عليه الفرس والفينيقيون والمصريون. ولعل الرومان نقلوا طريقة الاعدام عن أهل قرطاجنة، ونفذوها فى العبيد ، ومجرمى الولايات ، وأحط طبقات المجرمين . وكان من الجرائم الكبرى أن ينفذ حكم الاعدام صلباً على رومانى متمتع بالرعوية الرومانية — ولذلك يقول شيشرون : « إنه جريمة أن يُربط بالسلاسل مواطن رومانى ، وجريمة شنعاء أن يُضرب . أما ذبحه فيكاد يكون معادلا لجريمة قتل الوالدين . فماذا عسانى أن أقول عن الصلب ؟ ليس فى اللغة الرومانية كلمة تصلح لوصف هذه الجريمة » . من ثم نرى بولس تُقطع رأسه لأنه رعية رومانية ، بينما يُصلب بطرس وغيره من الرسل .

وكانت هناك أنواع عدة من الصلبان . فالنوع البسيط هو عامود مفرد ينتصب مستقيماً على الأرض ، يُربط إليه المحكوم عليه ، أو خازوق مسنن ينفذ من أسفل إلى الفم . وهذه الطريقة الأخيرة — وإن يكن المرء يقشعر بدنه من رؤية الخازوق ينفذ من فم المحكوم عليه — كانت فى الواقع أقرب إلى الرحمة والانسانية لأن الموت كان يجىء سريعا .

أما الصليب الروماني فقد كان أكثر إحكاماً من هذا النوع البسيط . وكانت له أوضاع ثلاثة : صليب القديس أنطونيوس وهو يشبه الحرف T وصليب القديس اندراوس وهو يشبه الحرف X ، وفى النوع الثالث كان يخترق عمود رأسى من الخشب عارضة أفقية . وهو النوع الذى نراه مرسوماً فى الفن المسيحى . وكان يُثبت عادة وتد فى وسط العمود الرأسى الذى يعلق عليه المصلوب . وما كان يزيد طول الصليب عن طول الانسان العادى .

وكان المحكوم عليه بالصلب يعامل بمنتهى الاحتقار والإذلال ، فكان يُرغم على حمل العمود الأفقى إلى مكان الإعدام ، ويتقدمه مناد يحمل لوحة كُتب عليها بيان التهمة ، بينما كان الجنود يسوقون أمامهم السجين المسكين بالمناخس والسياط . وكانت لوحة الاتهام تعلَّق أحيانا حول رقبة المحكوم عليه . فإذا ما بلغوا مكان الإعدام ، أمر قائد الجند أربعة من رجاله لتجريد المحكوم عليه من ثيابه التى كانت تعطى لمنفذى الحكم بمثابة مكافأة إضافية (انظر متى ٢٧ : ٣٥) . وبعد ذلك كان يوضع على الصليب ويسمَّر أو تربط اليدان والرجلان ، وكان التسمير أفضل من الربط ، لأن طريقة التسمير ، مع ما فيها من ألم ، كانت تساعد على تقصير مدة النزع وتعجِّل الموت . وذلك لأن عذاب الصليب إنما كان فى تعريض المصلوب إلى حرارة الشمس المحرقة وقرصات الجوع والعطش المريعة . فكان الموت يقسو أحياناً على المتألم ولا يسعفه إلا بعد عدة أيام. على أنه فى أغلب الأحيان كانت طعنة رحيمة من حربة أو ضربة من مطرقة تنهى الآلام الرهيبة. وكان هذا يتوقف بلا شك على إنسانية جندى من الجنود يطعن المصلوب بمهارة طعنة قاضية ، بينما يتظاهر فقط أنه يعذبه ويداعبه بقوة .

وجرت العادة فى أورشليم على تخفيف هذه الآلام الجسمانية المريعة بإعطاء المصلوب جرعة من مواد مخدرة ، وقيل إن نساء المدينة كنَّ يقمن بتقديم هذه المواد . وقد قدِّمت جرعة كهذه إلى يسوع ولكنه أبى أن يتناولها لأنه صمم

على أن يقوم إلى المنتهى بالمهمة التى أوكل إليه القيام بها . وكان « الخل » الذى قدّم إليه نوعاً من أنواع النبيذ الحاد الذى كان يقدم للجنود الرومان أثناء قيامهم بأداء واجباتهم . وعُرض عليه هذا الخل من قبيل التهكم والسخرية ، وذلك لأن يسوع كان فى نظرهم مطالباً بالعرش اليهودى وثائراً على الحكومة الامبراطورية ، فاشتركوا مع الحكام فى الاستهزاء به وشربوا نخبه تهكماً عليه (لو ٢٣ : ٣٦) .

وإذا كان الصلب مكرهة فى عيون الرومان واليونان ، فاليهود أشد كرهاً له . ذلك لأن اليهود اعتقدوا أن مَن يموت صلباً يقع تحت لعنة ناموس الله . وهذا هو الذى فهموه من العبارة الواردة فى سفر التثنية (ص ٢١ : ٢٣) التى يقتبسها بولس فى رسالته إلى غلاطية « ملعون كل من علّق على خشبة » (غلا ٣ : ١٣) . ونحن لا نفهم معنى كلمة «ملعون» فى نظر اليهود ، ولا نشعر بقرصتها اللاذعة . ولكن اليهودى يفهمها جيداً ويشعر بلذعتها . ومن الأقوال المأثورة عندهم إن إبرهيم إعتاد أن يجلس على باب الجحيم لكى يمنع دخول أحد من ذريته إلى مكان العذاب ، ولكن إن كان أحدهم « ملعوناً » ، فإن إبرهيم لم يكن فى وسعه أن يفعل له شيئاً ، وكان يتنحى ويسمح له بالدخول إلى المكان المعدّ له .

تلك كانت عثرة الصليب فى نظر اليهود ، فقالوا إنه لا يمكن لمن مات على الصليب ووقع تحت لعنة الناموس ، أن يكون مسيّياً لنا . على أن بولس حوّل حجتهم ضدهم ، فإن المسيح قد وقع ، تحت اللعنة الرهيبة ، ولكنه فعل هذا « لأجلنا » . واللعنة قد حملها ، فأبطل الناموس الآن . واللعنة قد أزيلت فبقيت النعمة . « المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا ... لتصير بركة إبرهيم للأمم فى المسيح يسوع » (غلا ٣٣ : ١٣) .

قبر منحوت :

كانت جغرافية فلسطين الطبيعية ، وما تزال — العامل الأهم فى طريقة إعداد القبور اليهودية ، وذلك لأن البلاد عبارة عن أخدود طويل من الصخور الجيرية الناعمة التى يسهل الحفر فيها ، وهى أيضاً أرض الكهوف والمغاور ، وهذه بلاشك أوحت فكرة استعمال القبور المنحوتة فى الصخور .

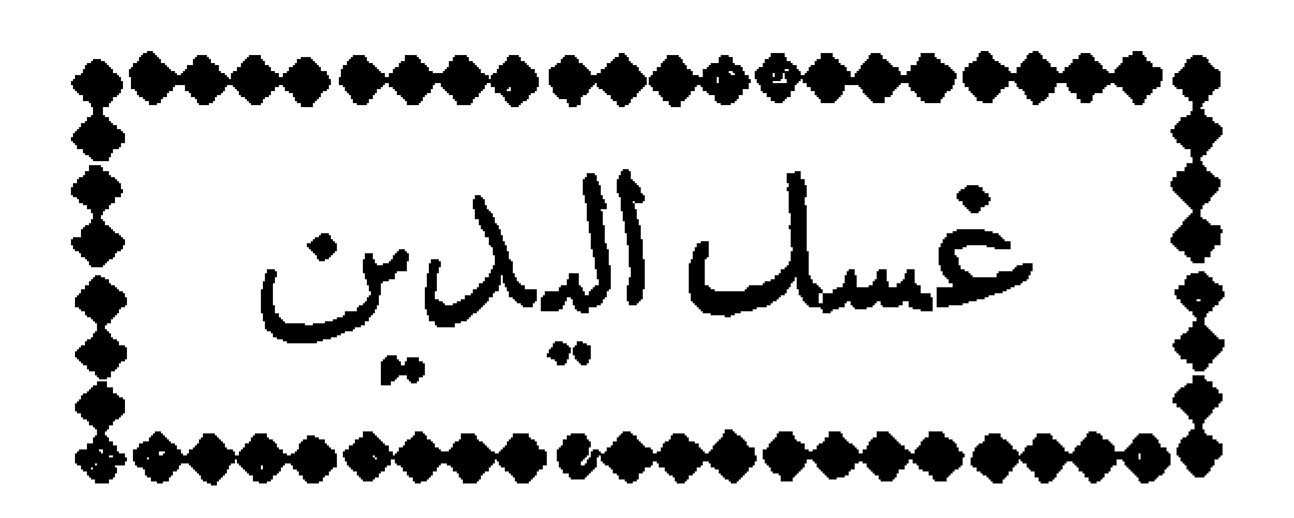
وكانت هذه القبور على اختلاف أشكالها وأوضاعها من نوعين : أكثرها شيوعا تلك التى كانت تحفر فى الصخر على شكل الجسم البشرى وتغطى بلوحة من الحجر منبسطة على الأرض . وهذا النوع من القبور هو الذى أشير إليه فى لوقا (ص ١١ : ٤٤) « ويل لكم . لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لايعلمون » . ولذلك كان القوم يبيضون هذه القبور بطريقة خاصة فى وقت الفصح ، حتى لاتطأها أقدام الحجاج القادمين إلى أورشليم من كل انحاء العالم ، لأن ملامسة هذه القبور ، ولو عرضا ، كانت تنجس اليهودى وتحرمه من الاشتراك فى طقوس العيد .

والنوع الثانى من هذه القبور المنحوتة فى الصخر كان غرفة تُحفر مواجهة فى الصخر الجيرى . وتحتوى على تجاويف أو رفوف توضع عليها أجساد الموتى . وهذا هو القبر الذى وضع فيه جسد المسيح الطاهر بعد موته . وكانت تنحت هذه القبور عادة فى أملاك الأسرة ، لأن اليهود كانوا يخشون كل الخشية أن يدفنوا بعيداً عن ذويهم . ويقال إن خوفهم من الحرمان من هذا الامتياز هو أحد العوامل التى حملتهم على كراهية البحر . وكان السماح لغريب أن يدفن فى مقبرة الأسرة عملا من أعمال النبل والسماحة المنقطعة النظير (متى ٢٧ : ٦) .

وكانت تصان هذه القبور المنحوتة فى الصخر بجعل الفتحة صغيرة جداً بحيث يتحتم على الداخل أن ينحنى (لو ٢٤ : ٢ و يوحنا ٢٠ : ٥) ، ويوضع

حجر مستدير على فتحة الباب أشبه بحجر رحى كبير موضوع على حافته. وكان هذا الحجر يدحرج فى فجوة إلى أسفل لغلق الباب ، فكان الاغلاق هينا أما الفتح فكان عسيراً ، ومن ثم نرى النسوة وهنَّ مقبلات إلى حيث كان يسوع موضوعاً ، يتساءلن فيما بينهن فى الطريق : « مَن يدحرج لنا الحجر من على القبر » (مرقس ١٦ : ٣) .

ولم يكن القبر يُفتح مطلقاً إلا لدفن جديد ، وهذا هو الذى أوحى إلى بولس أن يقول فى رسالته إلى رومية (ص ٣ : ١٢) - وانظر أيضاً (مز٥:٩) « حنجرتهم قبر » و « حلقهم قبر مفتوح » . أى أن فى كل فتحة من فتحات أفواههم ، يدفنون بالنميمة والافتراء ، كرامة أحد الناس وحسن سمعته .



غسل اليدين

«. . . . الناس حين يلقون المسيح، إما يتحدونه وينكرونه ، أو يقدمون حياتهم عندقدميه .أما الوقوف على الحياد فهو عداء سافر» .

في ربيع كل عام يحتفل العالم المسيحي كله بأسبوع الآلام ، وتُقرأ في الكنائس والمعابد ، بكل لغات البشر ، القصة الخالدة التي تروى أعظم مأساة شهدها التاريخ ، وترن في آذان الناس الكلمات التي قيلت عن عاهل الرومان في أرض فلسطين يومئذ : « ... ولما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئا بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه ... »

ومن أدب العصر الحديث قصة مأثورة كتبها الكاتب الفرنسي « اناتول فرانس» عن بيلاطس هذا ، صوَّر فيها العاهل الروماني وقدأدركته الشيخوخة واعتزل الحياة العامة في مكان قصيٍّ هادىء . وفي ليلة يقيم مأدبة لنفر من رفاقه. وفي أثناء الحديث يسأله أحدهم عن إنسان ، شاب من ريف فلسطين ، قد أثار ضجة هائلة منذ سنوات في أورشليم ، ويُدعى اسمه يسوع . فراح بيلاطس يفكر طويلا ، ويحاول أن يستذكر هذا الإسم ، وأخيراً قال وهو شارد الفكر « لا أذكر ! »

وقد نابى أن نصدق أن إنسانا سجلت حقب التاريخ الطويلة اسمه بهذه العبارة الرهيبة « صلب على عهد بيلاطس البنطى » ، يتجاهل اسم المسيح وينساه ، ويفلت هذا الإسم من ذاكرته .

على أن القصة ليست بعيدة التصديق . بل لعلها مرآة نرى فيها شيئاً من حياتنا ، وحياة الناس أجمعين . إنها تحدثنا بعبارة فصيحة بليغة عن موقف قد يتخذه أى إنسان ، حينما يريد أن « يغسل يديه » ويبرأ من المسيح .

ولعلّ كثيرين من النـــاس لا يقفون من المسيح موقف العداء ، ولكنهم لا يقفون إلى جانبه . يعيشون وكأنما إنسان الناصرة لم يكن له فى التاريخ وجود ، ويموتون وكأنما المسيح لم يمت من قبل ويقوم . ومن أقوال « كارليل » الكاتب المعروف : « لو أن المسيح جاء اليوم إلى العالم ، فإن الناس لا يصلبونه ، ولكنهم يدعونه إلى مآدبهم وحفلاتهم لينصتوا إليه ، ثم يسخرون منه ، ويتخذونه مادة للتندر والفكاهة » .

على أننى لا أقرّ الكاتب الكبير على وجهة نظره ، وأراها بعيدة عن الحق ومجانبة للصواب ، كما تشهد بذلك حياة القديسين والرسل والأنبياء والشهداء . ويعلم المسيحيون أن المسيح يتحدانا فى هذا العصر ، كما تحدّى قومه منذ ألفى سنة . ذلك لأن المسيح لم يظهر على مسرح التاريخ ، ويذهب لحال سبيله كما ذهب غيره من قبل ، بل هو حىّ لم يمت .

وأذكر أنى قرأت منذ سنوات لكاتب أمريكى — مقالا عن الشخصيات التى يود أن يراها فى شيكاغو ، جاء فيه هذه العبارة : « لو أن شكسبير أقبل إلى هذا المكان ، لنهضنا لتحيته والترحيب به . أما لو جاء المسيح ، لسقطنا على وجوهنا ، وحاولنا أن نقبل هدب ثوبه » . إن المسيح هو الأول والآخر ، وهو الحىّ الدائم . لم يحصره الزمن الماضى الذى عاش فيه ، لأنه كان قبل أن يكون ابرهيم ، كما قال عن نفسه .

أجل ، لن يقدر أن يقف الناس موقف عدم الاكتراث حيال المسيح ، ولا يقدرون أن يتجاهلوه ، لأن الحقائق الأزلية تتحدى البشر بغير انقطاع . أليست الحياة ذاتها مجموعة من الحقائق ، وما ضرّ هذه الحقائق إذا نحن تجاهلناها ؟ أنقدر مثلا أن نتجاهل ناموس الطبيعة ، أو الهواء الذى نستنشقه

ونحيا به ؟ قد نجرؤ على رفض الهواء ، فنموت . ولكن ماضرّ الهواء؟ وإذا تجاهل أحدنا ناموس الجاذبية ، وألقى بنفسه من علٍ ، ودقت عنقه ، فهل يبطل هذا التحدى قوة ناموس الجاذبية ؟

عالم الأشخاص والحياة

ثم لننتقل من الأشياء ، إلى عالم الأشخاص والحياة . هل نقدر أن نتجاهل الارث النفسى الذى ولدنا فيه ؟ للوطن الذى درجنا فيه تاريخ ، وتقاليد ، وحضارة عريقة ، وثقافة معينة ، فهل إذا هاجرنا إلى أرض بعيدة ، وتكلمنا بلغة غير لغتنا ، نقدر أن نخلع عنا كلية هذا الماضى كله الذى تشربت به نفوسنا ، وصار جزءاً من لحمنا ودمنا وتفكيرنا وحياتنا .

ثم لنترك هذا ، ونجىء إلى عالم الروحيات . إن العالم الروحى هو أصل كل الأشياء ، وهو مآلها فى الختام . وقد نتحدى فى كبرياء وحماقة هذا العالم. وقد نجثو أمامه فى ذلة ووقار . أما أن نتجاهله بتاتاً فليس هذا فى مقدور أى نفس حية .

العالم الروحى

وفى هذا العالم الروحى ، يسوع المسيح هو الاسمى ، وهو الحقيقة العظمى. من وجهه يشعّ مجد الله الذى منه وله كل الأشياء . وليس هذا الكلام نظرية جدلية ، بل هو حقيقة واقعية كناموس الطبيعة ، وقانون الجاذبية . وقد صار « الكلمة » جسداً وحل بين البشر ،واستأثر بقلوب الناس،وما استطاعت نيّف وتسعة عشر قرناً من التاريخ المضطرب اللاهث ، أن تتهرب منه ، أو تتجاهله . ذلك لأن العالم الذى جاء فيه المسيح هو عالمنا ، ولسنا نقدر أن نحيا لحظة دون أن نلتقى ـ فى أنفسنا وفى وسطنا ـ بتلك الآثار البارزة التى طبعها المسيح على صفحات التاريخ .

والناس حين يلقون المسيح ، إما يتحدونه وينكرونه ، أو يضعون حياتهم عند قدميه . أما الوقوف على الحياد ، فهو عداء سافر . كان هذا حال بيلاطس ، فانه حينما غسل يديه وحاول التنصل من المسئولية والوقوف على الحياد ، كان موقفه هذا في الواقع حكما على المسيح بالموت . ونحن قد نغسل أيدينا في بعض الأحيان ، ونحاول التملص ، ولكن موقفنا هذا هو بمثابة اشتراك منا في صلب المسيح ، وهذا هو الانتحار الروحي بعينه ، ذلك لأن المسيح هو « كلمة » الله إلى إنسانيتنا جمعاء .

اما الطريق الآخر فهو طريق الحياة . لأن الله يدعونا في المسيح أن نضع حياتنا عند قدميه . ونحن أحرار في هذا الاختيار . وإذا جعلنا المسيح سيداً ورباً ، فاننا نلقي بأنفسنا في تيارات القوى الروحية التي ملأ بها التاريخ ويكون لنا نصيب موفور في ابراء العالم من أوصابه وويلاته ، وبناء مدينة الله على الأرض .

إن الله يقدم لنا في المسيح أفضل المزايا في التعاون معه ، وأثمن الفرص لتقوية القوى الروحية العاملة في الكون . وبيلاطس قد نطق بحق لم يفهمه حينما هدد المسيح بقوله إن له سلطانا أن يصلبه وسلطانا أن يطلقه . انها قولة هائلة سرت مسرى النبوة في التاريخ اللاحق ، ذلك لأننا نقدر نحن اليوم أن نصلب المسيح ، على أننا نقدر أيضاً بنعمة الله أن نطلق القوى الزاخرة من ذلك النبع الذي لا يستقصى لاسعاد البشرية .

ربي : نجني من خيانة غسل يدي منك ، واعضدني لكي أخدمك طائعاً أمينا ، مخلصا لإرادتك العليا في السماء ...

ساعة حاسمة !

« فى يوم الجمعة العظيمة تكاتف أشرار الناس
والشياطين على قتل الخير مجسما فى إنسان . . . ولكن
بعد أن قام المسيح من الأموات انتصر الخير والحق ،
وأيقنا أن العقبى ستكون دائماً للخير والحق ... »

فى حياة كل إنسان ساعات فاصلة حاسمة تطبع أثرها فى الحياة مدى الدهر . وكلنا يذكر بعض الإختبارات التى لن ينساها ، والتى جعلت الحياة غير ما كانت من قبل . ومَن منا ينسى الساعة الفاصلة التى اختار فيها مهنة الحياة تحدوه الآمال الكبار . ومن منا ينسى الساعة التى تفرس فيها لأول مرة فى وجه أول مولود رزقه به الله ، أو الساعة التى ودّع فيها لآخر مرة وجه حبيب إنتقل إلى العبر الآخر من الحياة ...

وكما أن حياة الفرد تحفل بمثل هذه الساعات الفاصلة الحاسمة، كذلك يحفل التاريخ بمثل هذه الفترات الخطيرة التى لا يمحى أثرها . فسقراط الفيلسوف الإغريقى يتجرع كأس السم ، فيتغير عالم الحق ولن يعود إلى سابق عهده . وبولس الرسول يطيع الهاتف السمائى ويعبر إلى مكدونية ، فتنتقل المسيحية من الشرق إلى الغرب ، وتسير فى إتجاه جديد يبدل معالم تاريخ العالم. ونبوليون يهزم فى معركة واترلو ، فيتقرر مصير أوربا كلها . وشرذمة من الرجال الخائفين الله ينزلون سفينة لتبحر بهم إلى عالم مجهول ، فتولد أمة عظيمة تمسك

اليوم بين أيديها مصائر الشعوب ، وفى مصر تقوم ثورة يتردد صداها فى العالم العربى ، وفى البلدان الافريقية والآسيوية ، وتغير اتجاه التاريخ كله . . . أمثال هذه الحوادث تطبع أثرها الخالد فى جبين الدهر .

ولكن ساعة فاصلة حاسمة فى التاريخ تفوق هذه كلها فى قوتها وفى معناها، وتلك هى الساعة التى وقف فيها ثلاث من النسوة أمام قبر فارغ فى بستان فى مدينة القدس ، وكان ذلك فى اليوم الذى قام فيه يسوع من الأموات . وبسبب ذلك اليوم تغيّر سير التاريخ ، والعالم كله ، وحياتنا كأفراد .

القيم المعنوية العليا

وفى ذلك اليوم الفاصل فى تاريخ الانسانية ، احتلت القيم المعنوية العليا فى الحياة مكانة الكرامة والاعزاز . ففى يوم الجمعة العظيمة تكاتف أشرار الناس والشياطين على قتل الخير مجسما فى إنسان . ولكن بعد أن قام المسيح من الأموات انتصر الخير والحق،وأيقنا أن العقبى ستكون دائما للخير والحق.

إن القيامة تثبت لنا أن الأشياء التى مات المسيح من أجلها ذات قيمة خالدة . وقد كان الصليب مأساة ، وعند موت يسوع خيل للناس أن الخير قد هزم ، وأن الشر هو أقوى قوة فى الكون . ولو كانت الجلجثة نهاية القصة لاهتزت عقيدتنا فى عدالة الكون ، ولأحسسنا اننا خلائق خاضعون للصدف العمياء والأقدار الظالمة ، وليس ثمة معنى فى حياة تخلو من الانسجام ومن العدالة .

على أن الصليب لم يكن النهاية ، فقد كان للقصة بقية . وما انقضت أيام ثلاث حتى عاد يسوع إلى الحياة ، وبرز القوم الضعاف الخائفون ينادون بالمستحيل ، يبشرون بقصة غير معقولة عن قبر فارغ . وقد أذاعوا فى الواقع أن قوى الحق والخير والجمال قد ظفرت بعد هزيمة ، وتم لها النصر المبين

والتزكية الإلهية إلى الأبد. ولنا أن نثق بأن مصير العالم، ومصير الأفراد لن يكون بيد القوة — وأن الشر اذا انتصر فإلى حين، وأن الله لن يموت.. إن بستان القبر الفارغ يتلسع بأزاهير ناضرة، هى أزاهير المحبة. وكل زهرة تتحدث بابتسامة عذبة قائلة ان المحبة لاتموت، ولن تموت.

الثقة واليقين فى حضرة الموت

على أن قيامة يسوع تخطو بنا إلى أبعد من مجرد تزكية القيم المعنوية العليا كالخير والحق والجمال. ذلك أنها تملؤنا بالثقة واليقين فى حضرة الموت. فمنذ القرن الأول عرف عن المسيحى أنه من خيار الناس فى مجابهة الموت. وكان العالم الذى غرست فيه بذار المسيحية مشحوناً بالمخاوف والأرواح الشريرة التى خلعت على الموت رهبة بشعة، وحسبته نكبة ماحقة تطوح بالإنسان إلى المجهول الذى لايدرى من أمره شيئاً، إلى وحشة لا إيناس فيها، وإلى عذاب لانهاية له. ولكن برز المسيحى من بين صفوف بنى الإنسان،وسار فى ظلال الظلمة بقدم ثابتة وجنان قوى لايخشى شيئاً. بل قد قيل ان كثيرين ماتوا وعلى أفواههم بسمة حلوة، وفى ألسنتهم نشيد التهليل. لقد عرف المسيحى بسبب القيامة «كيف يموت».

ولقد تكاتفت عوامل كثيرة لانتزاع هذه الحرية من الموت. فان قلوبنا تتمرد حين نفكر أن شخصياتنا تنتهى إلى «اللاشيئية»، وتأبى أن تؤمن بأن الله يخلق الناس للعدم، كما يعبث الطفل الصغير بفقاقيع الصابون. لذلك يسوقنا شعورنا الطبيعى إلى التمشى فى بستان القيامة لنرى أنفسنا أحياء مع الرب المقام. ولأنه حىّ، فإننا سنحيا أيضا.

ومنذ سنوات قرأت كتاباً، لسيدة باسلة - عنوانه «مصلح الطريق» - كتبته السيدة الكريمة قبيل نهاية حياتها. وهى طريحة الفراش، تعانى أمر

صنوف الألم ، وتصور أفكارها وهى فى غمرة من الأوجاع . وتصف النهاية وهى تقترب إليها كأنها تدخل من « البوابة البيضاء » — بوابة قد تسلقت عليها أغصان الكروم ، ووراءها سهول خضراء . وأشجار ظليلة ، وطرقات معبدة تحف بها كل ألوان الجمال . وإذ تمرُّ من هذه « البوابة » تنظر إلى الوراء بروح مغتبطة لا أثر فيها للمرارة ولا الخوف . ثم تختم كتابها بصيحة الوداع قائلة « الوداع عند هذه البوابة البيضاء » .

وليت شعرى منَ الذى كسا هذه البوابة باللون الابيض ، من الذى فرش هذا البساط الأخضر الجميل الممتد أمامها ؟هو يسوع ، الذى أثبت لنا أن الموت ظلٌّ ، وأن الظل لا يؤذى . .

رسالة حية مثيرة

ولو أننا كنا مع التلاميذ فى صباح القيامة ، لكنا سمعنا — قبل أى شىء آخر — تلك الرسالة الرنانة : إن المسيح حىٌّ . تلك كانت الفكرة الغالبة التى ملأت آفاق تفكيرهم . فى يوم السبت كانت لهم ذكرى عزيزة سحقت قلوبهم ، وأما فى يوم الأحد فكان «هو» معهم . فالقيامة فى نظرهم لم تكن مجرد انتصار القيم المعنوية الروحية ، ولا مجرد غلبة الموت ، بل كانت رسالة حية ، مثيرة ، محببة — أن الذى أحبوه ، وفقدوه إلى حين ، قد عاد الآن إليهم ليكون معهم .

وهذه رسالة تحيينا نحن فى هذا العصر ، لأنها تؤكد وجوده معنا كل يوم . وها نحن نرى أساس المجتمع المسيحى الاول ، جماعة الرسل ، علاقة شخصية بين يسوع وأنصاره وأتباعه .

إن ولاء بطرس لشخص يدعى يسوع الناصرى ، ومحبة ذلك الشخص لبطرس — هذه المحبة وذلك الولاء هما اللذان جذبا بطرس من شباك الصيادين.

ان محبة مريم المجدلية لإنسان أكرم أنوثتها ورفع عارها — هى التى جملتها بثوب الطهر والبر .

إن خواص الزعامة التى أسندت توما المرتاب عندما تمرد عقله عليه — هى التى أعادت الثقة الكاملة إليه .

أجل . كانت العلاقة الشخصية بين الأتباع وزعيمهم ، وبين المعلم وتلاميذه، الأساس الذى قامت عليه تلك الجماعة الأولى . وأثبتت قيامة المسيح أن تلك العلاقة لم يعرها أى اضطراب . وفى وسعنا نحن التلاميذ اللاحقين أن نستمتع بهذه الرابطة عينها ، فتغمر قلوبنا بذلك الولاء عينه .

وهذا اختبار صدق ، قد عرفته نفوس لاتحصى مدى الأجيال .

ليت لى أجنحة !

«... خرج الانسان الأول مرة إلى الأدغال والحراج
التى اتخذ فيها مأواه . واخضع الأرض لسيارته وقاطراته
وأسلاكه الكهربائية وغزا البحر ببواخره وغواصاته ،
وحلق فى الهواء بطائراته ، وجعل من الأثير مطية لمخابراته،
وحط على وجه القمر بصواريخه ... ولكن ... »

لشد ما تاق الإنسان فى كل أحقاب التاريخ إلى أجنحة يحلّق بها فى الفضاء البعيد . وهو من ناحية ، يحسّ إحساساً عميقاً بتلك القوى الخفية الكامنة فيه ، ويحن إلى الكشف والتجول فيما وراء مدى النظر ومجال الفكر ، ولكنه من الناحية الأخرى يحس بتلك القيود والأصفاد التى تربطه بها الظروف التى يعيش فيها .

وهذا الشوق الشديد الملح فى الانسان مطمح نبيل شريف يحقق المصير المجيد الذى أعدّه الله له . وبفضل هذه الغريزة النزاعة إلى الانطلاق لكشف المجهول ، خرج الإنسان الأول من الأدغال والحراج التى اتخذ فيها مأواه ، وأخضع الأرض لسياراته وقاطراته وأسلاكه الكهربائية ، وغزا البحر ببواخره وغواصاته ، وحلق فى الهواء بطائراته ، وجعل من الأثير مطية لمخابراته ، وحط على وجه القمر بصواريخه .

على أن هذا المطمح النبيل العظيم قد انهار وانحط ، فأمسى نزقاً غضوباً وحالة نفسية دنيئة مشاكسة ، وتقمص المطمح العريض حتى بات مجرد أفلات

من مشاكل الحياة ومتاعبها إلى هدوء واسترخاء خال من الجهاد والكفاح .
ألم تر إلى إنسان عاش فى مدينة أورشليم قبل ثلاثة آلاف سنة ،وقد ضاقت نفسه كل الضيق من المدينة وما شهده فيها من قسوة وظلم وغدر . وأنه لكذلك وإذا به يرى من بعيد حمامة تبسط جناحيها لتطير إلى عشها فوق شجرة أو عند حافة جبل ، بعيداً عن مساكن البشر التى تعج بصنـــوف الرذائل والموبقات ، فتخرج من أعماق قلبه صيحة حرّى « ليت لى جناحاً كالحمامة فأطير وأستريح » .

وإنها لغمامة سوداء كثيفة حطت ظلامها على أنفس البشر مدى أجيال العصور ، من الراهب فى ديره والناسك فى صومعته ، إلى رجل الأعمال المضطرب القلق فى عصرنا الحديث .

محاولة الهرب والافلات

وليت شعرى ما الذى يحاول النـاس الإفلات منه ؟ إنهم يريدون اجتناب ـــ غدرات الزمن وتقلب الحال . ذلك لأنهم واجدون أنفسهم فى جو بعيد عن الاستقرار والطمأنينة . فهناك القلق على الصحة ، أو القلق على الثروة ، أو القلق على البنين ، أو القلق على الروابط الانسانية والعلاقات البشرية خشية أن تنهار وتزول .. ومن هو الانسان الذى يضمن وفاء الأصدقاء دائما ، أو بقاء الأحباء معه أبداً . إن عواطف القلب متقلبة لاتلبث على حال ، ولاينقضى عام لايسبقنا فيها صديق أو حبيب إلى القبر . بل مَن هو الإنسان الذى يثق بنفسه وأخلاقه ونزاهته تجاه الصدمات والمغريات التى تعترضنا فى الحياة « لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل ... لست أفعل الصالح الذى أريده ، بل الشر الذى لست أريده فاياه أفعل »...

أجنحة الفلسفة

ولقد حاول الناس الهرب والإفلات بطرق شتى وأساليب متنوعة . جربوا مثلا أجنحة الفلسفة ليطيروا بها من العالم . وقديماً وقف زينون

الفيلسوف الرواقى فى « رواقه الملون » بأثينا يدعو الناس إلى قبول فكرة عن الكون عابسة متجهمة . وإلى اتخاذ موقف الاستسلام الهادىء المستهتر حيال تقلبات الحياة ، وإلى البلادة والجمود إزاء فقد الأصدقاء والأحباء . ولكن أولئك الرواقيين باتوا — من خشيتهم أن يكونوا ضعفاء مخنثين — كحجارة من رخام بارد . احتقروا الألم واحتقروا الموت . وحسبوا الرجولة فى الاستهتار بالألم والاستخفاف به . وما دروا أنهم بهذا الموقف الذى يحاولون فيه الصعود فوق الانسانية قد هبطوا إلى ماهو دونها . تتلقى الضربة فلا تجفل ولا تفزع . أليست هذه بطولة الحجر الأصم ؟ تواجه الموت فلا تكترث له ولا تأبه . أفلست إذاً غير جدير بالحياة . إن البطولة الحقة هى التى تستشعر الألم الذى تقهره ، وتحب الحياة التى تبذلها فى سبيل قضية نبيلة .

أجنحة الفن والتخدير

ولقد جرّب الناس الفن سبيلا للهرب ، كما التمسوا السلام والهدوء فى المخدرات مثل الحشيش والأفيون والكوكايين والهرويين وما شاكل ذلك . ولكن بوليسنا ومحاكمنا ومستشفياتنا ومصحاتنا العقلية شهود عدل على عقم هذه الوسيلة ووخامة عقباها . بل سعوا إلى المخدرات الروحية والعلوم العقلية وزعموا أحياناً أنهم مستطيعون الهرب من الشر بانكار وجوده ، وهم يطالبونك أن تغلب مساوىء العالم وشروره التى تجعل الأرض جحيما بابتسامة ساخرة كأن لاوجود للخطية والاثم .

ليست الراحة استرخاء

وإلى عالم الانسانية القلق المضطرب ، التائق إلى النجاة والسلام ، يجىء المسيح برسالته . « تعالوا إلى أيها المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم . احملوا نيرى وتعلموا منى تجدوا راحة لنفوسكم لأن نيرى هين وحملى خفيف» . ولكن ترى ماذا يقصد بالراحة ؟ أهى الاسترخاء العقلى والذهنى والجسمانى ،

وخنق المواهب والملكات ؟ لقد جاء لتكون لنا حياة ، وليكون لنا أفضل. فلن تكون راحته استرخاء وخمولا ، لأنه يتحدث عن نير ، والنير يحمل معنى الجهاد والعناء ، حتى ولو كان شركاؤك فى الانسانية يحملون عنك العبء الأكبر منه . إن راحته هى النشاط العامل الذى يهدف إلى غرض معين . وغير خاف أن الخمول يورث الضجر والسأم . ونحن نحيا ونتطور بالجهاد والكفاح . وإذا فقدنا لذة الجهاد فقدنا لذة الحياة ذاتها . لهذا يموت كثيرون حالا عقب اعتزالهم الخدمة لأنهم يفقدون الأمل الحافز فى الحياة ويمسى كل يوم فيها ضياعاً فارغا مملا . يسأمون ويضجرون حتى الموت . إن الحياة هى النشاط العامل الذى يهدف إلى غرض معين ...

أجل ، يجىء المسيح ليشبع مطالب الشخصية الانسانية كلها . فهو يمنح العقل استنارة ، يؤمن بها أن الكون وأسراره ليست خفايا مستغلقة ، لأن وراءها عقلا حكيما مدبراً وهو يمنح القلب محبة ، ويجعل الكون كله موضعا لهذه المحبة ، لأن وراءه قلباً كبيراً يخفق بالحب . وهو يهب الإرادة قصداً حكيما متزناً تسعى إليه جهودنا فنهدف إلى بلوغه كجنود أمناء ، نواجه المخاوف والمخاطر فرحين واثقين بالنصر .

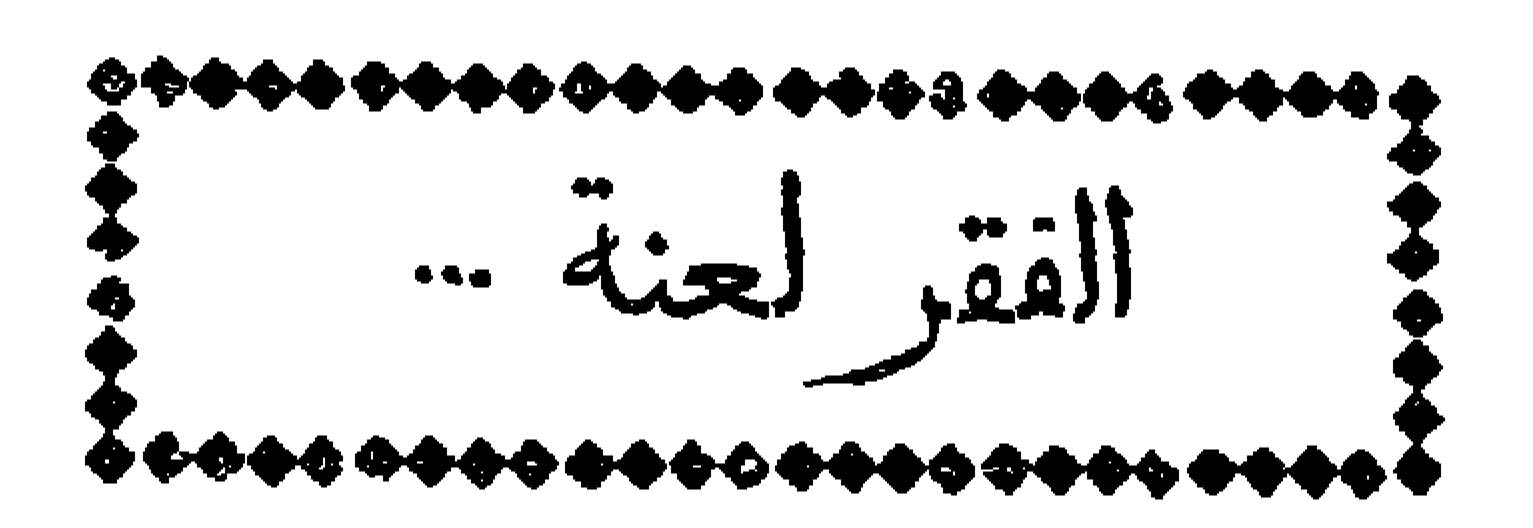
يحطم قيود الخطية

هو يجىء ليحطم قيود الخطية التى تشل أحاسيسنا . ويشكو كثيرون فى هذا العصر مما يسميه علماء التحليل النفسانى « مركبات » . والآثام الروحية تنشأ عنها عادة علل جسمانية . وإنا لنرى أنواعاً من النسور ستانيا ، وحتى بعض الاضطرابات العضوية ، فى غير متناول الطبيب ، لأنها ناشئة فى أصولها عن علل غير جسمانية ، عن نشوز فى العلاقات بين الانسان وأخيه الانسان ، أو بينه وبين الله . وقد يرتكب أمرؤ عملا خاطئاً ، ويبقى هذا الخطأ ماثلا فى ذهنه ، يروعه أن يستعلن يوما ما ، وهذه الخشية الحائرة تولد علة عصبية

مستعصية . ويقال انه إذا احتضن القلب ضغينة وغذاها ، فلا تلبث أن تولد نوعا من الأورام السرطانية التي لن يقدر مشرط الجراح على إستئصالها كما يقال ان العقل الأبله ، والارادة الخائرة ، مردّهما فى نهاية الأمر إلى مصدر روحى نفسى . والمسيح يقدر أن يزيل كل هذه العوائق ويهبنا حرية وقوة ، ويجعل واجباتنا مفهومة مقبولة لإرادتنا ...

وكفى هذا للحياة الحاضرة . ولكن هذه الحياة قصيرة الأمد لاتثبت على حال . وفى المسيح حياة لانهائية ومحبة خالدة . فيه راحتنا أولا وراحتنا أخيراً. وحين نلبي دعوته ، تستحيل دموعنا عدسات نبصر خلالها بعض أمجاد العالم المجهول ...

فى هذا الجانب مروج خضراء ناضرة ، وفى الجانب الآخر مروج خضراء ناضرة ، وبينهما النهر الأزرق ، ولكن المروج الخضراء واحدة ، فى هذا الجانب وفى ذاك ... ...



الفقر لعنة ...

« الفقر فى نظر المسيح اشبه بالمرض . مشكلة يجب حلها ، وسيئة يجب مكافحتها ، ونداء يجب استجابته باسم الانسانية .. »

ما أحسب المسيح قد أحب الفقر أو رحب به ، وإن يكن قد نظر إليه نظرة تغاير نظرات البشر ، وحاول أن يجعله وسيلة للبناء لا الهدم . وقليلون عرفوا الفقر وخبروه كما عرفه وخبره هو . ذلك لأنه لقيه أينما سار . رآه على قارعة الطريق حيث جلس برتيماوس الأعمى يستعطى العابرين . اصطدم به عند بوابة ذلك الغنى ، حيث جلس لعازر المسكين يترقب الفتات الساقط من موائد المتخومين . تصدى له عند باب الهيكل حيث كشف الحرمان عن ثياب مهلهلة وفاقة باكية منتحبة . عرف المسيح أن الفقر يجرّ فى أذياله الجوع والهم والقلق ، وانتصب شبحه المخيف أمام ناظريه فى كل يوم من أيام حياته .

وإذا نحن استقصينا فكر السيد الرحيم ، رأيناه ينظر إلى الفقر كعلة خطيرة خبيثة ، تشين كرامة الانسان وتهدد حياته وحريته . وقد أماط اللثام عن هذا يوم حشر المساكين الفقراء فى زمرة الجدع والعرج والعمى بقوله فى أحد أمثاله « أخرج ... وأدخل إلى هنا ... المساكين والجدع والعرج والعمى » ، ويوم قرن المساكين . . . « بالمنكسرى القلوب والمأسورين والعمى والمنسحقين فى الحرية » ، عند التحدث عن رسالته على لسان النبى القديم .

عرف الحقيقة سافرة فى غير مواربة ولاخداع . وكما أن المرض يشلُّ حركة الانسان ، ويحول بينه وبين القوة والحيوية الكاملة ، فان الفقر يعرقل خطاه ويحرمه نعمه الحياة الكريمة . وكعين كفيفة لاتبصر ، ويد يابسة لاتتحرك ، وعضلة مشلولة لاتنبض بالحياة ، يحدث الفقر اثره فيقيد الحرية باصفاد ، ويضيّق آفاق الحياة ، ويفرض عليها عجزاً مشيناً خطيراً . وهذه حقيقة لانقدر على إخفائها بالمغالطات الاقتصادية ، أو الحيل والفتاوى الدينية.

الفقر فرصة للعمل والجهاد

ورأى المسيح أيضاً فى الفقر فرصة للعمل والجهاد . لم يشاطر الناس آراءهم فى الاستسلام للقدر ، ولم يرضَ عن الذين يقعدون فى استخذاء عاجز أو يأس أسود أمام شر خطير او سيئة اجتماعية . لم يستسلم إلى شرور العالم ومساوئه ، ولم يكن من طبيعته التهاون والتراضى مع قوى الشر التى تسلب الحياة هناءها ، أو تخفض من قيمها ، أو تنقص من قواها ، بل احتفظ دوما بروح باسلة تائقة إلى مصارعة الشرور والمساوىء وتحطيم الأخطاء والمظالم . رأى فى الفقر مايحفز على العمل والجهاد : « ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً » . وقد حاول المعاندون ، بما جبلوا عليه من الالتواء والانحراف عن الحق ، التحايل الماكر لتحوير القصد الذى رمى إليه المسيح ، فقالوا فى دعاية ساخرة وتعليل سخيف ، إنه عنى بهذا القول ان الفقر ضرورة مقدرة يفرضها نظام المجتمع ومقتضيات الحياة الانسانية ، وانه كابوس اقتصادى وضعه إله النقمة على ظهر الانسانية إلى الأبد . ولكن حاشا أن يقصد ربنا هذا المعنى . ولن يمكن أن يكون الفقر نظاماً إلهياً قدّر له أن يبقى مابقى الزمن. وليس هو ضرورة اجتماعية . بل هو ضلالة اجتماعية ، ينبغى على المسيحيين الكفاح لإزالتها والقضاء عليها .

ولقد عبَّر المسيح أصدق تعبير عن فكره فى هـــذه المشكلة بمثل الغنى ولعازر ، وقد مثل فيه صوت الفقر الصارخ يخرق آذان الغنى المترف ،

فأعوزته الشجاعة لقبول هذا التحدى . كذلك شرح موقفه فى حديثه مع الشاب الغنى . فقد كان الشاب مخلصاً طاهر الذيل ، نقى القلب ، دفعته غيرته وإخلاصه إلى تلمس الطريق نحو المسيح للاستهداء برأيه . فلما رسم أمامه مأساة الفاقة البشرية ، لم يقو على استجابة النداء ، ومضى حزيناً لأنه عجز عن المغامرة بأمواله ومقتنياته .

الفقر مرض

والفقر فى نظر المسيح أشبه بالمرض ، مشكلة يجب حلها ، وسيئة يجب مكافحتها ، ونداء يجب استجابته باسم الانسانية . ويتم هذا بكافة الوسائل التى يبتكرها كل عصر حسب حاجاته وتبعاً لنموه وتطوره ، ففى عصر المسيح لم يعرف المجتمع البشرى النظم والمؤسسات الخيرية ، ولم يكن الوعى الاجتماعى قد نضج وبلغ حداً أدرك فيه معنى الوسائل الاجتماعية لمكافحة السيئات الاجتماعية . واقتصر الناس على الاحسان الفردى ، إلى أن اختمرت فكرة الخدمة الاجتماعية فى قلب الكنيسة،ونهضت لإنشاء مؤسساتها لإسعاف الفقراء ومحاربة الفقر .

الفقر لا يطغى على روح الدين

على أن يسوع عرف أيضاً أن الفقر ، على الرغم مما يخلقه من ضمور فى الحياة ، لا يمكن أن يطغى على روح الدين فى النفس و يمحوها ، ذلك لأن الدين نبتة تغرس وتنمو فى أسوأ تربة . وفى أحط الأوساط قد تجد روح الايمان غذاء ينميها . وكما أن النباتات الشائكة التى تتعلق بالرمال المبللة على شاطىء البحر ، تنبت أوراقاً خضراء ، وأحياناً زهوراً قرمزية ، على الرغم من قحل التربة وعصف الرياح ، كذلك قد تنبت روح الايمان فى الحياة التى شوهها الفقر ، وداس عليها بكلكله ، وتثمر جمال القداسة متحدية بذلك قذارة الفقر الكئيبة القاسية . ويوماً ما وقف المسيح خارج هيكل أورشليم — حيث

يلقى الأغنياء الموسرون بتقدماتهم فى زهو وخيلاء — ووقع نظره على امرأة أرملة فقيرة ألقت كل معيشتها فى صندوق الإحسان ، مسوقة إلى ذلك بوازع من التقى لم يقوَ الحرمان على خنقه فى حياتها. فهز هذا المشهد أوتار قلبه وعلق عليه كأنه زهرة يانعة ناضرة فى مسكن حقير قذر .

والدين الحق — فى نظر المسيح — يقوى على مغالبة الصعاب والمشاق التى تضغط على الفقراء . ولقد أيّد هذه الحقيقة رسوله الأكبر الأمين فى اختباره الشخصى بقوله : « ... فقراء ونغنى كثيرين ». وأيضاً « ... فى جوع وعطش فى أصوام كثيرة . فى برد وعرى ... »

ولكن فكر المسيح عن الفقر يؤكد لنا أن ملكوت السماء ستمحوه ، وتزيل لعنته . وكلما ارتقى ملكوت الله ، تحلل الفقراء من المشاق والمتاعب التى تنغص عليهم حياتهم . ومثل الموت والحزن والبكاء والوجع ، يختفى الفقر فى أورشليم الجديدة . ولم يحسب المسيح ملكوت الله عزاء مستقبلاً عن الفقر الأرضى ، ولا تعويضاً عنه ، بل نهاية له . وهذا الملكوت يقتضى حتماً زوال الفاقة والعوز والحرمان . ومرة أذاع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نداء على شعبه قال فيه : « نحن أقرب ما نكون إلى النصر النهائى على الفقر ، وقد سبقنا فى هذا الكفاح كل امة على الأرض ، لأن المسكن الحقير القذر قد اختفى من بلادنا » . وهذا التغيير الذى يشير إليه رئيس أكبر أمة فى العالم ، قد سبق وأنبأ به المسيح فى دعوته ، وأذاعه فى الملأ بقلب يفيض بشراً كأنه جزء حيوى من رسالته .

وغير خاف أن المسيح نظر إلى العالم بعين العصر الذى عاش فيه . واليهود فى عصره حسبوا التوفيق والنجاح فى الحياة رمزاً إلى عناية الله ومنه وكرمه . وهم قوم عرفوا الفقر وذاقوه فى حياتهم القومية مراراً ، ولكنهم لم يستسلموا أبداً إلى قيوده وموانعه ، ولم ييأسوا أبداً من التغلب عليه والتحرر منه بعناية الله وبركته . .

إن فكر المسيح إزاء الفقر جليّ واضح لا لبس فيه ، وهو يدعو أنصاره وأتباعه إلى مكافحته ، والقضاء عليه ، وإقامة ملكوت الله على الأرض ، الذى يغتبط فيه الفقير ، بعد إذ يوارى الفقر اللعين فى حفرة الموت .

النور من الأشياء القليلة فى الدنيا التى تخلق فى النفس لذة وحبوراً . . . فإشراق الشمس فى الصباح الباكر ، والأضواء والظلال التى تتعاقب على البحار والجبال والمروج الخضراء ، والسحب المتقطعة السابحة فى الجو ، والألوان الرائعة التى ترتسم عند غروب الشمس ، وتلألؤ الكواكب فى الليل البهيم — هذه كلها أنوار تتعاقب ، فتتولد فى النفس روعة وخيالا ، ولذة وحبوراً . وكلمة « الظلمة » التى نطلقها على أضداد هذه تحدثنا الحديث عينه ، ذلك لأننا نقرنها عادة بالأوكار المظلمة ، وفعال الشر والإثم ، وعصور الجهل والرعب فى التاريخ . كذلك نقرنها بالعمى الذى يحرمنا لذة البصر ورؤية النور . ولعلنا لانجد فى أدب العالم كله قصيداً أروع وأنفذ إلى القلب ، من ذلك القصيد الذى كتبه الشاعر الانكليزى ملتون عند فقد بصره .

ولذلك حين يقول المسيح لأتباعه « أنتم نور العالم » ويوصيهم بأن يحملوا مشعل هذا النور فى أرجاء الكون ، نحسب هذا دعوة جليلة ، سامية عليا ، لأنها تخصب حياة من حولنا وتجعلها عذبة مشرقة .

نور العقل

ونور العقل ، أو المعرفة ، من أفضل أنواع النور التى يقدمها الناس للعالم . ويزداد قدر هذا النور فى عصر كشف فيه علم الفلك عن المسافات الهائلة فى الكون ، حتى كاد الإنسان يحسب قزماً ، ومخلوقاً تافها ، ضئيل القدر فى هذا الكون العظيم ، ولكن نور العقل رفع شأن الإنسان ، وأثبت أن العظمة ليست فى ضخامة الحجم ، بل فى خواص العقل وجبروته . وكلما ازدادت مسافات الكون ، علا قدر العقل الذى استطاع أن يقيس هذه الأبعاد الهائلة ، وسما فضل الإنسان هذا المخلوق الصغير .

نور القلب

على أن نور العقل ليس النور الوحيد الذى يعوزنا . فالمعرفة بالمعنى العلمى ليست أهم شىء فى الحياة . ذلك لأن نور العقل قد يصير فينا ظلاماً . ونحن إذا درسنا اليوم حالة العالم ، لانسمع أنباء الحروب والكراهية والقسوة والظلم — بين شعوب افريقية ولا سكان آسيا ، بل بين الأمم والشعوب التى ظفرت من المعرفة العلمية بنصيب عظيم ، وبلغت من الرقى العلمى شأواً رفيعاً. ومعنى هذا أن نور العقل يفتقر إلى نور آخر يسيطر عليه قد نسميه نور القلب ، أو نور الأخلاق . ذلك لأن الانسان لايعرف فقط ، بل هو يحيا . ويضحك ، ويحب . ومحبته وضحكه ينيران فى العالم بضياء أكثر لمعاناً من نور العقل المجرّد .

نور الإيمان

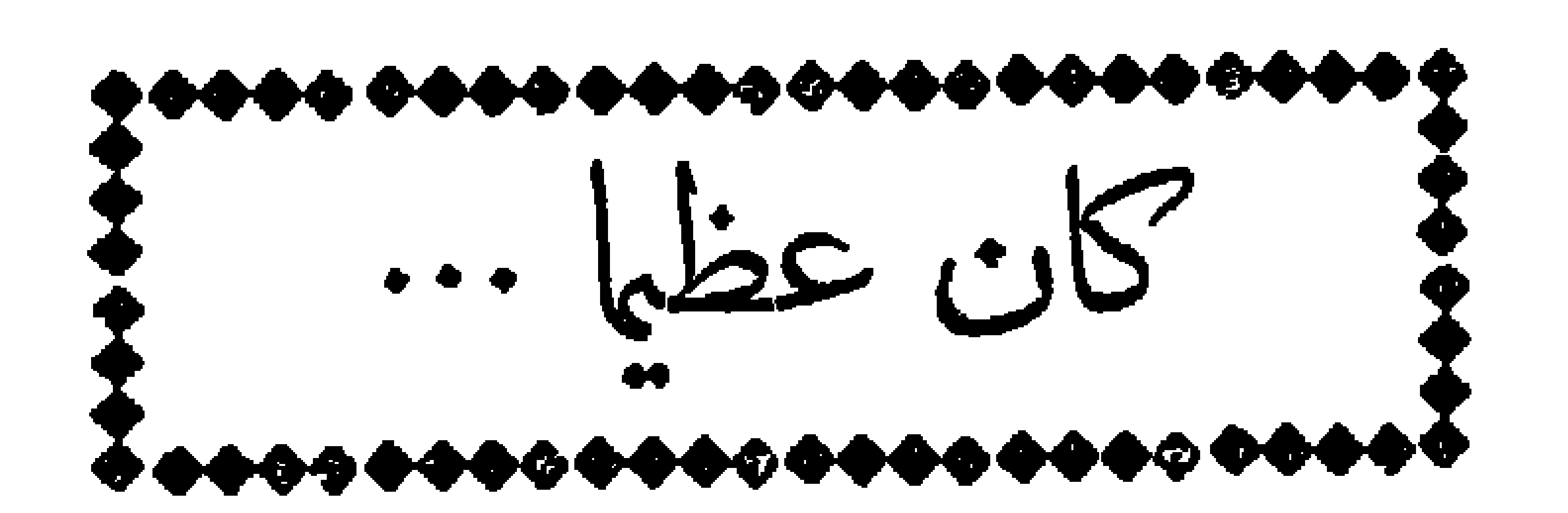
نور العقل ونور المحبة من أهم الأنوار التى يجب علينا تغذيتهما بمادة الاشتعال فى حياتنا ليبقيا مضيئين . ولكنهما ليسا كافيين . فثمة نور ثالث لاغناء عنه هو نور الإيمان . فى مدينة ديجون بفرنسا تحفة فنية خالدة صاغها المثال الفرنسى « رود » منذ قرن ، وأسماها « نبوليون يستيقظ إلى الخلود » .

وقد رسم الفنان العاهل العظيم الذى دوخ العالم ، وقهر الممالك ، وأذلّ العروش ، مستلقياً على مضجع وقد ارتفعت رأسه قليلا كأنه يستيقظ من نوم ، وارتسمت على محياه أمائر مستغربة ، ينم بعضها عن الكبرياء وبعضها عن الذهول — كأنه بدا يتساءل : أفى العالم من هو أعظم منى ؟ أفى العالم بلد لم أقهره ؟ — ثم يشرق على محياه النور الروحى — الإيمان ، الذى هو أبهى وألمع الأنوار التى يحملها الإنسان معه فى هذا العالم .

وبعد لسنا وحدنا فى العالم ، فنحن من فصيلة الإنسانية التى تعيش على الآمال الكبار فى الخلود والبقاء . وقد يكون إيمان الفرد قوة شمعة واحدة ، ولكنه قوة هائلة مع المجموع .

ومن طريف ما يروى عن أحد قواد الثورة الأمريكية ، أنه حين أتته المنية راح يهذى فى حالة غيبوبة . ويصدر أوامر إلى جنوده كأنه يستعيد ذكرى حملاته : إلى الأمام فرقة المشاة ! الفرقة الرابعة تستعد للهجوم !... ثم أعقب هذيانه صمت طويل ، وقال بنبرات واضحة هادئة : « لنعبر النهر ، ونسترح تحت ظلال الأشجار ! » وبهذه الألفاظ أسلم الروح .

ربى ! هبنا أن نعبر نهر الحياة حاملين مشعل الايمان ، بعد أن نكون قد أدينا واجبنا ، وأكملنا سعينا ، فنستريح تحت ظلال الأشجار .



كان عظيما ...

« يسوع المسيح لم يكن عظيما — لا من الوجهة السياسية ولا من الوجهة الحربية. «ملكا لم يغز» ، ولا من الوجهة العلمية « اختراعا لم يبتكر» ، ولا فى الفنون والآداب والفلسفة « كتابا لم يكتب » — لم يوضع فوق هامته تاج من ذهب ، ولا تاج من الزهر ، ولكن ...»

فى إحدى صفحات « مذكراته » المشهورة ، يميز الفيلسوف الفرنسى بسكال ، الرياضى العبقرى ، الذى صار من أقوى أنصار المسيحية والمدافعين عنها — بين ثلاث مراتب للعظمة الجسمانية ، والروحية ، ومرتبة ثالثة يسميها تارة الحكمة وتارة أخرى المحبة .

وتتمثل المرتبة الأولى — أى العظمة الجسمانية — فى الملوك والأغنياء والقواد ، ويمثل المرتبة الثانية آرشميدس الذى لم تشهد العيون معاركه وفتوحاته ، بل لقد زود الأرواح والعقول بمبتكراته ومخترعاته . أما المرتبة الثالثة فيمثلها يسوع المسيح ، وهو « مجرد عن المال وعن الانتاج العلمى » ، ولكنه امتاز « برتبته الخاصة فى القداسة والبر » .

ثم يقول إن بين الناس « من لا يعجب إلا بالعظمة الجسمانية ، وكأنما ليست ثمة أشياء روحية . وغيرهم لا يعجبون إلا بالروحيات ، وكأنما الحكمة تفضل كل الأشياء ، ولا شىء فوقها » .

وما من شك في ان هذه المراتب الثلاث للعظمة قد وجدت فى كل عصور التاريخ ، ولكنها برزت بروزاً ظاهراً وقت ميلاد المسيح .

وقد ولد المسيح فى عصر الإمبراطور اغسطس،وهو من أعظم الأباطرة الذى شهدهم العالم ، وتمثات عظمته فى رومية التى أخضعت شعوباً كثيرة لنظام حربى وقضائى محكم هائل . وقلما شهد التاريخ مثل هذه العظمة « الجسمانية » التى فُرضت على الناس واقترنت بالقوة والمجد والجلال .

وتجسمت العظمة « الروحية » فى مدينة الإسكندرية ، العاصمة العقلية والعلمية للعالم فى ذلك العصر ، وملتقى العلماء والكتاب والفلاسفة والشعراء ، ومقر مكتبة فريدة اشتهرت باتساعها وغناها ، ومدرسة كان ينهل من مواد ثقافتها الشباب من مختلف البلدان ،

فاذا كانت قرية بيت لحم إذا قيست برومية والإسكندرية « بيت لحم الصغيرة بين ألوف يهوذا » (ميخا ٦ : ١) ، حيث نرى فتاة قادمة من الناصرة ، وهى أيضا مدينة مجهولة وشبه محتقرة (يو ١ : ٦ و ٧) . وهناك تقدم للعالم طفلها البكر .

وماذا كانت حظيرة المواشى إذا قيست بالقصور والحدائق الإمبراطورية والمتاحف والمشاهد القيصرية ، تلك الحظيرة التى أقام فيها يوسف ومريم، إذ لم يكن لهما موضع فى الخان ، بسبب أزمة المساكن !

وماذا كان ذلك الطفل الذى أدخل مولده البهجة والحبور إلى دار عامل فقير — إذا قورن بالإمبراطور ووزرائه وقواده وحاشيته وشيوخه ومشرعيه وقضاته ونوابه ، الذين تتألف منهم الطبقة السياسية والحربية . . أو إذا قورن بالأساتذة ورؤساء المدرسة الذين خلعت عليهم ألقاب الشرف والتكريم .

وإنا لعلى يقين بأن أحداً لم يتكلم عنه ، وخاصة فى رومية والإسكندرية. ولم يشر إليه مؤرخو ذلك العصر بكلمة ، وإن كنا بشق النفس نستجمع فى مؤلفاتهم بعض التلميحات الشاردة عن خدمته وأعماله . وقد أراد قوم أن يستنتجوا من هـ ا الصمت دليلا على أن ذلك الطفل لم يوجد قط .. كأنما كان لزاماً على أولئك السادة الأماجد أن يعرفوا ويذكروا كل الأطفال الفقراء الذين يولدون فى كل زوايا الأرض ودساكرها .

ولكن ما الذى نراه اليوم ؟

هل يحتفى العالم بذكرى ميلاد أغسطس قيصر مؤسس الإمبراطورية وعاهلها العظيم ؟ أو ذكرى ميلاد فيلو الاسكندرى أعظم فلاسفتها وأعلامهم كعباً ؟

كلا ! وهنا لغز ميلاد المسيح . انه عيد ميلادذلك الطفل المجهول الذى ولد فى بيت لحم أبان مجدهم وعظمتهم . ذلك لأنه أظهر نوعاً من العظمة ، تسامت فوق عظمةالآخرين سمواً لا حد له ، فخلد وعاش بعد فنائهم .

وما الذى بقى اليوم من امبراطورية أغسطس ؟ إنهارت فى أواخر القرن الثالث والرابع ، وخلفتها امبراطوريات أخرى سقطت هى أيضاً بدورها . وظهرت أسماء أولئك العظماء فى كتب التاريخ ، محصورة بين رقمين من السنين، كأنها الحجارة المتساقطة فى بناء العظمة « الجسمانية » . ولكننا بعد انقضاء تسعة عشر قرناً ما برحنا ننشد أهازيج الميلاد .

وما الذى بقى من مدرسة الإسكندرية التى ازدهرت يوماً وحفها الرواء والبهاء ! كان شأنها شأن الإمبراطوريات ، فالعقائد العلمية والفلسفات تخلفت وسبقتها غيرها . وتعاقبت الواحدة بعد الأخرى ، مما أربك عقول طلاب العلم . . زالت كلها كما تزول الموديات القديمة البالية أمام الأزياء والموديات

المستحدثة ، بعد أن أيقظت رغبة حب الإستطلاع فى نفوس الباحثين فترة من الزمن،وبعد أن اعتز بهاإلى حين الأدباءوالمفكرون والغواة:الأفلاطونية الحديثة . الفلسفة الواقعية ، الفلسفة العقلية ، مذهب ألوهية الكون ، الفلسفة الأمثلية ، مذهب العقليين ، الفلسفة المادية ، علم النقد الحديث ، فلسفةهيجل، الفلسفة الوضعية ، مذهب وحدانية الكون ، مذهب النسبية ، الفلسفة الداعية إلى أن إدراك الحق يكون بالبديهة ، الفلسفة الوجودية . . وهى موضع افتتان العصر الحديث . والناس يبتكرون هذه الأشياء المستحدثة ، ثم ينسون الأشياء الأخرى ، ولكنهم يهرعون دائماً إلى المعابد والكنائس لسماع يسوع الناصرى يتكلم .

قال بولس الرسول : « اختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء ،واختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود ، لكى لايفتخر كل ذى جسد أمامه » (١ كور : ٢٧ — ٢٩) .

وقال يسوع قبله : « يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله ، وهىأصغر جميع البذور،ولكن متى نمت فهى أكبرالبقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى وتتآوى فى أغصانها » (متى ١٣ : ٣١ و ٣٢) .

وهذا كلام مفهوم . فيسوع المسيح لم يكن عظيما — لا من الوجهة السياسية ولا من الوجهة الحربية . « ملكا لم يحز » — ولا من الوجهة العلمية « اختراعاً لم يبتكر » — ولا فى الفنون ولا الآداب ولا الفلسفة « كتابا لم يكتب » — ولا فيما يعتز به أهل هذا العصر من غنى وكرامة وجاه وألعاب وسينما . . لم يضع فوق هامته تاجا من ذهب ، ولا تاجاً من العظمة ، ولا تاجاً من الزهر ، بل تاجا من الشوك وضعوه فوق رأسه سخرية وازدراء .

ولكنه فريد من نوعه ، احتل مرتبة خاصة من القداسة والبر ، سما بها فوق الآخرين . وما أكثر الأمجاد التى ظهرت منذ مولده . ثم زالت معالمها واختفت آثارها . وما أكثر الرجال الذين احتكروا — إلى حين — الفكرة الأولى . ولم يعد العالم اليوم يفكر فيهم شيئاً ! بينما يهرع فى كل عام عندحلول عيد الميلاد ، جماهير لاتحصى من الحجيج إلى المذود ، أمام الطفل الوليد،الذى جاء ليعلن للعالم العظمة السامية الخالدة ، العظمة التى تقوم على القداسة والمحبة والتضحية .

مهداة إلى الكنيسة

« . . . الكنيسة أشبه بالسندان الذى يطرق عليه الحداد قطعة الحديد . فهى لم تعد المطرقة التى تضرب ، بل السندان الذى يُضرب ، ولكن كم احتمل السندان من ضربات ! وكم أبلى السندان من مطارق ! تتكسر المطرقة ويبقى السندان سليما لا يبرى ... » .

كنت أود أن تسعفنى الألفاظ لأصف للقارىء الكريم ومضات النور البراق المتلألئة فى عينيه ، ولكن فى الحياة أشياء لن يمكن أن تصاغ فى عبارات مسطورة يخطها اليراع ، أو منطوقة يطلقها اللسان . . .

وهو عضو فى « قطيع صغير » ، أحد الأبطال المجهولين ، الذين يحيون ، فى الريف وفى الحضر ، أمناء مخلصين ينتمون إلى هيئة يسمونها « الكنيسة » . وقد وضع وقته وماله ومواهب عقله النشط تحت قدمى ربه وسيده . ورحت أتحدث معه عن الكنيسة ومشاكلها ، وهى تواجه صعاباً وعقبات كثيرة فى بلدان كثيرة ، ورأيته يستسلم إلى شىء من عوامل الريبة والخوف ، ولكنه انتفض فى مقعده وقال : « لطالما فكرت فى كلمات المسيح : لا تخف أيها القطيع الصغير، لأن أباكم قدسر أن يعطيكم الملكوت — وقد نكون قلة فى العدد ، وأقلية بين الناس ، ولكننا جمهور كبير إذا قيس عددنا بزمرة الأتباع الأولين . وأولئك لم يخشوا شيئاً ولا خافوا ضراً ، وأنى على يقين

راسخ أن هذا شأننا أيضاً . فلقد حرسنا الله حقبة طويلة امتدت إلى ألفين من السنين ، وهو لن ينسانا الآن . . . » .

وظلت كلماته هذه أياماً يرجع صداها إلى قلبي ، وكلما تأملتها ازددت إيماناً ويقيناً ، وتفاعلت في نفسي كثير من الفكر وشتيت من الخواطر ، آثرت أن يشاطرني إياها الزملاء الكرام . . .

يقيناً أن هذا « القطيع الصغير » لايدنو منه خوف ولاذعر ، لأنه يستمد وجوده من قلب الله ، ذلك لأن الكنيسة لم تؤسسها يد بشر ، بل صنعتها يد القدير .

أتدري كيف تبدأ المؤسسات العالمية ؟ يأتلف فريق من الناس على فكرة معينة مشتركة ، ويضعون لأنفسهم دستوراً ولوائح ، ويحددون الأهداف ، ويدعون الناس إلى الإنضمام إليهم والسير في نهجهم ، ثم يبدأون المؤسسة لتحقيق أهداف غينوها في دستورهم . أما الكنيسة المسيحية فلم يبدأها أحد من الناس ، ولا نظمها جماعة من البشر ، بل كانت هبة من الله للجنس البشرى وضع حجرها الأساسى المسيح نفسه . بدأت الكنيسة يوم دعا المسيح إثنى عشر من صحابته الأقربين ، ومنذ ذلك اليوم تعمل على الاساس عينه . وكل طقوسها وأسرارها وعبادتها وكتابها مستمدة من الله ذاته ، وكل حياتها نسجتها يد القدير ، لا يد إنسان .

وهذاالنبع الإلهى الذىتستمد منه الكنيسةحياتها وكيانهايجعلها غير قابلة للتدمير أو الفناء ، لأن الشعلة التى أضيئت فى السماء ، لن تقدر يد الأرض على إخمادها أو كبت أوارها .

وقد بذلت الأرض فى كل مراحل التاريخ شتى المحاولات لتشتيت أعضائها ، وإطفاء جذوتها ، وتدمير حياتها ، فباءت كل هذه المحاولات بالخسران المبين ، وما استطاعت أن تنال من الكنيسة شيئاً ، وغالبت ألوانا

من الاضطهاد ، وقهرت أصنافاً من المضطهدين . أنظر إليها يوم بدأت نواة صغيرة : استمرت عليها كل قوات الإمبراطورية « الرومانية » وسطوتها وبطشها ، ولما يتكتل أعضاؤها فى جماعة متماسكة ، ولكنهم بقوا أحياء ناشطين . أخرجت رومية من كنائسها أمرّ أعوادها ورمتهم بها ، وقتلت زعماءها ، وعذبت قادة ذلك « القطيع الصغير » . ولكن أين رومية اليوم ؟ هى شبح من أشباح التاريخ ، ولكن الكنيسة ما فتئت حية ناشطة مجاهدة !!

ولعل عجلة الزمن قد دارت دورتها ، ولعل قوات العالم تصطف اليوم فى بعض البلدان لمناوئتها وشل حركتها ، وكتم أنفاسها . أقول لعلنا اليوم أشبه بالسندان الذى يطرق عليه الحداد قطعة الحديد . لم نعد المطرقة التى تضرب ، بل السندان الذى يُضرب . ولكن كم احتمل السندان من ضربات ، وكم أبلى السندان من المطارق ! تنكسر المطرقة ويبقى السندان سليما لا يبرى . أليس من الخير لنا أحياناً أن نكون سنداناً لا مطرقة ؟ !

إن الكنيسة نظام إلهى ، مؤسسة كوّنتها يد القدير ، لن تقدر قوات البشر على تدميرها مهما بذلوا من جهود فى مناوءتها .

والذى يقرأ تاريخ الكنيسة يدهش حين يرى قوتها الغريبة على النهوض من كبوتها والإبلال من أمراضها . وكأية مؤسسة أخرى يكون للبشر شأن فيها ، قد تطرق إلى الكنيسة بعض عوامل الفساد الداخلى ، ولكنها على نقيض المنظمات الأخرى ، غالبت الفناء والموت . وبطريقة عجيبة كانت تسترد حياتها الجديدة فى كل مرة ، وتبدأ فصلا باهراً من فصول حياتها المليئة بالثمرات .

حدث هذا مرة فى القرون الوسطى فى عهد القديس فرانسز الأسيسى . وكانت الكنيسة قد انزلقت إلى أيام شريرة ، وهجرها أعضاؤها ، وهدمت أبنيتها . فدعا الله رجله ، الشاب الغنى المتمرغ فى أحضان النعماء والترف ،

يوم دخل كنيسة متهدمة فى قريته وجثا على ركبتيه يصلى . وانه لـكذلك وإذا به يسمع صوتاً يناديه : « فرانسز : ألا ترى إلى بيتى وقـــد تهدم مذبحه ، وتقوست سقوفه ، قم ورممه » . ففعل ولم يصلح الـكنيسة المبنية بالحجارة وحسب ، بل نفث روحاً فى حياتها الروحية والمعنوية .

ومثال هـذا قد حدث مرات فى الشرق فى فترات التاريخ التى لاقت الـكنيسة فيه أمر صنوف الاضطهاد وأعنف وسائل القهر والإعنات .

ان وراء الـكنيسة فى كل تاريخها نعمة الله الفياضة . وفى أزمان تبدو هذه النعمة متباعدة ، ولـكن لاتلبث أن تعود . وليس عبثا أن يشبهَّ روح الله بالريح الذى يهب فى عصفات متقطعة .

ولطالما سعى البشر إلى كشف الاكسير الخيالى الذى يهبهم شباباً خالداً ، والـكنيسة قد عرفت أين اكسير شبابها ! .

ومن الانتقادات التى انهالت على الـكـنيسة هيلا ، أنها تحتضن كـثيرين من المنافقين المرائين . ولطالما سمعنا قوماً يقولون ان الناس خارج الـكـنيسة ليسوا أشر ممن هم فى داخلها . وحين أسمع هذه الشكايات يدفعنى شعورى أن أجيب بأن هذا من مفاخر الـكـنيسة . فنحن لسنا جمعية سرية ، بل جماعة مكـشوفة للأعين ، ونحن فخورون بذلك .

ومَـن الذى قال ان الـكـنيسة هيئة تضم الكاملين . لو أنها كـذلك لنبذت كـثيرين منا . إن الـكـنيسة ليست طائفة من الكاملين ، بل جماعة من المفديين. ولطالما جاهدت الـكـنيسة فى غير وناء ضد التجربة التى ألحت عليهـــا فى كل تاريخها بأن تـكون وقفا على المختارين ــ الفلاسفة والقديسين والطاهرين . بل قد آثرت أن تتحمل اللوم بسبب احتضانها الواهنين المرتدين ، على أن تخون عهد رسالتها ودعوتها . . ذلك لأنها تشجع الخائرين ، وتسند الضعفاء، وتنشل الساقطين ، طوعاً لأمر سيدها « جئت لأدعو خطاة لا أبراراً للتوبة » .

وحياتها تتقوى وتنتعش بفضل الذين يدخلونها محدودبى الظهور ، ثقيلى الأحمال ، متعثرى الخطى — ليخرجوا منها منتصبى القامات ، أقوياء ليحملوا رسالتها إلى العالم كله .

وأحياناً حين نرى عجائب الحياة الحديثة وتقدم العلوم والفنون ، يخطر ببالنا أن الكنيسة لم يعد لها مكان فى الحياة ، وأنها أمست غير ضرورية . فيوماً ما كانت الكنيسة ملجأ للمضطربين ، ولكن عيادة الطبيب النفسانى قد فتحت الآن أبوابها لأمثال هؤلاء . يوماً ما كانت الكنيسة موئل الفقراء والمعوزين ، ولكن الحكومات والجمعيات الخيرية تقوم اليوم بإسعافهم وسد أعوازهم . يوماً ما كانت الكنيسة الندوة الوحيدة التى يأتلف إليها الناس ، ولكن ينافسها اليوم كثير من المنتديات والهيئات . فماذا بقى لنا ، وما مهمتها الآن فى حياة البشر ؟ .

ولكن مهلا ! فلا شىء يشبع حاجات الانسان الجوهرية غير الدين فى نهاية الأمر . فما الذى تقوله عيادة الطبيب ، أو الحكومة ، أو الجمعية الخيرية ، لإنسان على فراش الموت يوشك أن ينطلق من الحياة ؟ وأية رسالة تقدمها منظمات العالم لمن تجردت نفوسهم من المثل العليا وأعوزهم الخير الاسمى ؟

ان العالم يحاول اليوم أن ينظم حياته بشتى الأساليب والمبتكرات ، ويدير شئونه على أوضاع وأنماط يصطنعها اصطناعاً ، ولكن هذا العالم لن يستغنى قط عن منظمة من غير صنعه ، تكبح جماح المتسلطين ، وتهدى إلى سواء السبيل الضالين . لهذا أرى مستقبلا مجيداً للكنيسة المسيحية لأنها الهيئة الوحيدة التى تستطيع أن تقف — كما وقفت فى الماضى — تتحدى المظالم الإنسانية .

وحينما نفكر فى الكنيسة لا نرسم فى أذهاننا صوراً للأبنية الكبيرة أو الصغيرة التى نراها فى مدننا وقرانا ، ولا فى طائفة معينة بالذات ، ولكننا

نرسم صورة أكبر وأبهى ، هى صورة الكنيسة الجامعة الروحية فى العالم كله.

ولعل القارىء الكريم لايدرى أن الدعوة المسيحية قد استمالت إلى أحضان الكنيسة فى خلال المائة سنة الأخيرة فى بلدان العالم ، عدداً من الناس أكثر من أى قرن مضى فى تاريخها الطويل . ولو قدر أن تنمحى المسيحية اليوم من أوربا وأمريكا — وهى معاقل النصرانية فى نظرنا — فانها تبقى حية فى افريقية وآسيا وجزائر البحر . . إن الله يحرس خاصته ويرعى قطيعه ، وقد فات الزمن الذى يستطيع الأشرار المعاندون أن يقيدوا الكلمة الحية .

بالأمس جلست إلى صديق أمريكى عبر المحيط قادماً إلى الشرق أبان فصل الشتاء ، فروى لى أنه ذهل يوماً حين شهد جبلا ثلجياً هائلا على مقربة من السفينة ، وكان الجبل يتحرك فى اتجاه مضاد للريح ، وللتيارات السطحية فوق الماء . وكأنما تديره وتسيره آلة خفية ، وكان يشق طريقه وسط قطع الجليد الصغرى الطافية فوق الماء . فراح صاحبى يلتمس من ربان السفينة أن يشرح له هذه الظاهرة الغريبة ، فقيل له ان هذا الجبل الثلجى العائم غائص فى أعماق المحيط مسافة بعيدة ، ومتصل بتيار مضاد تحت سطح الماء يدفعه بقوة تغلب التيارات السطحية ، وهبوب الرياح . ولذلك يسير فى هذا الاتجاه المضاد !

إن الكنيسة المسيحية قد تأصلت جذورها فى قلب الحياة ، وفى قلب الله ، بحيث لم تعد تعبأ بالتيارات السطحية . وقد تكون هذه كلها صخابة عاصفة مضادة عنيدة ، ولكنها ليست كل شىء « لأن الأذرع الأبدية من تحت » . « لا تخف أيها القطيع الصغير . لان أباكم قد سر أن يعطيكم الملكوت »

الدين ليس تقليعة !!

« الدين ليس تقليعة ، ولا هوية ، ولا مودة ، ولا منها . بل هو فى ذاته ضرورة من الضرورات التى تلازم الحياة . . . وانها لمأساة أن يقدم لأبناء الجيل الحديث ديناً قديماً مبتذلا ، وتقاليد قديمة واهية ، هى عكارة الأجيال السابقة . . . » .

قال أحدهم « . . . ميسور أن تجد مدناً بدون أسوار ، وبدون ملوك ، وبدون ثروة ، وبدون كتب ، وبدون مسارح . ولكن المدينة التى بدون هيكل أو عبادة يمارسها الشعب لم ترها عين بشر حتى اليوم » . وهذا اختبار جامع شامل . فحيثما ذهبت فى العالم تجد مصداقا لهذا القول . فقد تسأل فى أية مدينة عمن يدلك إلى محطة السكة الحديد أو مكتب البريد أو المستشفى ، ولكن أمكنة العبادة التى تزود الناس بحاجاتهم الروحية تجدها قائمة فى كل مكان . والكنيسة أو المسجد أو الهيكل من الأبنية البارزة التى تلفت الأنظار فى المدينة أو القرية .

والإنسان — إذا نظرت إليه كمجموعة فى ذاته — ليس غراً غبياً . وفى رحلته الطويلة عبر صحروات الزمن ورماله قد ترك وراءه فى الأجيال المتعاقبة مالم تدع إليه حاجة نوعه ، ولكنه احتفظ بما لم يستغن عنه فى جملته . وخادم الدين فى كل عصر ليس جندياً يختارونه لشجاعته وشدة بأسه ليقود الناس إلى مغامرة جريئة ، بل هو — كما وصفه النبى القديم — أشبه بباعة الماء الذين يقفون عند زوايا الطرقات المقفرة ، يحمل مالا غنى الناس عنه فى رحلة الحياة ،

قائلا بصوت عال: «مَن يعطش ...» وذلك لأن الدين ليس «تقليعة» ولاهوَية، ولا «مودة»، ولا «منهاً»، بل هو فى ذاته ضرورة من الضرورات التى تلازم الحياة. ولن يكون يوماً ما تراثاً من مخلفات الأجيال التى توضع فى متاحف التاريخ.

ولذلك نتوقع أن تغص أماكن العبادة بالعابدين، وأن تقام الممارسات الدينية فى دقة ونظام وتلهف، بحسبانها الينابيع التى تروى النفوس الظامئة، والأقوات التى تشبع حاجات الطبيعة البشرية. ولكن من دواعى الأسف أن الواقع يفند هذا التوقع. وإنا لندهش أن نرى فى هذا العصر عزوف الناس عن الدين، وتهاونهم بأحكامه وممارساته وتعاليمه.

وترى ماعلة هذا التهاون؟ لا يكذبنى الواقع إذا أنا قلت ان هناك إنحلالا فى الثقة وانخفاضاً فى القيمة، على حد قول رجال الاقتصاد. فهناك كثير من الأمم والأفراد يحيون اليوم حياة سائبة طائشة يسرفون إسرافاً معيباً فى رأس المال الروحى الأخلاقى الذى تجسّد مدى الأجيال. والشبان والفتيات من الجيل الحديث، الذين طرحوا فى خفة واستهتار العادات الدينية التى درج عليها آباؤهم، لا يقدّرون الخير الذى تحمله هذه التقاليد الكريمة التى حطموها.

جذوة من نار

ولقد عاش النبى القديم «صفنيا» فى عصر لا يختلف كثيراً عن عصرنا الحاضر، وهو عصر افتقر فيه الناس — على حد قوله — إلى هزات عنيفة لترجعهم إلى صوابهم. وذلك لأن النبى عرف أبناء عصره أناساً جمّدوا حياتهم الدينية، وقنعوا بالمادة، واكتفوا بذواتهم، قالوا فى قلوبهم «إن الرب لا يحسن ولا يسىء». هم حسبوا الله نكرة فى كفاح الحياة، لا خير منه ولا شر، لا يؤذى ولا ينفع، لا يحسن ولا يسىء. وكما يخفى صاحب الأرض الذى لا جار له، جذوة من نار فى الجمرة السوداء، ليختزن شعاعة النار والنور فلا يلتمسها من بعيد، كذلك قد أخفى الله وسط هذه الحياة الدينية المتهاملة الميتة فى ظاهرها، جذوات من النار الحيّة فى شخص ذلك النبى ومَن على

شاكلته . وهنا معقل الخلاص لكل جيل ولكل بلد ــ وجود فئة قليلة مختارة مثل ذلك النبي القديم ، تحافظ بإيمانها ورجائها ومحبتها على جذوة الحق الإلهي ، وتشعلها لهيباً عنـــد الاقتضاء .

والنبي القديم يستند في إيمانه ورجائه ومحبته إلى قوة جبارة لا تُهزم ولا تخور ، يضع فيها كل ثقته للاصلاح والأحياء « ... لاتخافي ، لاترتخ يداك . الرب إلهك في وسطك ، جبار يخلص . يبتهج بك فرحا . يسكت في محبته » . وما أعمق المحبة الصامتة التي لاتعلن عن نفسها ، المحبة التي تعمل في غير جلبة ولا ضوضاء .

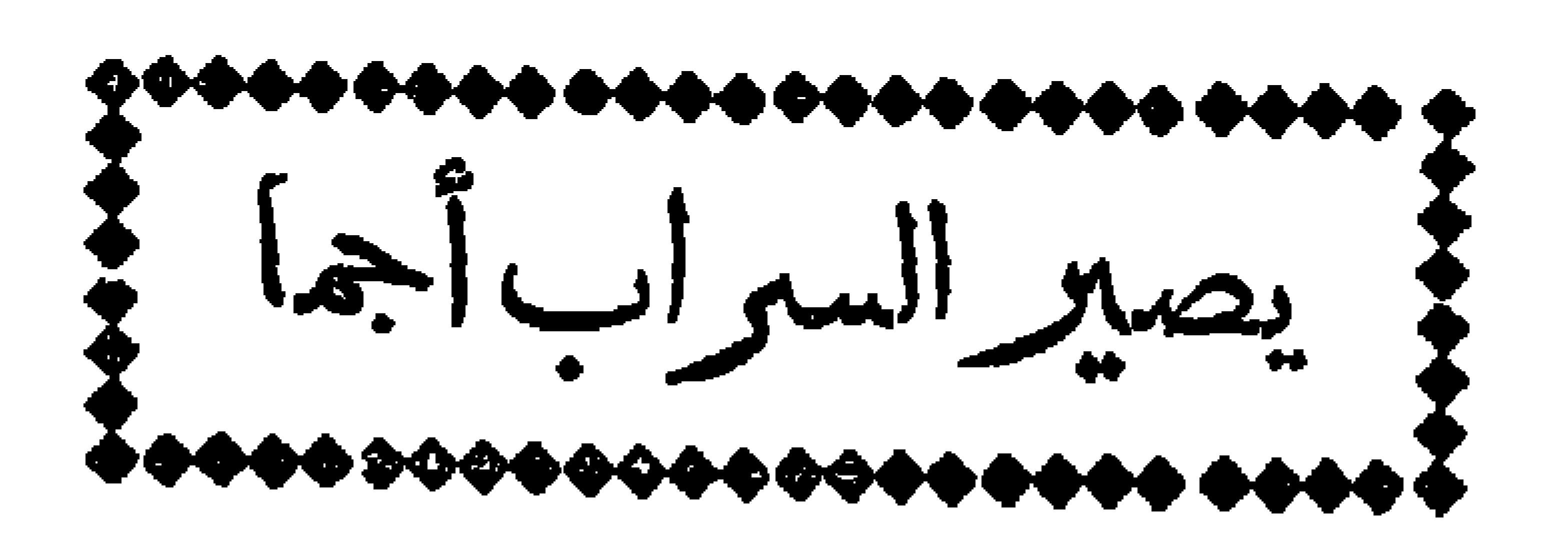
الخبز البائت •

ولكن سياق الحديث كله ينبيء عن الفرح والابتهاج والتجديد : عن حياة جديدة تعمل فيها المحبة وهي « ساكنة » . أليس هـذا ماتتوق إليه غرائزنا الطبيعية البشرية السليمة ؟ الحياة الجديدة والشيء الجديد. إن الله يكره الشيء القديم المبتذل كما نكرهه نحن . ولعل هذا هو السبب الذى حمل النبي على أن يأمر شعبه قديما بألا يختزنوا المن في البرية أياماً كثـــيرة . ولعل هذا هو السبب الذى يحمل أبناء الجيل الحديث على كراهية الخبز الروحي القديم البائت الذى نقدمه لهم أحياناً وإنها لمأساة أن نقدم لأبناء الجيل الحديث ديناً قديماً مبتذلا ، وتقاليد قديمة واهية ، هي عكارة الأجيال السابقة . إن التجديد سمة الحياة ولكن يحلو لكثيرين من المحافظين الجامدين أن يتمسكوا بالقديم الأعمى ، ويفرضونه على الجيل الحديث فرضاً ، والله يعلم مدى الظلام في عقولهم وقلوبهم .

حدثني صديق ، لست في حلٍّ من أن أذكر إسمه ، بأنه حين يقرأ الكتاب المقدس يطفيء نور الكهرباء ويقرأ على نور الشمعة في النسخة الخطّية . لأنه هكذا كان يفعل الأقدمون .

وصاحبنا يستعمل كل مبتكرات العصر الحديث فى حياته ، فيركب السيارة والقطار ، وينتفع بكل مزايا العلم فى حياته الاجتماعية ، ولكنه لايتورع أن يركب متن الشطط فى حياة الدين ، فيمسك بالتقاليد القديمة حتى فى توافه الاشياء .

ولست أقصد أن نطرح عنا كل تقليد ورثناه عن الماضى ، فهناك تقاليد عزيزة حبيبة لاغنى لنا عنها ، ولكن أقصد تلك التقاليد التى تظلم العقول ، وتعمى البصائر ، وتطمس أشعة النور . وتجعلنا نعيش فى ظلمات العصور البالية .



يصير السراب أجماً

« النور يضيء هناك ولا يطفأ . شعلة الايمان تتقد ولا يخبت اوارها . فيا قلب تعزّ وثابر ، وسر فى طريقك ، طريق الرجاء فى عالم أفضل ، وحياة أكرم وأنبل ، وايمان أرق وأصفى ... »

.. يقينا أن السراب أكبر خديعة فى الطبيعة . تصور نفسك مسافراً فى صحراء قاحلة ، وكأن رمالها ترتجف من حرارة الشمس القائظة .وأنت تجدّ فى المسير متعباً إلى الواحة التالية التى تعلم أنها مازالت بعيدة عنك ، ويغالبك العناء والضناء ، وتخمد شعلة الحياة فى نفسك من فرط الاعياء . . . وانك لكذلك واذا بك تبصر من بعيد بحيرة تصطفق أمواجها ، وتتهادى فى جنباتها ظلال النخيل الخضراء !! هذا أمل يبعث فيك الحياة قوية دافقة ، فهناك عما قريب ترتوى وتستريح من عناء السفر . ولكن هذه البحـــيرة الظليلة تبتعد عنك كلما ألحّ عليك الشوق إلى بلوغها . وبعد قليل يختفى هذا المنظر البهيج ، وتعود تتراقص أمامك عفاريت القيالة ... انه سراب !

هذه كلمة سطرها الوحى للعبرانيين قديماً وهم فى منفاهم السحيق . فلقد ظلوا أربعين سنة أسرى حرب فى بابل . وما انقضى عليهم يوم لم تتخايلهم فى أحلامهم تلال فلسطين ، ومقادس أورشليم ، وهيكل العلى ، وربوع الأوطان الحبيبة . ولكنهم كانوا يستيقظون فى كل مرة ليروا أنفسهم على الذل مقيمين، فى جوع وشقاء . . واغتراب ، فى أرض غريبة معادية . ولكن يوماً يقول

لهم الله : « هذه المرة ان تكون أمنيتكم حلماً . سيروا بالايمان يغد أملكم أمراً واقعاً ، ويصير السراب أجماً. والمعطشة ينابيع ماء » . .

حقا هذا هو وعد الله للانسان الذى يروم العيش فى عالم أفضل . وكم من أنفس نبيلة باسلة أحيت مواتها بالاحلام والآمال . وكم من أنفس كريمة سخرت بأحداث الزمن ، ولم تستسلم لتصاريف الدهر ، بل جاهدت وجالدت، وناضلت وكافحت ، بقوة الايمان فى المستقبل . ألم يأتك نبأ ذلك الزنجى الأمريكى بوكر وشنطن الذى صمم على أن يكون ابنى جلدته مدارس وجامعات تصون كرامتهم وترفع رؤوسهم . فكان له ماأراد . ألم يبلغك حديث المرسل الجرىء وليم كارى الذى تطأ أقدامه أرض الهنـــد المجهولة الواسعة ليدعو ملايين سكانها إلى الايمان بالمسيح . فأفلح فى إنشاء كنيسة مسيحية فى تلك البلاد . ثم أنظر إلى المصلحة الاجتماعية اليزابث فراى كيف تجازف وحدها بالدخول إلى السجون فى عصرها لإصلاح المسجونين وخدمتهم ، وترقية السجون وتهذيب طرقها وأساليبها ، فحصدت ثمار غرسها وجرأتها وجهادها. وإلى الممرضة النبيلة فلورنس نيتنجيل، كيف تسخر من الانتقاد اللاذع واللوم البذىء ، وتقدم حياتها فى عطف وإشفاق وحنان لإنقاذ الجرحى فى ميادين القتال ... كل هؤلاء وغيرهم بدأوا جهادهم وحدهم ، وكان عليهم أن يقاوموا هزء أعدائهم وعنادهم ومشاكستهم ، بل أن يقاوموا شكوكهم المخاتلة أحيانا، وآمالهم الخائبة أحياناً أخرى . . فهل كان مثلهم الأعلى مجرد سراب خادع؟

إنه قد صار أجماً ، ينبوع ماء حى دافق ، وغدت الأرض أبهى رونقاً ، والناس أوفر حرية ، والحياة أكثر نبلا .

عالم افضل

واليوم نقف حائرين متسائلين ، ونحن نسمع أخبار الناس يخطبون فى المجتمعات الدولية ، ومن فوق المنابر العامة . عن الأخاء والعدل والحرية . عن عالم أفضل ، ومجتمع أرقى ، ينتفى فيه الخوف والفقر والجوع والمرض..

كل هذه الأحلام والآمال قد فشلت فى الماضى ، فهل قدّر لهـا أن تفشل إلى الأبد . وهل هذه مجرد خيالات عذبة ، لامادة فيها ، ولا حقيقة لها ؟

لانظن ذلك ، لأن وراء كل حلم عذب يخـــايل نفس الانسان ، يقف الله فى مجد وجلال ، « فيصير السراب أجماً » .

وهذا أيضاً وعد الله للانسان الذى يرغب فى أن يتحلّى بخلق كريم ونفس رضيّة . والشباب هو عصر الفتوة والمغامرة الكريمة ، وتهزه موسيقى الطبول الفائزة وألحان النصر العذبة ، وتغلى فى عروقه دماء الفروسية ، فيحس أنه سائر فى موكب الحياة وقد عقد له لواء النصر وذلّل كل صعب أمامه .

ثم يجىء طور الرجولة ، متوسط العمر ، فاذا به يجد نفسه مغرقاً فى تكاليف الحياة وواجباتها وهمومها ، وهو إما مفلح متقدم، أوخاسر متأخر، قد يسبقه أقرانه فى ميدان الكفاح ،وقد يعلوه مَن كانوا دونه ، ويتقدمه من كان خطوهم وراء خطوه ، وهنا تغمر نفسه فى ضباب كثيف ، وتخايله لماماً المقاصد المبكرة الأولى ، وحماسة المغامرات البائدة ، فيبتسم ويود لو يهرب من ميدان المعركة ، ويركن إلى مهادنة ظروف الحياة ومسايرتها ، هنا تبدو له المغامرات الجريئة النبيلة مجرد ظلال أشياء منسية .

الاربعون ومابعدها

والحق ان أخطر مرحلة فى عمر الانسان هى الاربعون ومابعدها . لأن فيها يبدأ يفكر الانسان فى الاثراء ، وأشباع ميوله ورغباته ، وضمان مستقبله وذريته . ولعل هذا ماحمل حبقوق النبى القديم إلى أن يصرخ تلك الصرخة الخارقة : « يارب عملك فى وسط السنين أحيه » . وانى أتخيلهـا صرخة متصاعدة من قلب إنسان استيقظ إلى الأخطار التى تتهدد حياته ، وهو يرى كفاحه الأدبى فى سبيل الفضائل يميل فى كفة الميزان .

والشاب ، إذ يسعى وراء الفضائل العليا والمثل الراقة ، يروم ضماناً حتى

لا يسقط من الأعالى إلى الأعماق . وفى « وسط السنين » ، أى متوسط العمر، تداعبه الشكوك التى تحمله على الظن بأن النزعة العالمية الدنيوية التى تسوق أترابه ومنافسيه، قد تكون أقرب إلى الحق والواقع من أحلامه وآماله الخيالية . وإلى أمثال هؤلاء الذين يترددون ويتساءلون فى كفاحهم الأدبى يقدم الله هذا العهد « يصير السراب أجماً » .

إن الله يسندنا فى كفاحنا ، ويخرجنا من أعباء السنين الضيقة ، إلى رحاب الفضيلة التى نطمع فيها ونصبو إليها .

هذا وعد الله للانسان الذى يروم العيش فى عالم أفضل ، وللانسان الذى يبغى الكفاح فى سبيل الفضائل والأخلاق الكريمة ، بل هو وعده أيضاً للانسان الذى يرغب فى التمسك بايمان أرقى وأصفى . .

ومرة قرأت قصيداً لشاعر فرنسى عن سائح امتطى صهوة جواده فى ليلة قمراء زاهية ، خلال غابة كثيفة الظلال ، ميمماً صوب باب دار صامتة ، لا أنس فيها . وهناك أخذ يقرع على الباب ويقرع طويلا ، فانطلق من فوق البرج الصغير طائر وراح يرفرف حول المكان . ثم أخذ يقرع ثانية ، فلم يرحركه غير ورقة من أوراق الشجر تتساقط وسط أشعة القمر . وفى هذا الصمت الرهيب الغريب ، راح يقرع مرة أخرى ، فلا سميع ولا مجيب . . .

تصور نفسك فى هذا الشعور المفزع المخيف . ترى ماذا يحل بك لو أن هذا كان مصير إيمانك . وماذا يكون حالك لو أنك قطعت مراحل السفر إلى أن تحط بك خاتمة المطاف إلى دار تتوقع أن ترى فيه نوراً وتلقى ترحيباً ، وإذا بك أمام وحشة رهيبة وفراغ موحش ! .

إن إيماننا أحياناً يلقى هذا المصير عينه . فكيف نأمل أن ندرك بعقولنا المحدودة لانهائية الله ؟ وكيف نؤمن بالسماء والخلود فى هذا العالم الذى طغت

عليه أمواج العلم الملحد والمادية العمياء ؟ وكيف نثق بمحبة الله وعنايته وسط متناقضات الحياة وظلماتها وظالمها ؟ أليست تبدو لنا هذه كلها آمالا كاذبة وسراباً خلاباً ؟ ألسنا نظن أحياناً أنه فى نهاية اليوم يختفى السراب ، ونبقى فى صمت الصحراء , وبردها القارس ، وليلها الرهيب ؟ .

ولكن لا . فالحياة ليست صامتة حولنا . الله قد تكلم ، وكلمته لا تخيب « يصير السراب أجماً » — « اطلبوا تجدوا » .

هذا هو وعد الله لنا . والنور يضىء ... هنـــاك ، ولن يطفأ . وشعلة الإيمان تتقد ولا يخبو أوارها . فيا قلبُ تعزَّ ، وثابر ، وسر فى طريقك ، طريق الرجاء فى عالم أفضل ، وحياة أكرم وأنبل ، وإيمان ارقى وأصفى . . إلى أن « يصير السراب أجماً ، والمعطشة ينبوع ماء » .

مهداة إلى الشباب

« أقوياء الرجال والشباب ذوى العزمات الناشطة ، أشبه بالأشجار الكبيرة ، يغذيها ضوء الشمس فى هدوئه ، وتقويها الزوابع والأعاصير فى غضبتها . حرارة القيظ تنفها . وقرص الشتاء يزيد من قوة احتمالها ... »

« دخل فىّ روح وأقامنى على قدمىّ » (حزقيال ٣ : ٢٤)

... كان شاباً يافعاً فى أورشليم . يوم أغار البابليون على المدينة المقدسة ، فدمّروها وحملوا ابناءها الأقوياء ، وأعيانها ووجوهها ، إلى السبى فى بابل . وهناك قضى زمناً أسيراً مسبياً وسط مباهج العتاة الظالمين . ومفاتن بابل العظيمة ، وهو يرى مواطنيه وبنى جلدته يُسامون الذل والهوان ، ويُضربون بالسياط ، ويعيشون فى شقوة ومذلة . ثم يحدث له حادث يجعله من عظماء التاريخ ، ويخلد اسمه بين الرواد المصلحين . فيصير خالق الحياة الجديدة ، ويغدو عاملا قوياً على إرجاع بنى قومه إلى الوطن ، وإعادة بناء أورشليم ، وبداية عصر جديد فى حياة الانسان الروحية .

والانسان فى علاقته بالعالم يواجه دائماً أحد موقفين : فاما يزامله النجح والتوفيق ، ويؤدى للعالم أجل الخدمات ، وإما يلقاه النحس وسوء الطالع فيداعبه العالم ويعبث به كيف يشاء . وقلما تخلو حياة إنسان من مواجهة هذا الموقف أو ذاك . فى أوقات التوفيق والنجح ، نعمل ونخدم ونكون سادة

مصيرنا . ولكن تحلُّ بنا أزمات تنقلب فيها الأوضاع — كما حدث للشاب حزقيال فى القديم — ويكون فيها العالم صاحب الشأن فينا ، ويصدمنا بالضيقات والمتاعب والمشاكل . ومحك الرجولة فى مثل هذه الأزمات هو أن « تقوم على أقدامنا » .

والتاريخ القديم والحديث حافل برجال ونســـاء اتخذوا من ظروفهم المعاكسة فرصاً للنهوض ، وعزمات على الجهاد . ألم يأتك نبأ ذلك الموسيقى العبقرى « هاندل » الذى وضع نشيد « المسِّيا » الخالد ، النشيد الذى تهتز له العواطف وتطرب له أجيال التاريخ ... كانت قد ساءت صحته ، وتدهورت ثروته إلى الحضيض . أصيب جنبه الأيمن بالشلل ، وأمسى خاوى الوفاض ، فأمسك به دائنوه ، وهددوه بالسجن . وخيل إليه فترة من الزمن أنه يناضل فى معركة خاسرة ، وأوشك على التسليم والاذعان لظروف القــدر القاسية . ولكنه فى نشوة من النهوض الروحانى « وقف على قدميه » وتلقَّــى الوحى ليؤلف أروع قصيد موسيقى ، خلد اسمه بين عظماء الفن ، وأنبياء اللحن .

وهذه قصة طالما تكررت على مسرح التاريخ . وحزقيال النبى الشاب القديم مَثل من هذه الأمثال . واليوم تفصلنا عنه قرون طوال ، ولكن الزمن لاقيمة له فى تقدير العوامل النفسية التى أيقظته ليلعب دور الرجل ... تألبت عليه كل الأسباب التى تحطم أقوى الرجال . وواجه أشق المواقف التى يمكن أن يواجهها إنسان . داعبته أحاسيس الاشفاق والرثاء على مصيره فى أرض الاغتراب والسبى . دهمته نوبات من الانقباض والحنق والغل ، حتى لقد لعن العالم ، ولعن اليوم الذى ولد فيه . ضغطت عليه الحيرة واليأس وهو يرى أمامه السبيل المظلم القاتم . ثبطت همته وعراه الجنون الصامت وداء السوداء ومع هذا كله ، وفى هذا كله ، كان يتسمع بين الفينة والفينة صوتاً خفياً : قم على قدميك وكن رجلا ! ...

وفى الحياة فلسفتان : إحداهما فلسفة القدَرية التى تعزو كل الأشياء إلى أحكام القضاء والقدر ، وتزعم أن عوامل الوراثة والبيئة هى التى تقرر أفعالنا وتتحكم فى مصيرنا . والفلسفة الثانية هى حرية الارادة التى تقول لنا ان فى طوقنا أن نفعل مانريد ونختار . والقدرية ليست الحق كله ، لأن عوامل الوراثة والبيئة لاتقرر كل شىء . كما أن حرية الارادة لاتصدق اطلاقاً بدون قيد ولاشرط ، لأننا لانقدر دائماً أن نفعل كما نريد ، إنما الحق هو مزيج من الفلسفتين . فانه بعدأن تفعل الوراثة والبيئة فعلهما بالانسان ، يبقى فى كل منا تلك القوة الخفية الغريبة التى تقدّرنا على أن نأخذ مافعلته بنا الوراثة والبيئة ، ونحيله إلى اتجاه آخر ، ونصيغه بأيدينا صياغة جديدة .

مصدر العزاء هو النفس

وإنى لواثق أن حزقيال بدأ النهوض بأن جلس الى نفسه أولا يناجيها ويحدثها ويحاسبها . أفى وسع بابل العاتية المنتصرة أن تطفىء شعلة الجهاد فى نفسه ؟ أيرى فى مذلة شعبه مدعاة لليأس والخضوع ؟ كلا ! وكم من شاب فى الحياة يلوم العالم الذى حطم آماله، والنظم المدرسية القاسية التى ضيّقت عليه الخناق ، وعوامل الوراثة والبيئة التى قيدته باغلال ، بينما مصدر الداء هو فى نفسه . ورجاء العالم فى آخر الأمر انما يقوم على الافراد الذين يكافحون ويناضلون على الرغم من القيود والعقبات التى تعترضهم . « دخل فى روح وأقامنى على قدمىّ » .

أحس ذلك الشاب فى القديم أن الصعوبات تستنبت القوى فى نفس الانسان ، وتستخرج منه المواهب الدفينة التى تبرزها أسباب الحياة الرخوة اللينة الناعمة . لقد عرف أن فى وسعه أن يكون رجلا ، لا على الرغم من السبى والتشريد ، بل بسبب هذا السبى عينه . وأقوياء الرجال والنساء ذوى العزمات الناشطة أشبه بالأشجار الكبيرة ، يغذيها ضوء الشمس فى هدوئه ، وتقويها الزوابع والأعاصير فى غضبتها . حرارة القيظ تنفعها ، وقرص الشتاء يزيد من قوة احتمالها . تفيد من جميع الظروف والأحوال .

وما من شك فى أن هذا الشاب النبى قد نقل مركز الثقل فى حياته إلى حيث لاتقوى عليه الصعوبات ، بل إلى حيث تكوّنه هذه الصعوبات ، وتخلقه خلقاً جديداً . فالشاب الذى يجعل كل همه فى الحياة الحصول على الثروة ، قد يلهبه العالم بسياطه اللاذعة . والذى يجعل اللذات ورغـــد العيش ورخاوة الحياة مبتغاه ، قد يضربه العالم ضربات قاضيات . ولكن الشاب الذى يريد أن يكون رجلا ـــ بكل مافى الرجولة من معان ـــ يجعل كل الأحداث التى تصادفه رأس مال لايفنى .

الخواص والمزايا

وأحسب شيئاً آخر قد تفاعل داخل هذا الشاب . فلقد أحس أن الله ، حينما خلقه ، أودع فيه خواص ومزايا مختزنة لمثل الأيام التى كان يعانيها . وأحسّ أن الطبيعة قد خصّته بقوى نفسانية تسنده وتعضده فى ساعات الشدة لو أحسن استخدامها . وفى كلّ منا ميزات وخواص تفعل العجائب لو عرفنا كيف نسلس قيادها ، ونحسن استخدامها .

وأنا أعلم مثلا أن « المشاكسة » ميزة غالبة فى الشباب والأحداث . ولكن واحسرتاه ! كثيراً ما نستخدمها لأغراض شريرة سافلة ، ونجعلها أحياناً حافزاً لعراك قد تسيل فيه الدماء فى ساحات المدارس والجامعات . على أن غريزة « المشاكسة » لاغنى لنا عنها . لأن منها تنبعث دائماً شرارة الكفاح التى تعين الشاب على أن يكون رجلا ، يناضل ويجالد فى وجه الصعوبات والعقبات . إنها ـــ كأية غريزة أساسية ـــ هبة من هبات الطبيعة ، قد تدمر العالم لو أسىء استعمالها ، وتصنع الخير الوفير لو أسلس قيادها .

الله هى لم يمت

وبعد أن نقول إن شابنا النبى ناجى نفسه وأيقظها بمهماز ، وعرف أن الضيقات تنشىء جهاداً وصبراً ، وأحسّ أن فى داخله موارد للقوة لاينضب

معينها . بعد أن نقول كل هذا ، يبقى شيء آخر في القصة ، ذلك أن النبي قد آمن بأن الله حيٌّ لم يمت . فان أعداءه في بابل سخروا منه وصاحوا ، كما يتصايح كثيرون اليوم ، أين إلهه الآن ؟ لكن النبي آمن بان الله لم يمت .

وإن القلب ليذوب حسرة حيال الشباب الذين أضاعوا إيمانهم بالله في هذا العصر ، وحاولوا تأويل الكون والحياة تأويلا ماديا بحتاً . وكأننا لم نخلق إلا من تراب الأرض ، وإلى تراب الأرض نعود ، فتزول الحياة ولا يبقى لها أثر . وكأنما هذا الكون الذي صنعته يد القدير الحكيم ليس إلاّ حادثاً عرضياً ، يتألف من ذرات مادية تسير سيراً أعمى ، فلا شيء يرجى منه في نهاية الأمر .

وهذه الفلسفة في الحياة خلو من العوامل التي تنهض بالانسان على قدميه في أوقات المحن ليجالد الصعوبات ، ويكتسب عناصر من الرجولة أفضل وأرقى .

وأذكر أني قرأت منذ سنوات رواية للكاتب الشهير « جورج مور » قال فيها إن الفلاحين في عصر من العصـــور ، وهم يعانون الجوع والفقر والحرمان ، سيقوا إلى تمهيد الطرق ، لا لأن الطرق كانت ضرورية ونافعة ، ولكن لمجرد تشغيلهم وإشباع بطونهم الجائعة . هكذا مهدوا طرقات انتهت في آخر الأمر إلى مستنقعات موحشة كئيبة لاخير فيها لأحد من الناس. ويختم الروائي قصته بقوله : « إن الطريق الذي ينتهي إلى لاشيء يعسر تمهيده ، ولو استخدمت فيه الجياع لاشباع بطونهم ، لأن الانسان لايحسن عمله إلا إذا رأى أمامه هدفاً يهدف إليه » . هذه سنة الحياة ، وإنكار الله والدين يسوق الشباب إلى تمهيد طرقات تنتهي بهم إلى آخر الأمر إلى لاشيء . وهذه لعنة الحياة ! .

ومادخل الروح في حزقيال وأقامه على قدميه إلا يوم رأى الله وعرف قصده الحكيم نحو شعبه ، وآمن بشيء أعظم من نفسه ...

إن الحياة ليست لعبة هينة . ليست صياح أطفال ، ولامظاهرات طلبة في الطرقات ، ولا هتافات في الشوارع . إنها قوة وكفاح ، وعمل وجدّ . ومن الشيق أن ننظر إلى الوراء في صفحات التاريخ لنرى كيف نهض الغزاة الأقوياء ، وسقطوا ، ثم انطوت صفحاتهم منسية ... كيف قامت شعوب خيّل أنها باقية خالدة ، ولكن الزمان عصف بها عصفاً ... ثم لنرى وسط ضجيج مواكب الحياة المتلاحقة كيف وقف ذوو النفوس الجبارة الخالدة على مرّ أجيال التاريخ، كالجبال تعلو كلما بعدنا عنها . . . ذوو النفوس التي تزودت بالقوى الأخلاقية الروحية ، ولعبت دورها لخير الإنسانية .

دخل فيهم روح وأقامهم على أقدامهم ! ! .

ليس الواجب بل المحبة

« العدالة المجردة الجامدة شيء جميل فى حد ذاتها ، وكلما اعتصمنا بها ازددنا توفيقاً ورقياً . . . ولكنها ليست كافية لبناء العالم الجديد الذى نرجوه ونجاهد فى سبيله . . . »

يروى أن رجلاصاحب كرم أراد أن يقطف ثماره كلها فى وقت واحد. فخرج إلى السوق فى الساعة السادسة صباحاً واستدعى طائفة من العمال ، واتفق أن ينقد كلا منهم ديناراً — وهو الأجر المقرر فى ذلك العصر . وفى الساعة التاسعة أحسّ أن هؤلاء لايكفون لتنفيذ العمل ، فخرج مرة أخرى إلى السوق واستدعى آخرين واتفق معهم على الأجر عينه : وفى الساعة الخامسة رأى أنه بحاجة إلى عمال آخرين ، فاستدعى فريقاً آخر للعمل فى الساعة الباقية من اليوم . .

وفى آخر اليوم أعطى الذين اشتغلوا ساعة واحدة فى اليوم أجراً يعادل أجر الذين اشتغلوا اثنتى عشرة ساعة من الصباح إلى المساء ، وعانوا ثقل النهار والحر ! وكان طبيعياً أن يشتكى هؤلاء ويتذمروا ، لأنهم عوملوا على قدم المساواة مع زملائهم ، ولكن صاحب الكرم أجابهم أنه أعطاهم أجرهم المتفق عليه ، وهو بعد ذلك حر فى ماله .

قصة غريبة هذه التى رواها لنا المسيح فى الفصل العشرين من بشارة متى. والأغرب أن يقول ان هذا يشبه ملكوت السموات. .

وربّ قائل يقول ان عنصر العدالة فى هذه القصة معدوم ، ويتساءل عما أراده المسيح من هذا المثل الغريب . والواقع أن فى القصة عدلا ، بل فيها ماهو أكثر من العدل .

فصاحب الكرم كان عادلا شريفاًمع الذين اشتغلوا اثنتى عشرة ساعة، فنقدهم الأجر المتفق عليه ، وكان منصفاً فى تقديره . أجل ، كان عادلا ، ولكن علة الشكوى والتذمر أنه كان أكثر من عادلٍ مع الآخرين الذين اشتغلوا ساعة واحدة فقط .

إن فى القصة عنصراً آخر غير عدالة البشر . وفرق بين عدالة الانسان وعدالة الله . والواقع أن نوعى العدالة يتمثلان فى القصة . فهناك العدالة القائمة على الحقوق والواجبات ، العدالة البشرية العادية ، وهى عدالة نجلّها ونقدرها وندعو إليها ، لأنها دعامة كل حكومة صالحة فى عالم كهذا .

ثم هناك نوع آخر من العدالة ، لاتقوم على مايستحقه العامل ، بل على « إرادة » صاحب العمل . وهذه تشبه عدالة الله ، لأن مقياسها ليس استحقاق الإنسان بل إرادة الله . والله لايغدق بركاته حسب جدارة الإنسان وأهليته ، بل بدافع من بره ومحبته . وأقرب تشبيه أعرفه لهذا الصنيع هو الأسرة ..

فأنا والد أسرة ، ولا أريد لأفراد أسرتى ماهم أهل له فقط ، بل أريد لهم كل شىء أستطيع الحصول عليه ، ولو كان فوق سحب السماء . وأرجو ألا يسىء أحَد فهم ما أقول. فأنا لا أرغب قط فى أن يأخذوا شيئاً على حساب الآخرين ، ولا أن ينالوا أكثر مما يستحقون إن كان فى هذا إنقاص لأنصبة آخرين .. ولكن أريد لهم كل شىء — فى نطاق الحق والعدل والعقل — لانى أحبّهم .

وفى الأسرة ذات الطفل الواحد ، يحظى ذلك الطفل بكل شىء يحصل

عليه والده . من ثمّ كانت الأسرة ذات الطفل الواحد شاذة غير طبيعية . وان كانت تنشئة الثلاثة أو الأربعة أطفال عملا شاقاً مضنياً . فان تنشئة الطفل الواحد أشق وأكثر ضناء ، ذلك لأن الطفل يكبر وفى نفسه شعور أن العالم كله له ، وليس غيره أحد . أما فى الأسرة التى بها أكثر من طفل واحد ، فان كل شىء يوزع توزيعاً عادلا بينهم . . هذه هى العدالة فى الأسرة ، ولكنها لاتقوم على أساس الحقوق والمؤهلات ، بل على أساس المحبة .

وماعرفت حتى اليوم آباء وأمهات يميزون بين أولادهم تبعا لتفاوت استحقاقهم ومؤهلاتهم . فالأبكم يعادل فى منزلته الفصيح الناطق ، والقمىء الدميم لايتميز فى المحبة عمن هو شبيه بكوكب السينما ، والابن الضال الذى يعود إلى منزل أبيه تولم له أفخر وليمة ، لا لأنه يستحقها ، بل لأنه عاد إلى البيت .وحلّ فيه منزلة الكرامة مهما يكن من أمره .

العدالة المجردة

العدالة المجردة الجامدة شىء جميل فى حد ذاتها ، وكلما اعتصمنا بها ازددنا توفيقاً ورقياً ، وأنا واثق أن فيها الكفاية لإصلاح هذا العالم القديم الذى نتن من عيوبه وسيئاته ، ولكنى أعلم أيضا علم اليقين أنها ليست كافية ابناء العالم الجديد الذى نرجوه ونجاهد فى سبيله .

وترى ما الذى قصد إليه المسيح حين قال ان ملكوت السموات يشبه صاحب الكرم وكرمه وعماله ؟ اعتقد أنه أراد أن يشرح للناس الطريقة التى يدبر بها الله الأشياء فى هذا الكون . فهنا فى القصة دعامة العدالة المجردة ، وأعنى بها أجر الدينار المتفق عليه . والله يحفظ عهده ، ولايعدل عن وعده . هذا هو الأساس ، ولكن يبقى ماهو فوق ذلك .

ومن عادتى أن أميّز دائماً بين العالم الخيالى السعيد وبين ملكوت الله .

فالعالم الخيالى هو الحالة الكاملة على الأرض ، وكثيرون من المفكرين قد رسموا لنا خطوطها وأوضاعها بصورة بارزة . وكان أولهم أفلاطون فى « جمهوريته » . وهذا العالم ، فى نظرهم ، وطن تسوسه شرائع حكيمة صالحة ، ويتمتع أبناؤه بفرص متساوية ، ووسائل عادلة لقمع الشر والأشرار ، وما التقارير والمذكرات والمؤلفات التى يضعها المفكرون والمصلحون إلا قوالب يريدون وضعها وبناءها فى هذا العالم السعيد الذى يحلمون به .

ولا مراء فى أن النظم الجديدة ، والتدابير المتحدثة ، لا تصلح شيئاً ، ما لم يتجدد الناس أنفسهم . أتريد مثالا على ذلك : يقولون ان العدالة الاجتماعية تحتم علينا أن نبنى قرى ريفية جديدة على النظم الحديثة . وهب اننا فعلنا ، وجئنا بفلاحينا بحالتهم الراهنة من الجهل والفقر ، وأسكناهم فى هذه القرى النموذجية ، فماذا يحدث ؟ أنا أضمن لك أنه بعد شهور قلائل تتحول هذه القرى النظيفة إلى أكوام من الأوساخ والقاذورات . لابد أن تغيّر الناس أنفسهم قبل أن نغيّر الوسط الذى يعيشون فيه .

أو يقولون : لننشىء الملاجىء والمدارس والمستشفيات لإيواء المشردين والبائسين ، وتثقيف الفقراء والجاهلين ، وعلاج المرضى والمدنفين . هذا حسن . ولكن أتدرى ماذا يحدث لو أنك سلّمت هذه المؤسسات إلى طائفة من الناس خلت قلوبهم من الرحمة والمحبة والخدمة ـ انها تمسى سجوناً يحاول الناس الإفلات منها . لابد أن نغيّر الناس أنفسهم قبل وضع أى نظام جديد . إن بناء عالم جديد بدون أناس جديدين كلام هراء لامعنى له .

وهذا يؤدى بنا إلى إدراك الفارق بين العالم الخيالى السعيد، وبين ملكوت الله . وذلك لأن ملكوت الله هو الحالة التى يصلح فيها الأفراد ، ويكون كل منهم فى صلة سليمة مع الله ـ أى يدرك أن الله هو الآب فى السماء الذى يعنى به ويفكر فيه ، كما يفكر الآب الأرضى فى كل فرد من أفراد أسرته مهما صغر

شأنه والله يحب كل الناس كما لو كانوا فرداً واحداً ، ويحب كل فرد كما لو كان هو الكل . هو يُعنى بكل الأفراد ويحب الجميع على قدم المساواة . وواجبنا كأفراد أن نقوم بنصيب لصيانة هذه الأسرة البشرية من عوامل الفساد والتفكك والتذمر ، وان نحب الجميع بمثل المحبة التى أحبنا بها الله ، كإخوة لنا .

وحين يقبل الناس ملكوت الله على هذا الوضع ، يصيرون أبناء الله بالمعنى الذى نفهمه من الأسرة البشرية . والطريق الوحيد لبناء عالم جديد على أنقاض هذا العالم المحطم المهدم هو توطيد أركان ملكوت الله فى قلوب الناس ، هذا الملكوت الروحى الذى تمتزج فيه المحبة بالعدل . وفى هذا الملكون نبلغ مرتبة من الرقى الروحى بحيث نُعنى برعاية حقوق الآخرين أكثر مما نعنى بحقوقنا ومصالحنا الشخصية . ونعنى بإنقاذ الأبرياء أكثر من عنايتنا بعقاب المجرمين ، بل نعنى بإرشاد المجرمين أنفسهم إلى الطريق السوى أكثر من عنايتنا بسوقهم إلى حيث يلقون الجزاء الوفاق الذى تفرضه العدالة البشرية المجردة ، فإن عدالتنا تغدو أشبه بعدالة الله الممتزجة بالرحمة والمحبة دائما .

حدث منذ شهور أن فقد من إدارة هيئة دينية بضعة طرود من الكتب الثمينة المرسلة إليها من الخارج . وتصادف أن أبصر أحد رجال هذه الهيئة بعض هذه الكتب الفاقدة معروضة فى واجهات إحدى المكتبات بأسعار رخيصة تدل على أنها مسروقة . فدخل الرجل وتحدث مع صاحب المكتبة حديثا ودياً أخوياً ، سلّمه على أثره جميع الكتب المسروقة ، وصاحب المكتبة فى ذهول من أمر هذه المعاملة ، لأنه كان يتوقع أن يُساق فوراً إلى التحقيق ، فالسجن ، لأن الواقعة ثابتة بالأدلة .

إن هذا الرجل قد تسامى فى شعوره وارتفع فوق العدل البشرى المجرد ، واقترب من العدل الإلهى بالرحمة والمحبة !

وقد تقول : وما عسى ن يفعل أمثلى وأنا رجل عادى ، لا جاه له ولا سلطان ولا ثروة ولا نفوذ . فاليك قصـــة قرأتها ، لا أقول انها حقيقية ، فقد تكون خيالية .

فى ذات يوم خطر على بال إنسان ـ وأظنه أمريكيا ! ـ فكرة ذكية، وقال لنفسه : لو أننى تمكنت من حشد مليون من الناس فوق هضبة كبيرة فى الوقت الذى يكون فيه كوكب المريخ فى أقرب أوضاعه إلى الأرض ، وأوحيت إليهم أن يصيحوا كلهم فى وقت واحد صيحة عالية ، فإن أصواتهم المجتمعة تحدث زمجرة رهيبة قد تبلغ مسامع سكان المريخ . فقام صاحبنا هذا بدعاية واسعة النطاق ، وتلقّى وعوداً من مليون شخص بالحضور فى ساعة معينة للهتاف والصياح . ولكن فى اليوم السابق للموعد المحدد للصيحة الكبرى ، قال أحدهم لنفسه : « وما الخطب إذا عدلت عن الذهاب . صوتى ضعيف . وأظن هـذا الحشد الهائل لايشعر بغيبتى » . وقال آخر لنفسه مثل هذا القول . وسرت العدوى إلى كثيرين . ثم صارت شاملة جامعة . وفى اليوم المحدد لم يحضر أحد سوى صاحب الفكرة وأخذ يصيح وحده حتى أصيب بالتهاب فى حنجرته!!

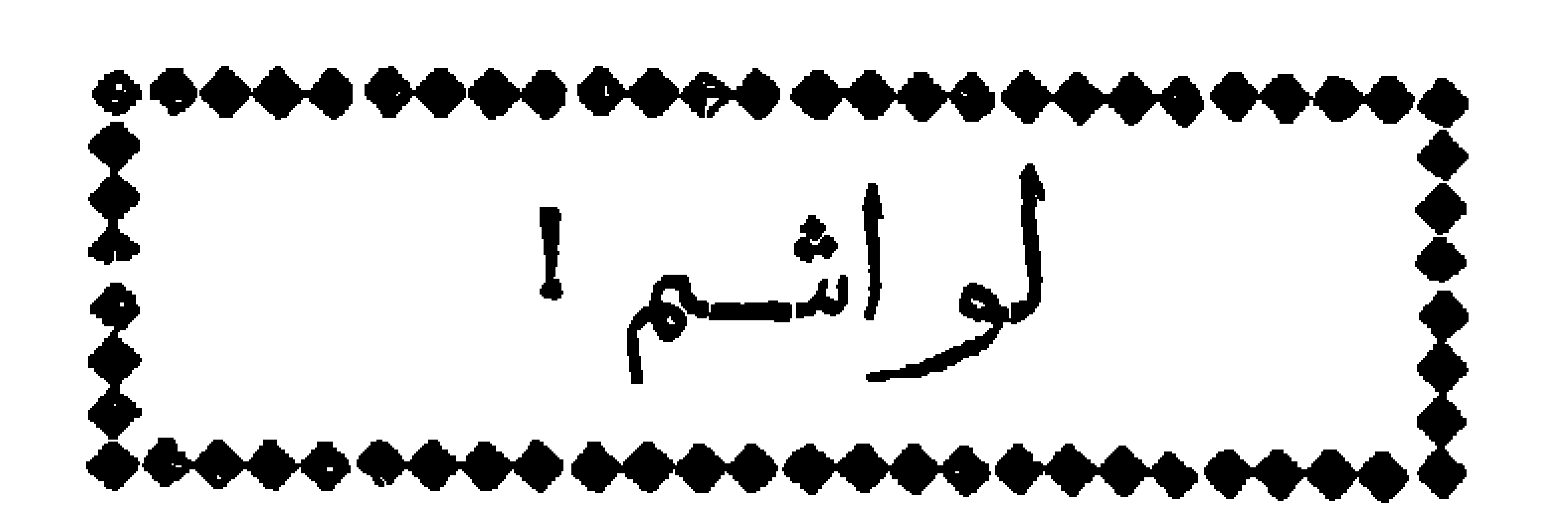
والمعنى هنا صريح . فان دورنا فى الحياة ـ حيث كنا ، وفى المرتبة التى نحن فيها ـ هو الدور الذى ينبغى أن نلعبه ونحسن أداءه . ومهما يكن هـذا الدور صغيراً تافها . فإن له قيمته وقدره . واذا تقاعست عن القيام به نقصت رواية الحياة ، وأعوزها الانسجام الكامل .

والله يريد أن تقوم بنصيبك فى الحياة كاملا . وهو يكافئك ، لا على أساس استحقاقك وجدارتك ، بل لأنه يحبك ويعنى بك كفرد فى أسرته . ولو أن البشر أدركوا هذه الحقيقة وعرفوها فى أنظمتهم وقوانينهم ومعاملاتهم . لأمكنهم تحقيق العدالة الاجتماعية ، والتضامن الاجتماعى ، وما الى ذلك من الألفاظ الجوفاء التى يرددونها ويتصايحون بها .

لعل القارىء الكريم يدهش حين يسمع أن أكثر البعثات الدينية المسيحية في العالم تمنح أجوراً متساوية لرجالها مهما تباينت مؤهلاتهم وكفايتهم ، فكبير الأطباء في مستشفى كبير يُمنح الأجر عينه الذى يُعطاه المعلم فى مدرسة ريفية ، ولا تتفاوت الأجور إلا بنسبة الأطفال الذين يعولهم الرجل لأن أساس تقدير الأجور ليس المؤهلات والكفايات ، بل المسئولية العائلية والحاجات . والقوم يفعلون هذا لأنه يتمشى مع مبادئ العدالة الإلهية وينسجم مع شرائع ملكوت الله . ولأن شعار عملهم هو الخدمة والمحبة ، لا الغنم والاستغلال

وان الله يدعونا لنقوم بواجبنا فى خلاص العالم وتوطيد دعائم ملكوته على الأرض . والذى يخلص العالم ليس الميل الأول الذى تقطعه مضطراً قياماً بالواجب ، بل هو الميل الثانى الذى تقطعه فرحاً فى خدمة الغير .

ليس الواجب بل المحبة !



لواشم !

« إن فى تاريخ الانسانية أشياء لايقبلها العقل ، ولكنها تبلورت فى أقوال الناس وأفكارهم ، ذلك لأنها قامت على حق أزلى بعيد عن المدركات العادية ، فانسابت إلى خير البشرية وصارت حقاً من الحقائق الخالدة فى الحياة » .

من العادات القديمة التى يرجع تاريخها إلى عصور سحيقة فى القدم عادة « الوشم » على الذراع أو الوجه أو الكف . وكانت البواعث إلى ممارسة هذه العادة كثيرة، فأفراد القبيلة الواحدة أو الطبقة الواحدة كانوا يتميزون بوشم معين على أجسادهم ، وكان القوم الذين يقدسون حيواناً معيناً يرسمونه عادة على أجسادهم بآثار من الجروح لاتمحى . وفى بعض القبائل كانوا يكرمون البطل الذى يأتى أعمالا مجيدة بوشم أليم بارز على جسده عوضاً عن الرتب والنياشين التى نعرفها فى هذا العصر . وقصارى القول كان الوشم فى القديم علامة مميزة — كأنه بطاقة تحقيق شخصية — يدلُّ على الأسرة أو المكانة الاجتماعية أو الوظيفة أو الدين . وإلى عهد قريب جداً كان المسيحيون فى مصر « يدقُّون » الصليب على أيديهم أو ذقونهم علامة مميزة لهم ، وما يزال بعض هؤلاء أحياء يُرزقون حتى اليوم .

ولعلَّ قدماء العبرانيين لم يمارسوا هذه العادة ، لأنها حُظِرت عليهم فى سفر اللاويين . على أن جيرانهم كانوا بلا شك يمارسونها لأغراض دينية ، كانوا ينحتون التماثيل ، لا على الخشب والحجر فقط ، بل على أجسادهم أيضاً . ولعلَّ

الحظر على العبرانيين كان مردّه إلى صيانتهم من هذه الممارسات الوثنية الذميمة. وكان هذا الصنيع بمثابة تحسس فى الطريق نحو إدراك أسمى وأرقى بأن الله روح ، وأنه أكبر من كل المصنوعات اليدوية ، والتماثيل المنحوتة ، التى صنعها الانسان ليعبدها . من ثمّ نرى الشريعة الموسوية تحرّم الوشم ، كما حرّمت التماثيل المنحوتة ، وذلك لأسباب دينية روحية سامية .

على أن هذا الحديث يذكّرنى بعبارة جرت على لسان النبى اشعياء فى الفصل التاسع والأربعين والآية السادسة عشرة : « هوذا على كفىّ نقشتك » . وتحريم النقش والوشم فى الشريعة الموسوية يجعل هذه العبارة صارخة جريئة. فالنبى كان يتصارع مع الألفاظ لعلّه يجد فيها وصفا لائقاً لمحبة الله . وقد وآتته فكرة رقيقة لينة مضحية ، هى محبة الأم « هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك » . والحق أن محبة الأم فى عمقها وعلوّها . إنما هى بعض من محبة الله .

وقد أصاب النبى إذ فكّر فى محبة الأم حين أراد استنباط صورة بشرية لمحبة الله . على أن هذه الصورة لم تسعفه تماما ، ربما لأنه تذكر اختباراً شخصياً مريراً قاسياً وقع له فى حياته يوماً ما . لسنا ندرى ولذلك قال إن هذه المحبة، محبة الأم ، قد تنسى . أما الله فلا ينسى حسب اختباره الشخصى .

من ثمّ يعود النبى إلى تفكيره ، ويحاول ابتكار صورة أخرى تمثّل محبة الله القوية الخالدة ، التى لا تفشل . وهنا تسعفه قريحته الشعرية بومضة من الفكر الخاطف ، ويرى أمامه إنساناً قد نقش على راحتى يديه اسما أو رسما . وأغلب الظن أن النبى شهد من قبل إنسانا على يده وشم ، هو علامة القبيلة التى ينتمى إليها أو الاله الذى يعبده . فينتزع من هذا المشهد صورة تمثل محبة الله ، ويجرؤ على أن يتخيل الله فاتحا كلتا راحتيه ، مظهراً إياهما للأمة التى زعمت أنها قد نسيت « هوذا على كفىّ نقشتك » .

وقد نطق النبي بهذه العبارة فى زمن طغت على أهله موجات من التشاؤم والشكوك والمخاوف . وكان القوم فى عصره يعانون اختبارات مريرة ، وقد دمرت بيوتهم ، ونهبت أمتعتهم ، واقفرت مدنهم وقراهم من ساكنيها ، وشرّدوا فى الأرض ، كما حدث تماماً لكثيرين فى هذا العصر فى مناطق واسعة فى العالم .

فى مثل هذا العصر وهذه الظروف ، أُلهم نبي فى القديم أن يرفع البوق إلى فمه ويصرخ قائلا « لماذا تقول قد اختفت طريقى عن الرب ، وفات حتى إلهى . أما عرفت أم لم تسمع . إله الدهر الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا . ليس عن فهمه فحص . يعطى المعيي قدرة ، ولعديم القوة يكثر شدة » .

وترى ما التعليل الصحيح لهذا الموقف الذى اتخذته طوائف متعاقبة من أبناء الانسانية ، تشبعت نفوسهم بهذا اليقين الثابت فى أزمنة الضيق والحرمان والنكبات والمصائب ، فنطقوا بألفاظ خالدة بقيت على الأزمان . ما التعليل الصحيح إذا كنا لا نؤمن بأنهم ألقوا همهم على الله الخالق ، ووضعوا فيه كل ثقتهم وكل إيمانهم !

أشياء لا يقبلها العقل

إن فى تاريخ الانسانية أشياء لا يقبلها العقل ، ولكنها تبلورت فى أقوال الناس وأفكارهم . ذلك لأنها قامت على حق أزلى بعيد عن المدركات العادية ، فانسابت إلى ضمير البشرية ، وتركزت فيه ، وصارت حقاً من الحقائق الخالدة فى الحياة . وإذا كانت القوات المادية العمياء هى الوحيدة العاملة فى الكون ، فمن ذا الذى ألهم الأنبياء والشعراء والكتّاب ليكتبوا قصائد الايمان والفرح والابتهاج فى ساعات الظلمة ، وليستوحوا النور الالهى من وراء ظلمات هذا الكون المادى ، وليرسموا صوراً من السماء وسط غيوم الشمس الغاربة .

انى لا أتصور كيف يقدر النبي القديم ـ اشعياء ـ أن يعلن عمق محبة الله وعلوها ، وحنانه الأبوى الرقيق ، ما لم يكن هو نفسه الناطق بلسان « الحق الخالد » من وراء السحب .

ومما يزيد الصورة التي رسمها اشعياء نوراً ولمعانا ان ظهر في التاريخ على أرضنا هذه إنسان تمثّلت فيه حياة الله ومحبته . ففي يسوع المسيح تمثلت محبة الله ـ التي أدركها اشعياء بعض الادراك ـ « جسداً سوياً » ، وظهرت على مسرح الحوادث في الكون. وهذه المحبة تحمل جميع المعاني التي لخصها اشعياء وأيدّه فيها رجال الله في كل الأزمان في قوله : « هوذا على كفيّ نقشتك » .

والذين عرفوا يسوع وآمنوا به ـ من رجال ونساء ـ لم يخامرهم شك في هذه الحقيقة . ولقد أثبت يسوع للبشرية قاطبة أنه « على كفّيه نقشها » . وحينما نرى الصليب الذي ارتفع يوماً ما على تلّة خارج المدينة ، ونفكّر في آثار المسامير لكي يجعلنا أبناء النور ، أبناء الآب في السماء ، أقول حينما نرى هذا نستذكر من جديد قولة النبي القديم ، وندركها بمعان أعمق وأسمى ، وتجري على ألسنتنا صيحة داوية : « حقاً ، من فرط محبتك المدهشة ، قد نقشتنا على كفّيك » .

فهل نقشنا نحن إسمه على قلوبنا ؟ !



مغامرات

« ... يبلغ الانسان خاتمة سياحته الطويلة نحو الله ، حين يرى المحبة مسمرة فوق صليب ، وتنتهى رحلته الطويلة حين يصرخ من أعماق قلبه مسترحماً مستغفراً » .

فى القديم صرخ أيوب صرخة داوية ، صعدت زفيراً حاراً من أعماق نفسه المتاعة « أ إلى عمق الله تتصل ؟ » . والحق أن هذه الصرخة أقدم من أيوب ، بل أقدم من العهد القديم ذاته . ولئن تكن هذه الصرخة الحائرة المتسائلة قديمة قدم الإنسان ، فإن الرد الذى تجاوبت أصداؤه فى فضاء الكون جاء متأخراً فى ملء الزمن ، يوم بزوغ فجر المسيحية ، يوم « صار الكلمة جسداً وحل بيننا » ...

إن كفاح الانسان لمعرفة الله بدأ منذ عصور سحيقة فى أوضاع غشيمة بدائية . فى مزيج من الرهبة والشكر ، تفرس الانسان البدائى فى البذور تزرع وتنمو وتتكاثر ، فصنع بيديه أصناماً أسماها آلهة الخصب . ثم نظر إلى الشمس والقمر والكواكب وحيوانات الحقل ومخلوقات البحر والهواء — هذه كلها صنع منها لنفسه آلهة ، وهو فى كل هذه المحاولات يتلمس السبيل للوصول إلى معرفة اللانهائى غير المحدود .

ودراسة الأديان تحدثنا أن كل قبيلة من قبائل البشر أضافت شيئاً إلى هذه المحاولات المتكررة للوصول إلى الله . فبقايا ملايين الأصنام القديمة تشهد

لذلك . والعبادات القديمة والطقوس والمراسيم والعادات الدينية المختلفة — على ما فيها من مظاهر تتقزز منها النفس في بعض الأحيان — كلها تشهد بأن الإنسان مغامر قديم سعياً وراء الأزلي الخالد غير المنظور .

والدروب التي سارت فيها الأجيال المتعاقبة متعددة ، ولكنها أشبه بالأزقة الضيقة والمسالك الفرعية التي تؤدي — عاجلا أو آجلا - إلى الطريق العام . لذلك نرى عقائد البشر وممارساتهم وأفكارهم قد اندمجت في ثلاث سياحات ، هي الفلسفة والعلم والدين .

سياحة العلم

ولنبدأ بسياحة العلم : لا مشاحة أن العلماء كانوا نبلاء حقاً . ففي القديم ساقهم النجم الهادىء عبر الفيافي والقفار لإزاحة الستار عن لغز الكون . شاهدوا في الجو أسراراً خفية ، فقاسوا النجوم وأبعادها في الفلك الدوّار . رأوا أسراراً في الأرض فحطموا الصخور . ومن النجوم تعلموا الاتساع واللانهائية ، ومن الصخور تلقنوا درس القدم والأبدية . وصارت ألف سنة كيوم ، والأرض كذرة من تراب ، حتى لقد صرخ أحد المغامرين في سياحة العلم ، فقال مرة : « قد عدلت عن الصلاة ، إذ لم يبدُ معقولا في نظري أن يُعنى الله — الذي يسيطر على كل هذه العوالم وعلى الزمن والأبدية — بذرة حقيرة مثلي ، ويستمع إلى وأنا أحدثه عن همومي وأشجاني ، وآمالي وأماني».

حقاً ان سياحة العلم ، على ما فيها من نبل وبسالة ، قد جاءت بالإنسان إلى حيث أرهبته سعة الأشياء وعظمة الأكوان ، فقاس الأشياء بالنسبة لأحجامها . واعتراه الشك والقنوط وحسب نفسه « حشرة طفيلية تغير على بشرة قزم بين السيارات » ، أو على حد قول برتراندرسل : «إن حياة الإنسان قصيرة عاجزة لاحوال لها ولا طول ، وقد علّق على رأسه وبني جنسه سيف القضاء المحتوم الذي لا يرحم » .

على أن العلم لم يكن السياحة الوحيدة . فالعلماء ، وهم يعالجون مبدئياً حقائق

مجردة أبوا استنباط نظرية أو وضع قانون قبل أن يؤيدوا نظرياتهم وقوانينهم بالأدلة المحسوسة الملموسة ، ولكن هناك سائحين آخرين بحثوا عن الحق وناقشوه فى نطاق العقل المفكر — هذه هى سياحة الفلسفة .

سياحة الفلسفة

وقد حاول المغامرون الأولون فى ميدان الفلسفة أن يشرحوا الألوهية والطبيعة والانسان . وقد قال أفلاطون « الفلسفة هى احتياز المعرفة . هى التشبه بالالوهية على قدر ما يصل إليه الإنسان » . هؤلاء غامروا فى كشف المعنويات ، وحاولوا استكناه الخير والشر والحكمة ، وساروا فى عالم مليء بالألوان الزاهية والعجائب المدهشة ، وإذ تنسمت أنوفهم رائحة الزهر الزكية وشهدوا كل جميل رائع فى الحياة ، استنتجوا وجود جمال مطلق فى مكان ما من الكون .

ولكن كان للصورة التى رسمها أولئك الفلاسفة المغامرون ناحية سوداء قاتمة . فالحياة بدت لنواظرهم جميلة رائعة ، ولكن القبح والدمامة والبشاعة برزت فى الصورة أيضا . فالطبيعة الحنون الرؤوم تبدو أحياناً وحشاً يقطر الدم من بين مخالبه وأسنانه . والخير فى الحياة قد يتبدل شراً مكشراً عن أنيابه . مساكين أولئك الفلاسفة ! رأوا أمامهم عالما فيه رائحة البنفسج العبقة ، وفيه فحيح الحيَّات السامة ، فيه السلام وفيه الحرب — فيه الخير وفيه الشر — فيه الصحة وفيه الألم ... أنه عالم المتناقضات !

وكما روّع العلماء فى سياحتهم ، روع الفلاسفة أيضا وهالهم الأمر . فتارة صعدوا فى سياحتهم إلى روابى الروح العالية ، وأخرى هبطوا إلى حفائر الشك والالحاد ، حيث حاروا فى أمرهم وتوهموا الله كصانع ساعات ، حاول اتقان صناعته وتركها تدور على قدر ما فيها من اتقان .

على أن هناك مغامرة أخرى غير هاتين ... مغامرة لم تحاول أن تجد الله

عن طريق النجوم والصخور ومتناقضات الطبيعة، بل عرفته عن طريق إنسان ورأيه في وجه بشر .

سياحة الدين

قام البشر باجراء تجارب فى مملكة أسموها « علما » . وتجارب فى مملكة العقل أسموها « فلسفة » . ولكن قبل هذه وتلك أجروا تجارب فى مملكة الروح أسموها « دينا » . وقد اتسعت هذه الكلمة لما لم تكن تحتمله ، وتخبط البشر على غير هدى فى أحوال كثيرة ، وارتكبوا باسم « الدين » الجرائم والآثام . ولكن هذه التجارب شملت ـ فى بعض عناصرها الطيبة والخيّرة ـ رجالا أخيارا عظماء من مختلف الأديان والعقائد ، قاموا بمحاولات فى إخلاص وسلامة نية لعلهم يتماشّون بالروح مع صانعهم وباريهم .

صلّوا إلى الله الذى خلق كل الأشياء على أحسن صورة ، ولكن ، وهم يصلون هالتهم المتناقضات الرهيبة التى رأوها فى محيطهم . فهناك الزلازل ، والمجاعات ، والأوبئة ، والحروب . هناك آلام الأبرياء ، ومشكلات الحياة والموت... فلا عجب أن يحار حتى خيار الناس والصالحين فيهم . ولم يكن بد من شفاء الغليل والاجابة على السؤال المحير المربك: «مَن هو الله هذا ؟ »

وفى ملء الزمن حلت المشكلة ، وجاء الجواب الشافى المقنع . وبلغت سياحة الدين ذروتها بانبثاق فجر المسيحية وظهور مؤسسها على الأرض . وكانت تلك فى الواقع خاتمة سياحة الدين ، وآخر الرحلات فى عالم الروح .

وقد كان طريق واحد ، طريق واحد لا غير ، يظهر الله فيه للناس . فلم يكن مناص من أن يكلم الله الانسان بلغة الانسان ، وأن يلتقى بالانسان فى الميدان الذى يدركه الانسان ، وأن يبين له كيف يعمل الله ويفكر ويحب. فكسا الله « عمله وفكره ومحبته » جسداً بشرياً ، « والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا » .

وليس سهل على العقل البشرى أن يقتبس شيئاً إلا إذا تجسم أمامه . هذه هى الطريقة التى يجرى عليه علماء التربية الحديثة فى تلقين الصغار والبسطاء - تجسيم معانى الألفاظ وتشكيلها بأشياء وحركات منظورة للعين .

سئل مرة غلام فى الثانية عشرة من عمره : ما المحبة ؟ — فأجاب « أمى محبة » . وعقل الغلام الصغير لم يستطع التفلسف فى معنى المحبة، ولكنه رآها مجسمة فى أمه . رآها عاملة ناشطة فى مجد وعظمة .

والله يكلم الناس بلغة مماثلة . لذلك تجسد « الروح الأزلى » وعاش بين الناس إنساناً .

وإنه ليبهرنا بساطة الأوضاع التى رأيناه فيها : -

فى بيت لحم : طفلا صغيراً محوطاً بهالة من البسمات العذبة - « الله الكلمة صار جسداً » .

فى قانا : رأيناه فى عرس ووليمة يزين الحفل بالفرح والمحبة ، ويكلل اليوم بالقوة والابداع — الله ، الكلمة صار جسداً .

فى الجلجثة : رأيناه إنساناً يتلوى من فرط الألم ، مضروباً من الناس ومسحوقاً — «الله ، الكلمة صار جسداً .

ويبلغ الانسان خاتمة سياحته الطويلة نحو الله حين يرى المحبة مسمرة فوق صليب ، وتنتهى رحلته الطويلة حين يصرخ من أعماق قلبه مسترحما مستغفراً .

ومع ذلك فليست هذه نهاية المغامرة . فرحلة حكماء المجوس فى القديم ، ورحلة الرعاة من تلة بيت لحم إلى حظيرة البهائم ، قد انتهت حين سجدوا أمام الطفل . ولكنهم عادوا يمجدون الله ويسبحونه . وما تمجيد الله وتسبيحه إلا الحياة الطيبة المثمرة . وتتفق النتائج العملية للمغامرة المسيحية

مع قصد الله ومشيئته لأن السعى الدائب إلى معرفة الله ليس وقفاً على المتصوفة الزاهدين ، بل هو مشاع لكل إنسان ...

وحين يجد الانسان الصلاح والطهر ، والمحبة والغفران، مجسمة فى يسوع ، لا يرتوى ولا يشبع إلا إذا تجسمت هذه فى نفسه هو ، وعاش بمقتضاها فى حياته . هذا هو قصد الله .

عندئذ تغدو السياحة المسيحية كفاحاً مستمراً فى سبيل الكمال الانسانى.



أحكام القدر

« إن الله لا يريد الفقر فى العالم ، وتأبى المسيحية أن تخدر أعصاب الناس بحثهم على الاستكانة إلى أحكام القضاء والقدر . . . »

الفقر أحد الأعداء الثلاثة التى تكافح الشعوب لإزالتها ، ولعلّه ألد هذه الأعداء ، لأنه لولا الفقر لما كان الجهل ولما كان المرض . وهو إذاً أس البلاء والعبء الثقيل الذى يضغط على قلوب الملايين من الناس فى كل البلدان .

ولكن هل لهذا من دواء ؟ وهل للفقر من علاج ؟ يقيناً أن الفقر ليس فضيلة ، وليس فيه خاصية من خواص القداسة ، وإن يكن كثيرون من الناس — حتى بين المسيحيين — يزعمون أنه ضرورة لحفظ الكيان البشرى ، وأنه منطو على كثير من الفضائل . ولعلّ لا توجد آية فى الإنجيل أساء الناس فهم المقصود منها مثل قول يسوع « الفقراء معكم فى كل حين » . وكثيراً ما يجردونها من سياقها وملابساتها ويزعمون أنها تحمل معنى بقاء الفقر والفقراء الآن وإلى الأبد ما دام فى الوجود بشر .

وعندى أن هذا تأويل سيء للآية الكريمة . وهى فى أبسط معانيها احتجاج صارخ من جانب يسوع على وضاعة يهوذا ودناءة نفسه . وهو يتظاهر بالدفاع عن الفقراء إذ يعيب الإسراف الذى اقترفته مريم فى شراء طيب غالى الثمن وسكبه على قدمى يسوع . ولم يكن الرجل مخلصاً فى تظاهره وادعائه الحدب على الفقراء ، لأنه لم يتورع أن يختلس من صندوق الجماعة لمنفعته .

ثم أراد يسوع أن يفهمه أن فرص إغاثة الفقراء كثيرة وموآتية ، ولكن حياته قصيرة ، وهذا العمل الدال على المحبة والإخلاص والإحترام جاء فى وقته قبل الأوان . وقلب يسوع أكثر القلوب حساسية فى تقدير شعائر المحبة الصادقة . وآخر ما فكر فيه معلم الإنسانية الأكبر أن يتخذ أتباعه من قولته هذه تكأة لقسوة القلب ، أو للزعم الأجوف أن لا علاج للفقراء ، وأنه باق فى الحياة ما بقى الإنسان على الأرض .

وقد علم المسيح أتباعه أن يتطاعوا دائماً إلى حياة أفضل ، وحياة موفورة الكرامة والخير ، وإن يكن قد علمهم أن يطلبوا أولا ملكوت الله ، فتخلو حياتهم من العوز ، ومن القلق والعناء ، كطيور السماء المغردة وأزهار الحقل اليانعة ، وعلمهم أيضاً أن فى طريق المحبة التى رسمها نبراساً للحياة الإنسانية : « أتيت ليكون لهم حياة وليكون لهم أفضل » . أما البركة « الطوبى » التى خلعها على الفقراء ، فكانت بركة مقارنة محض ، حين تقاس بويلات الثروة الطامعة المتكالبة . ولم يقصد المسيح من ورائها إقرار الفقر ، والموافقة عليه حيثما وجد ، وأياً كانت أسبابه .

إن الله لا يريد الفقر فى العالم ، وتأبى المسيحية أن تخدّر أعصاب الناس بحثهم على الإستكانة إلى أحكام القضاء والقدر ، أو الأخذ بأسباب القناعة والرضا بما هم فيه من حال مزر ، استناداً إلى أن هذه هى إرادة الله التى لا راد لها ولا محيص عنها . تأبى المسيحية هذا لأنها تقدر قيمة الفرد وتجاهد أن ينال كل إنسان قسطه من الحياة الكريمة وحقه فى الوجود .

وفضلا عن هذا فإن موارد الثروة المتكاثرة فى العالم الحديث تمكننا من إزالة أسباب الفقر فى يسر وبغير إبطاء . ومن الصدف الغريبة أن زيادة السكان فى العالم العصرى يصحبها دائماً زيادة هائلة فى قوى الإنتاج . ويقدر رجال الإقتصاد أن القوة الإنتاجية فى العالم زادت ألف ضعف عما كانت عليه فى

القرون الوسطى . وقد جاءت هذه الزيادة على الرغم من القيود المصطنعة غير الطبيعية التي تعرقل الانتاج بسبب الأنانية والمطامع . وحتى الآن لم نطلق العلم حراً طليقاً ليستغل الطبيعة استغلالا غير مقيد ، ولم ننظم الصناعة تنظيما يفيد منه الناس أكبر فائدة ، وذلك بسبب القيود والعراقيل التي يقيمها أصحاب المصالح لجرّ المغانم وتكديس الثروات وحرمان عامة الناس من الخيرات . وهناك فى بطون الأرض ثروات دفينة لم تستكشف بعد .ولو أننا وزعنا المواد الأولية توزيعاً أساسه العدل والإنصاف، لما وجد محتاج فقير على ظهر الأرض ، ولو أننا عملنا على إشباع حاجات الملايين من المعدمين ، لاكتظت الأسواق بالسلع ، ولوفر الاستهلاك ، ولانعدم التعطل ،

ومن الميسور جداً أن نكفل راحة العيش لكل إنسان دون أن نعتدى على حق أى إنسان . ولم يعد ثمة داع لما يسمونه التطاحن بين الطبقات ، ففى العالم « وفرة من العظام تكفى جميع الكلاب المتهارشة » . ومع ذلك نعيش وكأننا فى حرب دائم لنكفل أدنى أسباب الحياة .

وهذا مسلك منطو على أبشع ضروب الحماقة ، وعلى إنكار لجود الله وخيره ومحبته . وحين نقرأ عن ويلات الجوع والحرمان والعرى والبرد التى تجتاح الآن بلاداً كثيرة فى العالم ، ننتفض جزعاً وفزعاً أمام ضلالة الانسانية. ونحن إذا آمنا أن الله أبونا كلنا، وأن هذه الأرض هى موطن لأفراد الأسرة البشرية ، وإذا أقمنا نظام البيت العالمى على أساس هذه العقيدة ، لما عالجنا الفقر بهذه الجرعات الضئيلة التى لا تغنى فتيلا ، وهذه المسكنات الوقتية التى لا تجدى نفعاً ، بل لكنا عالجناه علاجاً حاسماً نهائياً .

أجل ، إن توزيع الثروة واستخدامها على أساس المسئولية الاجتماعية والمودة المتبادلة وحسن الادراك المشترك — لمن أضمن الوسائل لإنقاذ البشرية من كابوس العوز الاقتصادى والحرمان والخوف ، ومن الجشع

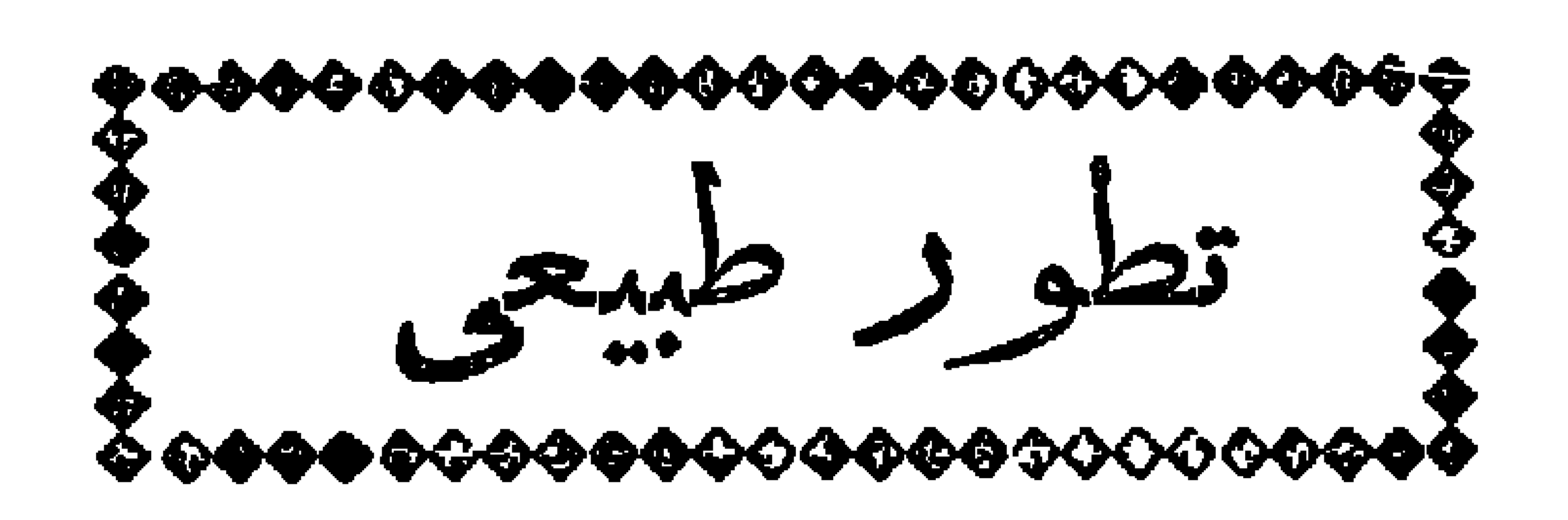
والطمع والاستغلال والنزاع . ولا شك أن عوامل الفقر وأسبابه خطر داهم يهدد الحضارة الانسانية بالانهيار والتدهور إلى العصور المظلمة ، إذا لم نكبح جماحها ونقلم أظافرها . أما الذين يزعمون أن إزالة الفقر يهدد كيان المجتمع ويؤدى إلى إنهيار الجنس البشرى ، فهم وبال على الانسانية وزبانية إبليس .

إن كرم الله فى الطبيعة ينتهر ويوبخ طمع الانسان وجشعه ، لأن الثروة ملك لله ومنحة منه للبشر أجمعين . وفى هذه الأيام ترن أصوات مدوية فى آذان الناس لينتهزوا الفرصة السانحة ، فلا يعالجوا الفقر بالادوية المسكنة والجرعات الخفيفة ، بل يعملوا على استئصال شأفته ، ويوفروا أسباب الحياة الكاملة لكل ذى نفس حية .

ومن دواعى الغبطة والفخر أن نهضتنا الاشتراكية الحديثة قد فطنت إلى هذه الحقائق كلها ، وأخذت تعالج الفقر بتشريعات وأنظمة عادلة .

أما الزعم بأن الأديان لاتقرّ مثل هذه التشريعات لأن الله يقسط الأرزاق وهو العادل الحكيم ، فهو زعم باطل ، والأديان جميعاً — أو المسيحية على الأقل — تتبرأ من هذه الأوهام التى يصطنعها أصحابها لهوى فى نفوسهم .

والله نسأل أن يهدى أولى الأمر فينا إلى سواء السبيل، ويعينهم على إزالة أسباب الفقر بأساليب حكيمة بانية تحفظ كرامة الانسان .



تطور طبيعى

« إذا رمنا إصلاح الجيل الذى نعيش فيه ، لابد لنا من النظر إلى مشاكله نظرة معتدلة كريمة منصفة . أما محاولة إرجاع عقرب الساعة إلى الوراء ، فهو انتكاس جد خطير » .

أرأيت إلى بعض العناصر الكيماوية التى لا تخلو من مواد غريبة ؟ إن الدين أشبه بهذه العناصر، فهو الخميرة المخبوءة دائما فى مكاييل ثلاثة من الحنطة. وهو التبر الثمين الذى يُصب فى قوالب جاهزة ، ولا تلبث هذه القوالب أن تتحطم عاجلا أو آجلا ...

بدأت المسيحية الأولى طائفة من طوائف اليهودية ، ولو أنها بقيت فى حدودها الضيقة تحت زعامة الرسول يعقوب فى أورشليم ، لكانت أشبه بخلافة يضؤول أثرها، ويضعف شأنها ،بعد موت مؤسسها . ولكن الله قيّض لها عبقرية فذة فى شخص بولس الرسول ، فجعل المسيحية دين العالم اليونانى، يتكلم ويفكر باليونانية ، لغة الثقافة والعلم والفن فى ذلك العصر . فقهر أوربا وخسر آسيا . وأحسبه قد فهم فكر يسوع أكثر مما فهمته كنيسة أورشليم الأولى .

وجاء بعقب هذا عصر الاضطهاد ، ولم يكُ فى أول عهده منظماً شاملا. فنظرت الخاصة إلى المسيحيين فى بادىء الأمر نظرة احتقار ، لأنها لم تكلف نفسها عناء لتفهم أغراض تلك الطائفة الناشئة ، أما الكافة فقد كرهوا

المسيحيين للأسباب التي أبغضوا من أجلها اليهود، مع فارق واحد، هو أن المسيحيين ما كانوا قط مرابين يستغلُّون الضعف والفقر. ثم فتحت الحكومة الرومانية عينها في القرن الثالث لترى المسيحية تتوغل بين صفوف جندها وقوادها، وقد غدت هيئة قوية يُخشى بأسها ولا يؤمن جانبها لخلوها من شعار الولاء للامبراطورية الوثنية. فراحت تصوب نحوها ضربات غير سديدة المرمى، وأحست الحكومة أنها لم تعد تقبض على ناصية الحال. وأخيراً ائتمر دقلديانوس ورفاقه بالكنيسة، وأعدوا لها الضربة القاتلة لافنائها عن بكرة أبيها. ولكن أصولها كانت قد تشعبت في حياة الأمة، فلم تغن كل محاولاتهم فتيلا، على الرغم مما مُنيت به الكنيسة من قتل وتشريد وإيذاء وتخريب. وأخيراً تمت المصالحة على عهد قسطنطين الذي قبل المسيحية دينا رسميا للدولة. وانتصرت الكنيسة على الامبراطورية، وفاز الشرق على الغرب..

هكذا كان، وهكذا سيكون: إن مكافحة الحركة الروحية المعنوية بأسلحة بشرية مادية، يشدد ساعد الهيئة المضطهدة، ويصفيها مما بها من زغل، ويشحذ عزائم الذين تقهرهم القوة الغاشمة إلى حين. وكل تغليب للقوة العضلية على القوة النفسية الروحية مصيره الفشل المحقق.

العهد الاقطاعي

وكانت الحضارة القديمة، والمسيحية الأولى، كلاهما من النهضات التي ازدهرت في المدن المتحضرة. وما حل القرن الرابع والخامس حتى كان الخراب قد عمّ المدن — ماخلا بعض أنحاء الشرق — وفسدت الحياة فيها بتضخم النقد واضطرابِ الأحوال الاقتصادية. ولم تبق الا الضياع الريفية التي هرع إليها الأشراف والنبلاء واقتطعوها لأنفسهم، وبدأ ما عُرف في التاريخ بالعهد الاقطاعي. وحسبُ التاريخ شاهداً على ما فشا في تلك العصور المظلمة من ظلم واعتساف ونهب وسلب. وفي قمة هذا الانحلال والفوضى احتلت الحكومة الدينية البابوية مكانتها الرفيعة. وأغلب الظن أن الحكومة الدينية

فى ذلك العهد لم تغتصب السلطة الزمنية اغتصاباً ، ولكنها فرضت عليها فرضاً بحكم الظروف القاهرة . ولم يك هينا على البابوية أن تقطع صلاتها بالعاهل الجالس على عرش بيزنطة ، ومايزال حتى اليوم — فى قداس الجمعة العظيمة بالكنيسة البابوية — دعاء خاص لامبراطور الدولة الشرقية الرومانية . ولم تكن المنازعات التى ثارت بين الامبراطورية والبابوية فى ذلك العهد نزاعا بين السلطتين الدينية والزمنية . ولكن ظروف الأحوال يومئذ هى التى أملت فكرة قيام حكومة دينية مقدسة تسود الشرق والغرب . ولعلها كانت أثراً لابد منه من آثار الفوضى التى فشت فى ذلك العصر . ونخطىء إذا حسبنا ذلك العهد من عهود انحطاط المسيحية . فالكنيسة الأولى فى العصر الاول لم تكن سلطة زمنية. وقد تماشى موقفها هذا مع الزمن الذى عاشت فيه . على أن ظروفاً تاريخية طارئة أملت على الكنيسة فى القرون الوسطى أن تملك إلى جانب رسالتها الروحية سلطة زمنية أيضاً .

وعلى الرغم مما شاب تلك القرون من تضييق على الحرية الدينية. واستغلال غير محمود للسلطتين الدينية والزمنية ، فان تلك العصور التى سماها التاريخ « مظلمة » والتى وصفها الكاتب الفرنسى موليير بقوله :

«Le fade goût des monuments gothiques. Ces monstres odieux des siècles ignorants.»

« ذلك الذوق السقيم الباهت فى الآثار القوطية ، وتلك الوحوش البشعة فى العصور المظلمة » — قد أنضجت للعالم نفراً صالحا من الأتقياء الزاهدين، والأفذاذ الروحيين ، والفنانين الذين شادوا أبدع العمائر المسيحية ، ورسموا أروع الصور الدينية التى ما برحت تزين متاحف الغرب .

ونحن لانطمع فى هذا العصر على الاقل فى كنيسة جامعة ، ولافى امبراطورية مسيحية جامعة . فالاتحاد الذى تحلم به الكنائس ، وعلى رأسها الفاتيكان ،

ليس اتحاداً سياسياً . وقد لا يكون اتحاداً نظامياً ، فى العصر الحاضر على الاقل ، إنما هو «وحدة الروح برباط السلام» .

وما تاريخ المسيحية إلا تاريخ التقاليد الروحية العظمى . وما الخلافة المسيحية الحقة إلا حياة القديسين فى أية كنيسة . ولقد شبّه اكليمندس الأسكندرى الكنيسة بنهر عظيم تصب فيه الغدران والفروع من كل الجوانب. ويجرى هذا النهر العظيم تارة فى مجرى ضيق، ثم يتسع تارة أخرى كطوفان متدفق، يتوزع أحياناً فى مجار كثيرة متفرعة ، وأحياناً أخرى يختفى من الأنظار ويشق طريقه تحت الأرض . ولكن الروح القدس لم يترك نفسه بلا شاهد . ولو غضضنا الطرف عن سير تاريخ الكنيسة العالمى ، وتتبعنا آثار الدين الروحى والكناسة الروحية ، لتغير حكمنا على كثير من الحوادث .

وحين نتعى انقسام الكنيسة وتفكك وحدتها ، لا نقصد بذلك روحها وحياتها ، إنما نقصد السادة الرؤساء الذين يقيمون الحواجز بين «جماعات المؤمنين» . وهل إذا قرأت كتاباً مثل «اعترافات القديس أغسطينوس» أو «سياحة المسيحى» أو غيرهما ، تشعر بشىء من الحواجز الطائفية أو الفواصل الروحية ؟ ! لم تكن المسيحية منقسمة أبداً فى محاريب النفس ، التى يصلّى فيها الاخيار الصالحون .

عهد الاصلاح

وبعد زوال العوامل التى أملت الحكومة الدينية البابوية ، جاء عهد الاصلاح . وهو فى الحقيقة نزاع بين أوربا الشمالية وأوربا الجنوبية، بين المسيحية اللاتينية والمسيحية التيوتونية ، هو فى الحقيقة ثورة الحرية ضد السلطات . وتماشت مع ثورة الاصلاح فى الغرب حركة مماثلة فى الشرق لم ينشأ عنها شىء من الاضطراب لاختلاف الظروف والأحوال .

وكانت تلك الثورة الاصلاحية مفتاحاً للسياسة الأوربية الحديثة ، اقتفى

الشرق خطاها من بعض الوجوه ، فى المسيحية والإسلام على السواء، وبوّقت الأبواق فخلع الناس عن أكتافهم نير الملوك والكهنة والاشراف والنبلاء وكل ذى سلطان .

ولم تخلُ هذه الخطوة الجريئة من خطر . ولقد علّق عليها متهكماً أحد مشاهير الكتاب بقوله : « تطورت آثار هذه الحركة عن مظاهر غريبة بدت لنا فى جرأة الملحدين الذين غالوا فى تحدّى الله والوالدين ، وفى تمرد النساء على سلطة الأزواج ، وعلى قيود البيت والحياة العائلية ، وفى الشباب الذين يضيقون بالحياة وهم بعد فى الثانية والعشرين ، وفى الجماهير الغفيرة التى تغرق نفسها فى اللذات ، وفى الملايين الكثيرة التى أملت إرادتها الجامحة على دور السينما وعالم الصحافة ، لتخرج لها ما يشبع ثورتها النفسية » .

وهذا تهكم لا يخلو من بعض الحق . فان البشر قد أساءوا من بعض الوجوه فهم الديمقراطية ، واستغلوا سماحة الحرية استغلالا لا ينسجم وروحها ، ولكن الافراط فى لوم هذا الجيل وعذله لا يخلو من شطط أيضاً. ولا سبيل إلى إنكار ما فى الهيئة البشرية الآن من شرور وآثام ، ولكنها لم تبلغ بعد حد الاندثار والانحلال الذى يذهب إليه بعض المتشائمين .

وإذا رمنا إصلاح الجيل الذى نعيش فيه ، لابد لنا من النظر إلى مشا كله نظرة معتدلة كريمة منصفة . أما محاولة إرجاع عقرب الساعة إلى الوراء ، فهو انتكاس جدّ خطير .

وكل حق جديد يقبله البشر ، يكونون فيه عرضة إلى الافراط والمغالاة ، ولكن واجبنا نحو الذريات المقبلة ، وتبعتنا حيال الأجيال التى لم تولد ، تقضى علينا بالتريث وأخذ الأمور بالهوادة والرفق ، واثقين أن الدين الحق ليس دين الجمود ، بل هو الحق الشامل الجامع الذى يسع كل الثقافات وكل العصور وكل النزعات البشرية ، عالمين أن فى العقائد التى نسميها « دنيوية »

كثيراً مما هو طاهر وجليل وحق ، ومما يوائم المبادىء المسيحية لو اتسعت وجهة نظرنا .

وكثيرون من المسيحيين يقفون بمعزل عن الأشياء التى يشغف بها معاصروهم ، ثم يشتكون ويبكون لأن الناس لايبالون بالدين ، ولأن الحياة الاجتماعية كلها فاسدة شريرة . والله يعلم مقدار الخطر الكامن فى النزعات الدنيوية العالمية . ولكن ينبغى أن نقدر الفوارق البارزة بين مزاج العصر الأول الذى نشأت فيه المسيحية وبين مزاج القرن العشرين . وفى العصور الخوالى هرب الأنقياء ، رجالا ونساء ، من الهيئة البشرية لما اعتورها من فساد وختل وشقاء . ولكن نزعة « الاعتزال » هذه تكاد تكون الآن أثراً من آثار الماضى السحيق لا يستسيغها العقل ، ولا تقبلها الشهامة والمروءة ، لأننا نشعر أننا مدعوون للعمل مع الله ومع زملائنا أبناء الانسانية فى هذا العالم . وقل بين الناس من يذهب إلى اعتبار أشياء الجسد وميول الطبيعة البشرية مكرهة فى نظر الله .

إنه من الحماقة أن ننكر الحقائق الراهنة ، وأن نتجنى على كل شىء فى هذا العصر ، وأن نحسب البشر مارقين عن الدين لانهم لا يتقيدون باصطلاح مرسوم ، ولأنهم ينزعون إلى اصطلاح جديد فى تأويل الأشياء وتعليل الحياة. إن المجال واسع للاصلاح والتعمير ، ولكن الهيئة البشرية التى نعيش فيها لا تستحق الاعدام ، كما نتوهم . ولدينا الكثير من الأشياء الخليقة بالشكر ، والبركات التى نستمتع بها دون أن نتعب مثقال ذرة فى اقتنائها .

ويبقى بعد هذا كله الفاصل الكبير ، فى كل طبقة من طبقات البشر ، بين إنسان وإنسان : بين إنسان يضع كتفه مع الأكتاف فى العبء المشترك ، وبين إنسان يميل بكتفه فيكون ثقلا على الآخرين ، بين الذين يحملون أثقال بعضهم بعضاً ، وبين الذين يعيشون ويلهون ويتركون الآخرين ينوءون تحت أعبائهم الثقيلة . يقول برنارد شو الكاتب الانكليزى الشهير : « إن

« الجنتلمان » هو الانسان الذى يأخذ من الخير المشترك فى العالم أقل مما يودع فيه » — وهذا مبدأ مسيحى لاشيّة فيه .

والذى يحسبه العالم نجاحاً فى الحياة هو حصول المرء على عمل تضعه فيه الصدف أو الأقدار بحيث يستدر منه قدراً من المال يبزّ فيه زملاءه واترابه، بل ربما يفوز بهذا النجاح المادى من طريق التلاعب والاحتيال والمقامرة . وأمثال هؤلاء يسخر منهم المسيح بقوله : «ملوك الأمم يسودونهم والمتسلطون عليهم يُدعون محسنين . وأما أنتم فليس هكذا » .

على أن الفئة التى قسا عليها الانجيل فى حكمه هى فئة الذين لا يعملون شيئاً فى المجتمع . فالغنى فى قصة لعازر الذى يعيش حياة الترف والبلادة ، بينما يقبع الآخرون عند باب داره فى شقاء يتلقون الفتات الساقط من تحت مائدته، والعبد الذى أخفى فضة سيده، والمصباح الذى يوضع تحت المكيال فلا يضىء — هذه كلها أمثلة صارخة على قسوة الأنجيل على المتكاسلين الذين يعيشون كالطفيليات فى جسم الهيئة ، وليس حقاً أن الإنجيل يدعو إلى فضيلة سلبية ، أو مجرد الامتناع عن اقتراف الأخطاء والخطايا . وإذا قدر لنا ، حين نستلقى على فراش الموت ، أن نقول اننا تركنا رقعة العالم التى عشنا فيها فى حال أفضل وأسعد مما وجدناها عليه ، كان لنا فى هذا خير مشجع للجواب الجرىء المقبول فى يوم الدينونة . وليس يهمّ فى هذا كله المهنة التى نختارها أو الحرفة التى نحترفها ما دمنا نجتنب الأعمال العقيمة التى لا تثمر شيئاً ، أو التى لاتخدم إلا المتع الأنانية . ولقد قال أحد كتاب الأخلاق : « لا تطلب التقوى أن تنبذ أى طريق من طرق الحياة ، تستطيع أن تسلك فيه بعقل وحكمة ، فكل ما تقدر أن تعمله أو تستمتع به فى حضرة الله، لايتعارض وناموس التقوى».

نحو ورثة تراث زاخر

بعد هذا نرى أنفسنا ورثة لتراث زاخر ، فلا سبيل إلى التشاؤم إزاء حضارتنا العصرية ، ذلك لأننا مرتبطون ارتباطاً تاريخياً وثيقاً بأفضل ما أعلنه الله للجنس البشرى ...

بالحضارات القديمة التى امتزجت بالمسيحية الأولى ، فتبلورت في أفكار حرّة سامية ...

بالعبقرية الدينية فى العهد القديم التى هذبتها وصقلتها سلسلة من المحن والويلات السياسية .

بأعلان الله فى يسوع المسيح الذى أشرقت أنواره على البشرية منذ عشرين قرناً ، وأجرى العجائب فى حياة الأفراد والشعوب التى استنارت بهديه .

بالروائع الفنية وآيات الزهد والتقوى وإنكار الذات التى تمثلت فى القرون الوسطى .

بالشرائع والآداب والأنظمة والحريات التى ازهرت فى عهود الاصلاح .

بنواحى النشاط العجيبة المتنوعة التى تعج بها الحضارة العصرية .

بالآمال العظام التى تبدو فى الأفق من بعيد على الرغم من السحب القاتمة المعقودة فى الجو .

هذا هو تراثنا الزاخر الذى نعتز به أيما اعتزاز ، والذى يبدد غمامة التشاؤم التى تبسط ظلها على قلوبنا وعقولنا فى هذا العصر .

جهنم الحديثة !

« إن جهنم مدينة خاوية ، خالية ، رمادية ، مكمدة اللون ، فسيحة الأرجاء ، تمتد إلى مسافات لا تدركها العين . . . »

يبهرنا الفلكيون بالأرقام والمسافات والحقائق التى يثبتونها فى كتبهم وبحوثهم . ومما يقولونه إن السُّدم البعيدة التى يكشفها التلسكوب تتباعد عن أرضنا بسرعة مدهشة رهيبة. وكلما بعدت عن الأرض زادت سرعة حركتها. وهم يعللون سرعة هذه الحركة بقولهم إن الكون كله يتسع ويمتد أشبه ببالون. وأنت إذا نفخت «بالوناً» من المطاط ، تباعد كل جزء فيه عن الجزء الآخر. وكلما تباعدت هذه الأجزاء زادت المسافة بينها . والذى يحدث فى الفلك ان الكون كله يمتد ، فتتباعد هذه السدُم عن الأرض ، وتبدو كأن حركتها تزداد أشبه بالبالون وهو ينتفخ !

وقد استعار أحد علماء الأخلاق ، أظنه المرحوم الدكتور لويس الأستاذ بجامعة اكسفورد سابقاً وصاحب كتاب « نبراس الأخلاق »(١) — فكرة من علم الفلك ، وحاول بأسلوبه الفكاهى الشعرى الرزين أن يصف الفارق بين السماء وجهنم . وإليك الصورة التى رسمها :

قال إن جهنم مدينة خاوية ، خالية ، رمادية ، مكمدة اللون ، فسيحة الأرجاء ، تمتد إلى مسافات لا تدركها العين . ولماذا هذه السعة ، ولماذا هذا الفراغ ؟ لأن كل طارق جديد يفد إلى هذه المدينة بعد أن يبنى داره ، يتشاحن

(١) هذا عنوان الكتاب الذى نقله مؤلف هذا الكتاب الى اللغة العربية .

ويتشاجر مع جاره ، فيضطر إلى الابتعاد والتحرك إلى خارج نطاق المساكن. وهذا هو إحساس كل فرد فى هذه المدينة الرهيبة . ولذلك تمتد وتتسع فى أطرافها ، ويهجر الساكنون دائرتها المركزية ، ويتحرك السكان فى غير انقطاع إلى ما وراء ضواحيها المتباعدة ، حتى لايتصل بعضهم ببعض . وتمسى هذه المدينة المهجورة « الممتدة فى الفضاء اللانهائى » شعاراً لانقطاع المودة المتبادلة ، وزوال الألفة البشرية بين الناس .

هذا هو الوصف الذى رسمه العالم الاخلاقى لجهنم الحديثة . وبدلا من أن تكون ناراً متقدة ، كما صورتها روايات الكتب المقدسة ، وخيالات العصور الوسطى ، يصوّرها صاحبنا مدينة بليدة ، مملة ، لانهائية ، يحاول كلّ من فيها أن يهرب من جاره ، وأن يعيش فى وحشة قاسية خالية من المحبة والصداقة والألفة .

وفى هذه الحياة الدنيا يتعذر على الإنسان أن يعيش بمفرده ، ولو على كره منه . ولكن ليت شعرى ماذا يكون حالنا بعد الموت إذا اختفت هذه الظروف القاهرة التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وتجعل صلتهم المتبادلة أمراً لامحيص عنه ولو كانوا كارهين . وكيف تكون جهنم لويتاح للأشرار أن يفعلوا ما يشاءون ، ويقطعوا حبل المودة الذى يربطهم بغيرهم ، ويعيشوا لأنفسهم فى وحشة ووحدة . إنها صورة مرعبة حقا ، قد تكون أرهب وأشد رعباً من النار المتقدة التى لا ينطفىء سعيرها .

وعلى ضوء هذه الفكرة يمكن القول ان بين الناس كثيرين يبدأون حياة جهنم ، وهم هنا على الأرض . فهم يقفون من « جيرانهم » موقف النقد والاحتقار ، ويباعدون بين أنفسهم وبين الفرص التى تهيىء أسباب الصداقة والمحبة والألفة مع غيرهم . وكأن رغبتهم هى تلك التى أعرب عنها الشاعر الرومانى بوفنيل بقوله « لا يحبون أحداً ، ولا يحبهم أحد » . يريدون أن يعيشوا فى عزلة كئيبة نكدة . وبين الناس من يتخذ هذا الوضع فلسفة فى

الحياة ، مثلهم مثل ذلك الاغريقي القديم ديوجينس الساخر المتهكم الذى عاش في برميل . ولما سأله الاسكندر الاكبر عن خدمة يؤديها له ، أجابه ساخراً : « نعم . أريد أن تبتعد عنى قليلا ، لكى لا تحجب عنى نور الشمس ! » .

وهذا يذكّرنى بقولة للنبى هوشع فى العهد القديم : « مثل حمار وحشى معتزل بنفسه » . ولعلّ هذا أبلغ وصف ينطبق على ذلك الانسان الذى يعيش وسط ضبابة كثيفة فى وحشة واعتزال . وما أظن ذلك الحمار الاعجم ، الذى لا يفهم ، سعيداً فى عزلته . وبالاولى يكون شقياً يائساً الانسان الذى يعيش لنفسه ومع نفسه .

وفى السفر المقدس آيات باهرات تومىء إلى الطريق الآخر الافضل فى الحياة ، وأعنى به طريق العشرة والتواد والإلفة والتعاون. وأبرز هذه الآيات قولة المسيح « تحب قريبك كنفسك » . والكلمة « محبة » منطوية على الوصيتين العظيمتين ، وهما محبة الله ومحبة الناس . والامر لا يفتقر إلى إيضاح، فأنا لن تجد أناساً يحبون الله، وفى الوقت نفسه يكره بعضهم بعضاً. وموقف أحدنا نحو الآخر هو بلاشك من جوهر الدين . فنحن حين نؤمن أن الله خلق جميع الناس ، وأنه يرعاهم ويحبهم كلهم على السواء ، لا يسعنا إلا تقوية أواصر الإلفة والتعاطف بيننا وبين زملائنا فى الإنسانية .

ومن أهم مظاهر هذا التعاطف المتبادل التسامح مع الآخرين ، وتقدير آرائهم ووجهات نظرهم ، وعدم احتكار الحق لعقولنا وأفكارنا وحدنا .

ومؤخراً قرأت رواية عن زواج غير موفق ، تخيل فيه الزوجان أن أحدهما يحب الآخر وعلى وفاق معه . وسرعان ما تبينا أنهما على خلاف فى الرأى دائم . وعلة الداء فى النزاع أن الزوج كان يحاول دائماً تغيير عادات زوجته وأخلاقها . كانت امرأة فاتنة مليحة طيبة من وجوه عدة ، ولكنها كانت تميل إلى الاهمال وعدم النظام ، وهو شغف بالترتيب والتنسيق . وبسبب كرهه لهذه العيوب فيها ، نسى محاسنها الأخرى ، كما كرهت هى فيه التزمت والتشدد

فى النظام والترتيب . فلكى تحب « القريب » فى الزواج أو أية علاقة أخرى من العلاقات الانسانية ، يجب أن تتسامح ، وأن نقبل الناس كما هم ، ونقدّر ما فيهم من حسنات ، ونشاطرهم وجهات نظرهم ، ونتعلم منهم بدلا من أن نحملهم قسراً على تغيير ما لا يروقنا فيهم .

وثمة مظهر آخر لهذا التعاطف المتبادل هو الإشفاق والمعونة . فعلى العظماء والأقوياء أن يتحملوا نصيبهم فى ضعف الانسانية وهزالها . ونحن إذا أدركنا حاجات المكافحين والمحرومين والساقطين ، ووضعنا أنفسنا محلهم برهة من الزمن ، لا يسعنا إلا الاشفاق عليهم ، ومدّ يد المعونة إليهم .

حقاً ان الوصية « تحب قريبك كنفسك » هى شريعة السماء !

قصة الخير في الإنسان

« ... لا اجرؤ على تقبيلها ، فانا نجسة فاسدة
من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وهى طاهرة نقية
كالزهرة اليانعة ، والطهر والنجاسة لا يأتلفان ، والخير
والشر لا يلتقيان » .

« أم »

« جلس الطبيب — يوماً مع صديق له فى مقهى من مقاهى باريس فى الهواء الطلق . وفجأة تميل عيناه إلى امرأة تشرب الخمر جالسة إلى المنضدة المجاورة ، وينهمك وإياها فى حديث طويل . وقد بُهت الصديق أن يرى طبيباً له مقامه وكرامته يتحدث علانية وأمام أعين الناس فى مقهى عام مع امرأة كانت تُعرف بأنها من أشر نساء باريس .

وإذ يرى الطبيب أمارات الدهشة على محيّا صديقه يلتفت إليه ويقول : سأروى لك قصتها : ذات مساء كنت خارجاً من مدرسة عدت فيها فتاة صغيرة فاتنة فى الخامسة عشرة من عمرها ، وإذا بهذه المرأة تعترض طريقى ، وتسألنى وهى وَجلة مذعورة عن حال الفتاة المريضة ، وتقول فى أنين وتنهد : أنا أمها وأريد أن أراها . ولم تكن المرأة قد رأت ابنتها منذ اثنتى عشرة سنة ، إلا عن بعد . ولكنها ظلت تنفق عليها من مالها والفتاة لا تعلم ذلك . كان ضنك الأم خليقاً بالرثاء والاشفاق . وبعد يومين ثبت لى أن الفتاة لن تبرأ من علتها ، وأنها لا محالة مائتة . فاندفعت الأم فى تلك الليلة واستخفت فى ثياب ممرضة ، ودخلت غرفت ابنتها المائتة . وهناك بقيت طول الليل إلى جانب السرير ،

يتقطع نياط قلبها ، وتخرج من أحشائها زفرات حارة وهي ترقب إبنتها في دور الاحتضار . ولما أشرفت على النهاية اقترحت عليها أن تقبل ابنتها قبلة الوداع. فقالت : لاأجرؤ على تقبيلها، فأنا نجسة فاسدة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وهي طاهرة نقية كالزهرة اليانعة . والطهر والنجاسة لايأتلفـــان ، والخير والشر لايلتقيان » .

قرأت هذه القصة لروائي فرنسي ذائع الصيت .

وقصة هذه الأم ليست قصة الشر في الانسان ، بل هي قصة الخير الدفين ، الخير المطمور بين لفائف النفس ، الذى لاتخرجه إلا لمسة الحكيم البارع ، وقدرة الفنان الماهر ، ومحبة النفس الخصيبة ...

وتلك كانت براعة المسيح وقدرته ومحبته . فهو الذى أخرج الخير الذى كان مطموراً في قلب مريم المجدلية ، وفي قلب زكا ، وفي قلب متى ، وغيرهم كثيرين .وهو مافتىء يفعل هذا عينه كل يوم . فحين نخطىء ، تستأثر ناحياته البارة النقية . ونعود نتحسس الطريق إلى المثل العليا التى حدنا عنها . وهو لن يسمح لأنفسنا أن تغرق في بالوعة الشر ، لأن روحه دائماً ناشطة فينا .

ويقولون إن الانسان فطر على الشر بغرائزه . والواقع أن الخير هو جزء من طبيعة الانسان التى خلقها الله ، ومن الكون الذى أبدعه . وكما أن هذا الكون يتألف من بروتونات وألكترونات وإشعاعات ، فهو يتألف أيضاً من عناصر الخير والصلاح .

وما استطاع الشر يوماً أن يصرع الحق والجمال والخير . ومراراً كثيرة حاول أن يفعل هذا . ولكن في ذروة انتصاره تبدّت أمام الأعين بداية خذلانه وانحساره. وما استطاع الشر يوما أن يضم صنائعه ويكتلها ويوحدها. هو يكتسح القلب البشرى أحياناً ، ويبسط جناحيه السوداوين على المجتمع أحياناً . ولكنه لم يقو مرة على أن يظفر بتعاون كامل من فرائسه وضحاياه ،

أو طاعة مطلقة من عبيده ومطاياه. وعاجلا أو آجلا تحين الساعة التي تضطرم فيها ذكريات الحرية والكرامة في النفوس ، فتهتاج وتتحرك ، فيفقد الشر صولته وشهوته ، ويعود الخير سيد الموقف كما كان ، وكما هو شأنه في الوجود.

والمشاهد في العالم أن الشر كثيراً ما يتخفى تحت ستار الخير . ويتخذ مظهر الضد ، لكي يتمكن من السيطرة على شئون البشر ولو إلى حين . وأكثر الأعمال المظلمة الظالمة في التاريخ قد جرت تحت ستار الخير . وتاريخنا الحديث حافل بالشواهد والأمثال . فالمظالم العالمية والحروب وأسباب الاستغلال والعنف والاستعباد — هذه كلها تجرى تحت مزاعم كاذبة مثل إنارة الشعوب الضعيفة وترقيتها . وليست هي في الواقع إلا رياء تمجه الأذواق السليمة والنفوس الحية . وقد قال أحدهم « الرياء هو الضريبة التي تدفعها الرذيلة للفضيلة » .

على أن المشكلة هي أن الخير كثيراً ما يُطمر تحت أطباق الشر . ولو قدّر لأحدهم أن يجذبه إلى السطح لكان ذلك خيراً للانسانية وأبقى . ولسنا نرى في حياة يسوع شيئاً أبعد أثراً من إيمانه الهادىء في الله ، وفي الانسان ، وفي قوة المحبة ، وفي المستقبل . وخدمته كلها تنبض بهذه الثقة الكاملة . وفي آخرها برزت هذه الثقة بأروع مظهر وأبرع تعبير . وحينما تكاثفت السحب وادلهمت الخطوب، قال « السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لايزول » . وإيمانه هو الذى انتشل تلاميذه من بالوعة اليأس . وهو الذى انتشلنا نحن أيضاً .

ونحن المسيحيين نرى في المسيح مثلنا الأعلى — نراه يخطو إلى ظلمات الجلجثة وقد هجره الناس حتى الأقربون منه . وصرخات أعدائه تدوى كالرعد . ثم في وسط هذه الضجة وهذا الظلام تتسمّع صدى صوت آخر — صوته هو — يردد ألحان الايمان والثقة المطلقة . لقد آمن أن قوات الشر ستولى الأدبار ، وأن الخير سيتوج أخيراً بالمجد والجلال . لقد آمن بقوة الحق والخير فأنقذنا بإيمانه وحياته .

ولقد أطلق عليه فى الانجيل الكريم لقب « رئيس إيماننا ». وانه لكذلك لأنه مهد الطريق بين الانسان وبين الله وعبّدها . فنستطيع نحن أن نسير فيها آمنين إلى الحياة الأفضل .

والرائد المقدام الذى يمهد الطريق ينقذ دائماً حياة زملائه وإخوانه . فالمخترع المبتكر قد أنقذ العالم من صنوف العناء والكد والكدح . وفتح الباب إلى حياة الرغد والرفاهية والهناء . والعالِم قد أخضع موارد الأرض وهيأها لخدمة الانسان وراحته ، والكيماوى قد حبس جراثيم الموت وقتلها ، والمستكشف قد أزاح الستار عن ثروة الارض ومفاتنها . ولأن هؤلاء جميعاً ثابروا واقتحموا المجهول ، استطعنا نحن أن نقفو خطاهم ونحيا .

والتاريخ حافل بالمعالم البارزة الدالة على أن الانسان كثيراً ما ضلّ طريقه إلى الله . وإلا فما معنى الذبائح البشرية التى كان يمارسها الانسان فى عهود البداوة . وما معنى العبادات والعقائد والأديان التى يعتصم بها الناس وهى منافية للحق والخير والجمال . . كل هذه تشهد بأن صيحة النفس البشرية نحو الله صافية واضحة النبرات ، ولكن الطريق المؤدى إلى الله ليس دائماً سيرا محدود المعالم . ولست أدرى أين نكون أو ماذا نكون لو لم يكن لنا « رئيس إيماننا » .

ولقد قال المسيح عن نفسه إنه « الطريق » . ومعنى هــــذا أن روحه قد اقتحمت المجهول ، وأنه مهد أمامنا العقبات وأزال العثرات . وما علينا إلا أن نسير فى هذا الطريق المحدود المعالم . إنه مهد الطريق إلى العالم الروحى . وفى وسعنا أن نتبعه حيث سار . ومَن سار على الدرب وصل .

ما هي العظمة ؟

« إن أقل الناس موهبة يستخدم قواه المحدودة ونفوذه الضئيل لخدمة الآخرين وإعانتهم ، لأعلى مرتبة وأجل قدراً فى نظر الله من أغزر الناس مواهب يستخدم قواه العظيمة لخدمة مصالحة الذاتية النفعية » .

ما أكثر ما ننسى أن العظمة فى الحياة مسئولية لا إمتياز ، وواجب لا حق . وهنا تحضرنى قولة مأثورة فى كتابنا المقدس « .. إن كنت شعباً عظيماً فاصعد إلى الوعر واقطع هناك » .

وهذا القول لسان حال هذا العصر فى كثير من نواحيه . فبين الأفراد والجماعات والهيئات مَن يود أن يُحسب عظيما ممتازاً فى المكانة أو الثروة أو الجاه دون أن يبذل بذلا من جانبه . وأن يرقى فى الحياة — لا على جهوده وتضحياته — بل على أكتاف الآخرين وآلامهم ؛ وان يحوز أرضاً على ان تمهد أيدى الغير أخاديدها وتروى أتلامها وتستنبت له ثمارها .

وليس هذا الشعور فى الحياة المادية وحسب ، بل فى الحياة الروحية أيضاً . فبين الناس من يرغب جداً الرغبة فى قداسة الحياة وجمالها وطهرها ، ولكنه يأبى أن يدفع ثمناً لذلك . يرغب فى الفوز بنصيب روحى كبير ، ولكنه لن يفكر فى الذهاب إلى الوعر ليشق لنفسه طريقاً بيديه ـ ولن تخطر بباله فكرة المصارعة مع نفسه ، والجهاد العنيف ضد تجاربه وصلب ذاته . إن الميراث

الروحى فى الحياة لن تفوز به إلا النفس المجاهدة التى تقطع فى الوعر . والإنتصار الأدبى لن يأتى إلا عن طريق الجهاد والعراك وإنكار النفس .

وإنك لترى فى هذا القول عظة بالغة أخرى . فالصداقة الحقة فى أحيان كثيرة تأبى أن تفعل لك ما تستطيعه أنت . فقد كان « يشوع » خليفة موسى من عشيرة يوسف . وربما كان فى قوله هذا ـ الذى أشرنا إليه ـ لبنى عشيرته شيء من الغلظة والشدة فى العبارة . ولكنه عرف أن خير خدمة يسديها لبنى قومه أن يطلقهم للعمل . وكان خيراً لهم وأبقى أن يأمرهم بالصعود للوعر والجبال وقطع الأحطاب وتمهيد الطرق بأيديهم ، من أن يهيء تحت إمرتهم مساحة واسعة من الأرض السهلة المعدة الصالحة للزراعة . كان خيراً لهم وأبقى أن يرسلهم لينتزعوا نصيبهم بقوة الدم والحديد من أن يبعث أمامهم جيشاً يغزو لهم الأرض ، ويقدمها لقمة سائغة سهلة الإبتلاع ، كما فعل أخلافهم فى هذه الأيام .

وليس الصديق الحق الوفى هو الذى يجعل الحياة سهلة أمامنا . إنما هو الذى يملأ القلب شجاعة وعزماً وقوة وإقداماً . وقد دلَّ الاختبار فى الحياة على أن أسباب التدليل والترفيه قد أفسدت آلافاً من الناس . فالآباء فى أحيان كثيرة ، مسوقين بعواطف الحنو والحب ، يؤذون حياة أولادهم بالافراط فى المعونة والتدليل ، والعمل على اجتنابهم المصارعات والمشقات، التى كان خيراً لهم أن يلاقوها ويكافحوها . والخطر الذى تتعرض له صداقتنا هو الافراط فى المعونة . فإنه متى جاء إلينا صديق نحبه ونعطف عليه ، وأحسسنا أنه فى صعوبة ما ، يدفعنا عامل الحب لأول وهلة أن نبادر إلى تهوين أمره وحل مشكلته . وقد كان أصلح له جداً أن نشير إلى طريق الحل ، فيتولى هو أمره بنفسه إذا استطاع سبيلا .

وإن الوالد الذى يعمل على إيقاظ القوى الكامنة فى ولده ليكسب ثروته بعمل يديه وعقله ، لأفضل جداً من الذى يخلّف لولده ثروة طائلة ينعم

فيها بغير عمل وجهد ، لأنه فى الحالة الأولى هذب قواه ، وشحذ عزيمته ، ودرب نفسه ، وعلمه الاعتماد على النفس ، وهيأ له كل العناصر التى تستكمل بها الرجولة ، أما فى الحالة الثانية فلم يخلّف له إلا حطاماً قد تبددها الأيدى المتراخية والنفس المتواكلة والعقل البليد . وهـــذه حقيقة ناصعة تؤيدها الحوادث اليومية فى حياتنا .

كتب أحد شعراء الفرنسيس قصيدة خيالية عن صديقين . أمسك أحدهما بقدح من البللور النقى كان قد ملأه ماء زلالا من نبع عميق فوق جبل عال . وكانت حرارة القيظ شديدة . فأعطى صديقه قليلا ليشرب ولكنه لم يرتو . عندئذ رمقه بنظرة قاسية وأمره أن يصعد إلى المرتقى الوعر . ويشق الطريق الصخرية إلى المياه المحتبسة فى بطن النبع العميق . فأطاع وهناك أروى غليله وأطفأ ظمأه المحرق .

أليس هذا هو المسلك عينه الذى يسلكه الله معنا . فهو لا يمهد أمامنا سبيل الحياة . ولا يحمل عنا أعباءها ومسئولياتها . لأن أحمال الحياة بركة من الله نفتقر إليها أشد افتقار . وليس من الرحمة بنا أن يحرمنا الله هذه البركة . والمحبة التى تلهم فى القلب قوة جديدة ، وتودع الذراع عضداً قوياً للقيام بواجبات الحياة القاسية ومسئولياتها الثقيلة ، لأحكم جداً من المحبة التى تحمل عنك الأعباء . وتطلقك حراً سائباً لا تلوى على شىء !

وربما يميل الانسان بطبيعته البشرية إلى تفضيل الطريقة الثانية لما تنطوى عليه من السهولة والليونة . ولكنها فى نهاية الأمر تضعف الحياة وتفقرها . وقصد الله أن يستنبت أفضل ما فينا من قوى وعناصر . فهو لا يشق لنا الأرض ولكنه يضع فى أيدينا الفأس والمحراث لنشق طبقاتها ، ونحفر بطونها ، ونستخرج ما فيها من كنوز دفينة . وبفضل هذا الكد والكدح يقوى عضلنا وتزداد قوتنا . .

وثمة عظة ثالثة فى هذا القول،وهى أن العظمة الحقة لا تظهر فى التماس

الأفضال والإمتيازات ، ولكن فى الأعمال النافعة المنتجة . فالقائد الحربى الذى يرغب فى تكريم أحب فصيلة لديه من فصائل جنده ، لا يضعها فى مكان سهل لاتقاء الخطر والتضحية ، ولكنه يحلها فى أشد المواقع خطراً وينيطها بالواجب الذى ينطوى على الشجاعة والاقدام ، فتحظى أخيراً بأوسمة الظفر وأكاليل الغار . وهكذا فى كل شؤون الحياة . فإن مكان الكرامة والمجد هو أشد الأماكن خطراً وأعظمها مسئولية وأثقلها واجباً .

وهذه أمثولة صريحة علمنا إياها المسيح عندما طلب إليه تلاميذه أن يحلهم فى أسمى المناصب ويضعهم فى مقاعد رفيعة إلى يمينه ويساره . ولكنه أجابهم جواباً حاسماً قائلا « هذا ليس لى أن أعطيه » . فحتى المسيح نفسه لا يعطى تلميذاً له ، رتبة أو مكانة فى ملكه . وإنما على التلميذ نفسه أن يسعى لنيل المكانة التى يبتغيها . وفى الحكومات الأرضية قد يحيد البشر عن جادة الحق والصواب بعوامل المحسوبية والمحاباة ، فيقذفون بأخصائهم ومريديهم إلى أعلى المناصب وهم ليسوا على شىء من الجدارة والأهلية ، ولا يفقهون فى تصاريف الأمور كثيراً ولا قليلا . وأما المناصب فى « ملك » السماء فتكتسب اكتساباً ولا تمنح منحاً .

وذهب المسيح فى أمثولته إلى أبعد من هذا المدى . فأعلن المبدأ الذى تكتسب به المناصب الرفيعة فى « الملك » الأعلى بقوله : « من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن خادماً . . . ومن أراد أن يكون فيكم أولا فليكن لكم عبداً » . وكأنه يقول إن المرتبة فى هذا الملك تتناسب مع الخدمة . فالذى يخدم الناس يحل بينهم فى أسمى مقام . وان الامتياز الوحيد الذى يتفاضل به أبناء البشر هو امتياز الخدمة واستخدام العظمة والقوة لفعل الخير بالآخرين .

وهذا حق عميق فى تطبيقه ، فإنه يكتسح من مخيلاتنا كل فكرة يُشتم منها أن الآخرين مدينون لنا بأفضال كثيرة . وينزع كل شعور يطوح بنا إلى

السعى لنيل كرامة أو تفوق على حساب الآخرين . إنه حق عميق يحمنلا على الاستهتار بالرتب والنياشين التى يخلعها البشر على بعضهم ، واحتقار التمسح فى الارستقراطية ، ودعوى التحدر من دم أصيل أو نسب عريق ، وغير ذلك من الدعاوى التى يلعب بها كثيرون فى هذا العصر أدواراً هزلية مضحكة .

وإن أقل الناس موهبة يستخدم قواه المحـــدودة ونفوذه الضئيل لخدمة الآخرين وإعانتهم ، لأعلى مرتبة وأجلّ قدراً فى نظر الله من أغزر الناس مواهب يستخدم قواه العظيمة لخدمة مصالحه الذاتية النفعية .

وليس ينكر أحد أن أكرم وأنبل حياة شهدها العالم هى حياة يسوع المسيح الذى لم يطلب كرامة من الناس ولم يطمع فى رتبة بين الكبراء . لم يقل إن مكانه الوضيع ودائرته المحصورة أضيق من أن تسع قواه العظيمة . ولكنه استخدم عظمته وجال يصنع خيراً ويغدق على العالم بركة . غسل أرجل البشر بتلك الأيدى الطاهرة التى كانت تتوق الملائكة أن تقبّلها . أخلى نفسه واتخذ مكانة العبد لينقذ الضالين والشاردين . كان أعظم بنى الانسان ، وكان أكثر بنى الانسان تواضعاً وخدمة .

هذا هو سرّ العظمة فى الحياة . فبدلا من أن نطالب برفعة المقام أوالامتياز أو الرتبة أو الثناء لما نحسّ به فى أنفسنا من مواهب أو حكمة و كرامة ، لنكرس كل هذه لخير العالم ومجد الله .

نظريات ثلاث لتطور الانسان

« . . . إن الانسانية لاتخبط خيط عشواء ، بل تسير فى طريق معروف . وأمامها مواعيد المستقبل ، وأهداف واضحة العالم » .

لعلنا لانبعد عن الصواب إذا قلنا إن هناك ثلاث نظريات لتطور الجنس البشرى وارتقائه . . .

أولها : النظرية العقلية التى يعتنقها أصحاب المذاهب العقلية المحض . وهى نظرية لا تقيم وزناً لله ، ولا تعتمد كثيراً على الإنسان . وعلى مقتضى هذه النظرية ، تسير حياة العالم فى غير وعى ، وعلى غير هدى ، يحالفها النحس وسوء الطالع ، ولا تهدف إلى شىء معين . ونحن البشر ضحايا القضاء الأعمى ، والآلهة العمياء التى يؤمنون بها لا تمتدح فضيلة ، ولا تؤنب على رذيلة ، ذلك لأنها آلهة غير روحية ، لاقيمة للأخلاق والآداب فى نظرها .

ولست أدرى كيف يقدر أن يعيش الناس فى ظلال عقيدة قاسية ، يائسة ، لا تطاق، كهذه العقيدة. ومع أن الأدلة الكثيرة تنهض على بطلانها وسخافتها فإن الطبيعة البشرية ذاتها لم تخلق لمثل هذه العقيدة ، كما لم يخلق الطائر الصداح فوق الافنان ليؤسر بين قضبان القفص . فإن الضمير الإنسانى ، والغرائز ، والميول ، كلها تتصايح ضد هذه النظرية . ذلك لأن النفس المخلصة لطبيعتها ، الخالصة من مغالطات العقلية العصرية وأضاليلها ، تتطلب إلهاً حياً ، صالحاً

كريماً ، مهما قست علينا مطالبه ، لأن الله هو مصدر وجودنا ، ويجب أن يبدأ تطورنا وارتقاؤنا به .

نظرية ثانية

والنظرية الثانية لا تعبأ كثيراً بالله . ولكنها تعتمد على الإنسان كلية وعلى مقتضى هذه النظرية ، يكون الإنسان سيّد مصيره . فالانسانية وحدها هي المكافحة ، وهي المناضلة ، وهي الهدف الذي يهدف إليه التاريخ في سيره وارتقائه . وليست ثمة قوة غير منظورة تخالفها أو تعينها في كفاحها . ويشتد ساعد هذه العقيدة ، كلما تفتحت ملكات الانسان عن قوى جبارة وكشوف رائعة هائلة .

ونحن لا ننكر أن الانسانية قد بلغت الذرى في ألوان البطولة والتضحية التي ارتفعت بها فوق مستوى الدنايا والسخافات ، ولا يسعنا إلا الاعجاب بهذه الثقة في غرائز القلب البشري ومقدرته على التطور والارتقاء . ولكن هـــذه النظرية مع ذلك تبدو ناقصة ، غامضة ، لا طعم لها ولا ذوق . ذلك لأننا ندور ونلف ، إذا تركنا لأنفسنا ، في فراغ أخلاقي أدبي . والتقدم ، والحياة ، والارتقاء ، هذه كلها تفقد معناها إذا سلبتها الوسط الذي تعيش فيه . .

أرأيت إلى طائر مغرّد يصدح عند الفجر فوق الأغصان بصوت رخيم عذب . خذ هذا الطائر إلى بيتك وضعه في عشّ ناعم ، واسمعه يغني ويغرّد . لعلّه يستمر في التغريد والشدو ، ولكن عذوبة الصوت تختلف ، ورنات الطرب تختفي . ذلك لأنك حرمته الماء والهواء والسماء ، ونزعته من الوسط الذي يحلو فيه الشدو والانشاد . وكذلك يفقد التطور في الحياة معناه بدون الوسط الذي نعمل فيه . وأنت إذا سلبت الانسانية هواءها وسماءها ، فإن نبراتها تخفت ، وتصير حزينة مكدة . وماء حياة الانسانية هو الله ، وسماء الانسانية هو الله . . .

نظرية ثالثة

أما النظرية الثالثة عن تطور جنسنا البشرى ، فهى العقيدة المسيحية ، التى تنادى بأن الله فى وسطنا ، وأن الحياة ليست مدا وجزرا لامعنى لها ، ولا عقل فيها ، بل أن الله يعرف الطريق الذى نسير فيه من بدايته إلى نهايته . وتقول النظرية المسيحية على لسان صاحبها : « . . . يدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها . ومتى أخرج خرافه الخاصة ، يذهب أمامها والخراف تتبعه » . وهذا قول ينطوى على أن الانسانية لاتتخبط خبط عشواء ، بل تسير فى طريق معروف ، وأمامها مواعيد المستقبل ، وأهداف واضحة المعالم .

وفى هذه الحالة نرانا أمام شرطين جوهريين للتقدم والارتقاء ، وهما القيادة الصحيحة ، والنفوذ القوى الجذاب .

إنها قيادة حكيمة صحيحة . لأن قائدنا الذى يدعونا ، فنتبعه ، هو المسيح. ونحن نعلم يقينا عن المسيح ، أن لاشىء فى الانسانية غريب عنه ، ولا يجهل شيئا فى طبيعتنا . فهو قد هبط إلى وسطنا البشرى ليكون الانسان الوحيد الذى يمتد عطفه وحبه إلى كل الأجيال ، ويتسع قلبه لكل أجناس البشر . هو الذى يتحدث بلغة عالم لايحده الزمن . ويوزع نسمات السماء على كل بشر . وليس فى التاريخ باعث لم يعرفه . وليس صرخة أليمة عبر حقب الزمن لم يسمعها . وليس خوف فى قلب إنسان لم يسبر غوره . وليس شهوة مهما اشتطت لم يفهمها . وليس جهل كامن فى النفس خفى عليه . لذلك نقول فى جرأة وحق ان التقدم البشرى لن يبدأ بداية صحيحة ، ولن يسير فى طريقة السوى ، إلا إذا تبع هذا القائد الذى يتسع قلبه لكل غرائز البشر ، والذى يقدر أن يرفع هذه الغرائز إلى السماء لتطهر وتصفو .

ونعلم أيضاً ان طريقة المسيح ، فى قيادته ، هى الطريقة الوحيدة التى تضمن النجاح والنصر . ويستخدم الناس طريقة الايحاء والاقناع والدعاية والتدخل أما طريقته فغير ذلك . هو « يذهب أمامها » . هو يسير فى المقدمة أمام أتباعه

ومر يديه فى طريق الحياة . وبعد قيامته بقليل ، أطلق عليه أحد أتباعه لقب « رئيس الحياة » ،رأس جماعة عظيمة من الأنفس الحية . هو دائما فى مقدمة الأجيال ، فإذا سما إنسان إلى ذروة التضحية فى ساعة من ساعات البسالة والأقدام ، فهو واجد يسوع فى تلك الذروة . وإذا أبى امرؤ أن تصرعه أحزان الحياة ، وسلّم أمره لله فى صبر عجيب ، فإنه واجد يسوع إلى جانبه . وإذا نهضت جماعة أو كنيسة للاشتراك فى آلام الآخرين وسدّ أعوازهم ، فإنها واجدة يسوع هناك .فى حفرة الهاوية يوقظ فى نفوس المتألمين والمحزونين والمنكوبين رجاء الحياة . ليست المسيحية دين دعاية ، ولكنها دين شخصية عجيبة . وهذه الشخصية هى التى تجذب إليها أجيال التاريخ .

ونعلم يقيناً أن فى سيره لا يعود أبداً الى الوراء . فهو دائماً فى المقدمة . وإن كان هو القائد فى طريق التقدم والارتقاء ،فإن الجملة تسير دائما إلى الأمام إلى النصر فى الختام . وفى كل عصر ، وفى كل جيل ، هو يتقدم كل نفس تعتصم بالحق ، والكرامة ، والشرف ،والسلام . هو يرافق الذين يدعون إلى اتحاد الانسانية ، وينفضّ عن أهل الخصام والانقسام . لذلك يرنو التقدم المسيحى دائماً إلى المستقبل ، إلى الغد المرموق .

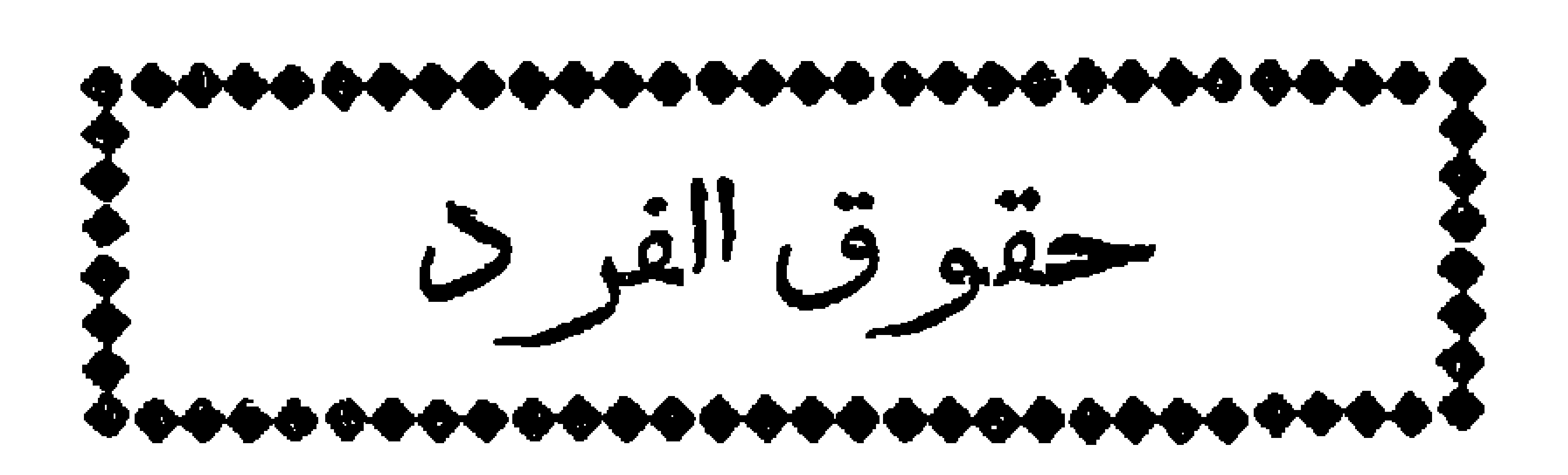
وللمسيح نفوذ قوى فى اجتذاب الناس إليه . ونحن فى عمانا وبلادتنا وعثارنا ، وبعيوننا المغبشة ، وقلوبنا الخائرة ، قد لا نقوى على السير فى طريق التقدم . ولكنه « يذهب أمامنا » . وحسبنا هذا . لأن نفوذنا دائماً يقوى ويتسع ، وترانا دائما سائرين وراءه ، فى غير عنف ولا إرهاق . لأن عبقريته الروحية ، وسحر جاذبيته ، تدفعاننا للسير وراءه .

على عتبة القبر

إنّنا لنرى على عتبة القبر ، يوم القيامة ، أثراً من هذا النفوذ العجيب — « دخل (بطرس) القبر » — « حينئذ دخل أيضاً التلميذ الآخر » . إن

واحداً إثر الآخر يتبعه فى الطريق . ونحن نقول إنه ينبغى أن يكون الكنيسة بشيروها ، ومعلموها ، وعلماؤها ، ومتصوفوها . ونحن على حق فى هذا . ولكن هذا كله لا يجدى ، إن كان لا يسير فى إثرهم رهط لا ينقطع من المسيحيين ، فى خطى ثابتة موزونة ، وراء القائد الأعظم الذى يسير فى المقدمة .

هذا هو التقدم الصحيح . هذا هو النصر الكامل . . .



حقوق الفرد

« ان فكرة الحياء المشتركة مما تعتز به المسيحية ، سواء فى الجماعة أو فى الأسرة أو فى المجموعة الدولية .

إن حقوق الفرد ، وقدسية الشخصية الانسانية ، والحرية الفردية ، من المبادىء المسلم بها فى الجماعات المتحضرة ، فلا قيام للحياة بدونها ، ولارقى للمجتمع إذ تعرض لها المتعنتون باذى . وقد جرب الناس فى الماضى أنظمة من الحكم المختلفة ، وقد يجربون فى المستقبل أوضاعاً أخرى غير التى عرفوها، ومع ذلك سيبقى حق الفرد قائماً — مهما اختلفت الأوضاع — فى اختيار نظام الحكم الذى يرضاه لنفسه ، ونظام الحكم الذى يخضع له .

على أن حقوق الفرد هذه يقابلها مظهر آخر فى الحياة ، هو الذى يسميه علماء الاجتماع والسياسة والقانون الدولى « الحياة فى الجماعة » . واليوم نشهد فى حياة الشعوب ، وفى حياة المجتمع الدولى ، نزعة جديدة تميل إلى الابتعاد عن الفردية التى ألفها الناس فى القرن الأخير .

وقد ظهرت هذه النزعة فى كثير من البلدان فى العصر الحديث . كما نشاهد مثلا فى الاشتراكية البريطانية التى تسير فى هدوء واتزان وتريث — شأن الانكليز عادة — فى تطوراتهم السياسية والاجتماعية التى تخلو من العنف والثورة . بل كما نشاهد فى جمهوريتنا العربية المتحدة فى نظامنا الديمقراطى الاشتراكى التعاونى .

والمبادىء المسيحية تعضد هذه النزعة الجديدة التي تميل إلى ترقية « روح الجماعة » . وقد عاش ربّ المسيحية وسيدها في وسط ديني بلغ فيه الفرد مكانته المعترف بها ففي اليهودية البدائية ـــ كسائر أديان المشرق ـــ كانت الأسرة أو القبيلة هي وحدة الحياة ، ولم يكن للفرد كيان مستقل أما في عصر المسيح فلم يكن الأمر كذلك ، ومن أشيق الدراسات في العهد القديم أن تتتبع تطور هذه الفكرة وارتقاءها من العصر الذي كان يقع فيه ذنب الرجل على « بنيه وبناته وثيرانه وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله » ، إلى العصر الذي وقف فيه حزقيال النبي يخطب في بقايا شعب فاتر مرتد فيقول : « النفس التي تخطىء هي تموت . الابن لايحمل من اثم الآب ، والآب لا يحمل من اثم الابن » . ولقد حاول المسيح أن يرفع مكانة الفرد ليقيم الموازنة في أمة كانت تشتط في الحياة المشتركة ، على حساب الفرد .

وقد أبدت الكنيسة المسيحية ذاتها في عصورها الأولى مثلا رائعاً لهذه الحياة المشتركة . فقد كانت الكنائس المحلية أشبه بواحات في بيداء الوثنية . وكانت جماعات قليلة مبعثرة في عالم غير مسيحي ، أبغضها اليهود ، واستبرابها الرومان ، واحتقرها اليونان فكانت الحياة المشتركة ضرورة لازمة لحفظ كيانها وتقوية جهودها .

وإذا كانت الحياة المشتركة ظاهرة حية في الحياة المسيحية ، حق لنا أن نجد في صفحات الانجيل الكريم مايلقى نوراً على هذا الموضوع الخطير الذي يشغل أذهان الجيل الحاضر

وإنا لواجدون هذا النور فيما قاله المسيح وفيما صنعه بين الناس .

فالمسيح ولد في أسرة بشرية ، وعاش الشطر الأكبر من حياته يشاطر القرويين في قريته حياتهم المشتركة .

ولا يليق بنا أن نحسب الثلاثين سنة التي قضاها قبل البدء في خدمته العامة كأنها مجرد تأهب للمهمة الخطيرة التي كانت نصب عينيه . أجل . كانت تلك

السنوات الطوال فترة استعداد ، ولكن كان القصد منها أيضاً أن يبين للملأ اهتمام الله الشديد بحياة الجماعة وحياة الأسرة .

وإذ يحين الموعد للبدء فى خدمته ، نراه يصطفى نفراً من صحابته سمّاهم فيما بعد رسلا . ويبذل من وقته وجهده لتدريبهم وترويضهم ، ويكوّن منهم فريقاً لحمل رسالته من بعده ، ويبث فيهم فكرة العمل المشترك والحياة المشتركة ، ويعهد إليهم بمهمة إنشاء أخوية جامعه شاملة من البشر .

وهذه الفكرة عينها تبدو فى موقفه أزاء الجماهير ، فما كانوا فى نظره غوغاء ، بل جموعاً من الرجال والنساء تربطهم حاجات مشتركة ، وتلح على قلبه مطالبهم المشتركة — « لما رأى الجموع تحنن عليهم » — ومن مظاهر خدمته تلك الروح الشعبية ، فان أكبر معجزاته صنعت لأجلهم ومعهم. ومن أجل مدينة جامعة سالت دموعه « يا أورشليم يا أورشليم . كم مرة أردت أن أجمع أولادك ... » . وحتى فى طريقه إلى الصليب لم ينس جموع الشعب . ومن أرق فعاله وأعمقها أثراً فى النفس ، ذلك العشاء العائلى الذى فرضه قبل موته ، وجعله شعاراً للحياة المشتركة بين جميع أتباعه . وما يزال حتى اليوم رمزاً للالفة والمودة والشركة . وأنك لترى اليوم الأغنياء والفقراء ، والبيض والسود ، وأصحاب المقام الرفيع والادنياء ، والامراء والفلاحين ، يجثون كلهم أمام المائدة كأفراد أسرة واحدة بلا تمييز ولا تفريق ، ويشتركون فى رغيف واحد وكأس واحدة . وهنا المظهر الحقيقى للشركة الانسانية مهما تفاوتت أقدار الناس ودرجاتهم .

وهذه الأمثلة تبرز لنا أهمية الحياة المشتركة فى نظر ربنا . ولئن يكن قد عرف للفرد كرامته وقدره فى نظر الله ، فانه بيّن للناس أن حياة الفرد لن تبلغ ذروة كمالها إلا فى مشاركة الآخرين والعيش معهم . أما الفكرة القائلة ان الله يعنى فقط بحياة الفرد ، وأن الحياة الفضلى هى التى تكون بين الانسان وربه فقط ، فهى فكرة خاطئة . والمسيحية الفردية ناقصة فى نظر المسيح .

على أن المسيح قد أبرز هذه الفكرة فى أقواله أيضاً ، لا أعماله فقط ،فهو الذى قال إن الإنسان لايعيش لنفسه . ولطالما تهجم على « الذاتية الفردية » وحمّل الناس تبعات العناية بالآخرين .

وقد كان موضوع رسالته من أول مرحلة « ملكوت الله » . وعنى بهذا الملكوت من أول خدمته إلى نهاية الأربعين يوماً التى قضاها على الأرض بعد قيامته . وما هذا الملكوت إلا مجتمع من الناس ، فيه يتسلط الله على الحياة الانسانية كلها .

والمرة تلو الأخرى رسم المسيح الفارق بين الله وبين الذات . وما الذات إلا الفردية التى تعيش فى عزلة عن باقى الناس ، وشعارها قولة قايين فى القديم « أحارس أنا لأخى » . وهذا مبدأ يصدق ، لافى حياة الأفراد فقط ، بل فى المعترك الدولى بين الشعوب . فما القومية الاقتصادية إلا وضع آخر للأنانية القومية التى كانت مبعث النظريات العنيفة فى أوربا وآسيا ، والتى أشعلت نيران الحروب . وكان المسيح على حق حين قال إن حياة الانسان ليست فى وفرة الأشياء التى يملكها ، ويصح القول أيضاً إن حياة الأمة لاتقوم على كثرة مالديها من مادة وعز وجاه وثروة .

على أننى أظن أن أهم خدمة أداها المسيح لفكرة الحياة المشتركة هى تأويله الجديد لمعنى « القريب » . فاليهود أحبوا « القريب » أى المواطن متى كان يهوذيا . وحينما تحدثوا المسيح ليشرح لهم معنى القريب والأخ فى الإنسانية ، تحدث عن « سامرى ».. والعلاقة بين السامريين واليهود كانت يومئذ أشبه بالعلاقة بين البيض والسود فى أفريقية الجنوبية اليوم . وألقى على أتباعه تبعة إيجابية للعناية بالخوارج والغرباء والأذلاء والمتألمين والمجرمين . وقال فى غير رياء ان رسالته شملت الفقراء والأسارى والعميان والمدوسين — أى العناصر التى يلفظها المجتمع عادة. وقال لسامعيه ، وكانوا من المتعصبين

للوطنية اليهودية — ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارق ليتكئوا فى حضن إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السماء ، وبذلك رفع عيونهم إلى فكرة أسمى عن الحياة المشتركة فى الجامعة الانسانية . حقاً لقد أعطى لكلمة « القريب » معنى لم ندركه حتى اليوم ! .

الأسرة

وثمة مثال آخر عن فكرة الحياة المشتركة فى تعليم ربنا . ففى قلب كل جماعة تقوم الأسرة وحدة مشتملة ولقد خلع على الحياة الزوجية قدسية لم يعهد لها البشر مثيلا من قبل ولا من بعد. ومن أفجع المآسى التى يعانيها البشر فى الأزمة الحاضرة — فى الشرق والغرب على السواء — ذلك الانحلال الرهيب فى الروابط الزوجية ، بيد أن أساس عظمة الأمة يبدأ قبل كل شىء فى الأسرة . ولن تظفر بحريتها كاملة أمة تسمح للاباحية وانحلال الروابط العائلية أن تمتص مواردها الحيوية ، وينبغى أن ندرك أن الطلاق من العوامل الهدامة فى بناء الحياة المشتركة فى الجماعة .

أجل ، وإن فكرة الحياة المشتركة مما تعتز به المسيحية ، سواء فى الجماعة أو فى الأسرة أوفى المجموعة الدولية ، ولا يمكن فى هذا العصر أن يعيش فرد أو أمة فى عزلة واكتفاء ذاتى. ولقد كان هذا ممكنا إلى حدما يوم كان العالم كوناً فسيحاً لاتحد مداه ، يوم كانت مجريات الأمور فيه بطيئة محكمة ،أما اليوم فالحال غير الحال ، لأن مخترعات الانسان قد قضت على بعد المسافات وطول الزمان . ونحن الآن محمولون فوق تيارات اقتصادية وسياسية عنيفة . وكل الذى نفعله ، كأفراد أو كشعوب ، يؤثر فى حياة غيرنا .

وفى ضوء هذه التعاليم والأمثلة ، تدعونا روح العصر الحديث إلى أن نعيد التفكير فى حياتنا المشتركة فى داخل الأمة . ولا شك أننا سنرضى عن طيبة خاطر قبول أى قيد يحد من حريتنا ومنافعنا الشخصية لخير الجماعة كلها ، وسنحمل معاً عبء الحياة بروح اشتراكية كريمة لخير الآخرين كأسرة

بشرية واحدة . فإننا إذا كنا أبناء لآب واحد فى السماء فلا يليق أن يتصرف أحدنا كأنه الابن الوحيد المدلل .

ونحن أمام تطور عجيب فى الحياة،فى الأمة الواحدة ، وفى العالم كله ، وأمام تبعات جسام اقتصادية وأدبية وروحية. وأكثر الناس تبعة هم المسيحيون الذين علمهم ربهم أن الحياة شركة تسمو فوق جميع الفوارق البشرية وتربطنا بعضنا ببعض روابط المحبة .

بهذا يعرف الناس أننا تلاميذه وصحابته .

الانسان ليس حرا !

« . . . إن الانسان هو وارث العصور المنصرمة .
وفضلا عن ميوله الموروثة وعقله الباطن ، قد تلقى عن أبيه وأمه منذ طفولته دروساً معينة، وتلقى علومه فى مدارس معينة ، وقرأ كتباً معينة ، ووقع نظره على مشاهد خاصة فى الوسط الذى عاش فيه . . . وكان لهذه العوامل كلها أثرها الفعال فى تكوين عقله . . . » .

أرأيت كيف تنبت البذور فى الأرض؟ يأخذها الزارع فى يده ويغرسها فى جوف الثرى، فلا تلبث بعد فترة من الزمن أن تشق لها منفذاً إلى العراء، وتخرج من مكمنها نبتة ، فشجيرة. وقد تصير دوحة وارفة الظلال .

وعلى هذا المثال عينه تنبت البذور الأدبية التى تستقر فى العقل البشرى . على هذا المثال تكبر تلك الأفكار الصغيرة — صالحة كانت أو شريرة — التى تغرس فى أدمغة البشر . وليكن حديثى الآن مقصوراً على فكرة واحدة من تلك الفكر ، التى تطورت وأينعت فى حياة البشرية — وهى الحرية .

ولم تكن الحرية فى بادىء عهدها إلا رغبة تجيش فى نفس العبد العانى للتخلص من سوط سيده ومولاه . . لم تكن إلا شوق سجين متألم يريد أن ينفض عنه الاغلال التى كبلته . . لم تكن إلا صرخة الغريب النائى يحن إلى وطنه وهو فى المنفى الأليم .

ولم تلبث هذه الفكرة الفطرية أن تطورات فى تاريخ البشرية حتى صارت

مطلباً سياسياً ، فنهضت الشعوب تنادي بالحرية والانطلاق من عسف ملوكهم واعنات حكامهم . ولم تكن تلك الشعوب تحت أسواط السادة والموالى ، ولا قعيدة الاصفاد والاغلال،ولا ذليلة تحت موطىء قدم الغريب الظالم . لم تكن هذه ولا تلك . لكنها نادت مطالبة بالحرية . الفكرة عينها التى ملأت من قبل قلب العبد والسجين والمنفى، مع الفارق فى معناها وعظمتها !

كان الإنسان فى عصر بداوته يطلب الحرية والافلات من عبودية أو سجن أو منفى . والآن يطلبها وهو حرٌّ فى نفسه وسيد بيته وحياته . الآن يطلب من ملوكه وحكامه أن يمنحوه حق الحرية فى اختيار شكل الحكومة التى يرضاها لنفسه ، وسن القوانين والأنظمة التى يرعى بها صوالحه ومنافعه . وفى هذا الطلب تحدّى الإنسان الملك بسلطته الزمنية ، والكاهن بسلطته الدينية ، والتقاليد الجامدة التى سار عليها . وكان الإنسان مدفوعاً إلى ذلك بشعوره بكرامته الأدبية . إذ كيف يحترم نفسه وحريته بينما يستطيع الملك أن يغير على أنظمة حياته ، ويقوى الكاهن على تقييد إيمانه ، وتجرؤ التقاليد على إيصاد منافذ كل معرفة جديدة أمام وجهه ؟

وهكذا نرى فكرة الحرية تنتقل من دور الفطرة إلى دور النماء . وبعد أن كانت صرخة طفل ساذج يحنُّ إلى بيته ، تصبح صرخة رجل ناضج يطالب بحقوقه . ويخيل إلينا لأول وهلة أن هذه الفكرة متى وصلت إلى هذا الطور تقف عند حد معين . وماذا يطلب الإنسان بعد أن ينال الحرية ليشترع قوانينه بنفسه ، ويضع أنظمته ، ويختار حكامه ، ويفكر ويعمل ويقول كيف شاء وما شاء .

غير أن كل فكرة كبيرة لاتصل إلى حد معين . وكلما بلغ العقل البشرى مرحلة فيها ، تفتحت أمامه منافذ أخرى للعمل والتفكير . وهذا ما نراه فى الكلمة العظيمة الجبارة « الحرية » . أليست هى خيالا ؟ أليست هى حلماً من أحلام الشعراء ؟ أليست هى كلمة طنانة جهورية يتلاعب بها زعماء الشعوب للتأثير على عقول العامة ؟

ولو تأملت معى — أيها القارىء الكريم — لتبين لك أن لا حرية كاملة في الحياة . فاذا جاز للسمكة السابحة فى وعاء من الماء أن تقول بانها حرة أن تسبح كيف تشاء ، جاز للانسان أن يقول إنه حرٌ يفكر ويعمل كيف يشاء ؟ أليس الإنسان خاضعاً لقيود جسده ، وقيود النظم الاجتماعية ، وطقس البلاد التى يعيش فيها ، وحدود هذه الأرض التى تقله ؟ أيستطيع أن يرتفع بأجنحة إلى المريخ ؟ أو أن يسير عارى البدن فى قر الشتاء ؟ هل يستطيع أن يتحدّى الشرطى أو مفتش الصحة مثلا ؟

إن شيئاً من هذا لا يفعله الانسان . ولكن قد تقول إنه حر يفكر كيف شاء ، ويقول مايريد،ويعطى صوته لمن يشاء . ولكن هل هذه حرية مطلقة؟ ألا تدرى أن هذا الإنسان هو وارث العصور المتصرمة . وفضلا عن ميوله الموروثة وعقله الباطن ، قد تلقى عن أبيه وأمه منذ طفولته دروساً معينة ، وتلقى علومه فى مدارس معينة ، وقرأ كتبا معينة ، ووقع نظره على مشاهد ومناظر خاصة فى الوسط الذى عاش فيه ، وكان لهذه العوامل كلها أثرها الفعال فى تكوين عقله الغض ، ودمغه بطوابع خاصة ، وهكذا يفكر ويعمل الانسان بمؤثرات وراثته ووسطه وثقافته ، وغير ذلك من العناصر المكونة لحياته .

ومع ذلك كله،هل يحق لنا القول إن الانسان ليس حراً ، وانه محتوم على كل شخص أن يفكر ويعمل على نمط خاص ؟ كلا . فهذا لا نعنيه ولا نرمى إليه. ولكن كما أنه لايوجد على هذه الأرض حق مطلق،ولا جمال مطلق، ولا صلاح مطلق ، كذلك لا توجد حرية مطلقة . والحق والجمال والصلاح والحرية لن تبلغ كمالها إلا فى سير الانسان مع الله وصلته به . وقد يكون لنا فى هذه الحياة حرية ولكنها محدودة ومقيدة . أما حريتنا معالله — الحرية الروحية — فلا تخضع لقيد ما .

ولنلق نظرة أخرى إلى شجرة الحرية هذه لنرى كيف تطورت وكبرت.

من بذرتها الأولى التى غرستها فى عقل العبد والسجين والأسير ، وكيف شملت الآن الحرية السياسية والاقتصادية ، حرية القول والعمل والفكر ،والاشتراك فى إدارة دفة الحكم وتقرير المصير . وقد أخذت أغصان هذه الشجرة تمتد وتتطاول حتى أدرك الناس أن الحرية فى الحقيقة كلمة مرادفة لضبط النفس . ما هى العبر التى يلقيها علينا تاريخ الشعوب والأمم العظمى ؟ ما هى عبرة العالم من الآلام والأوجاع التى تتمخض بها بعض البلدان الآن ؟ فى أحوال كثيرة عندما يثور شعب ما للمطالبة بحريته والانقضاض على قوى الاستبداد ، تعم الفوضى ويسود الاضطراب . وهكذا تصبح صرخة الحرية النبيلة صرخة نكراء من صوت الاباحية الهادمة،وتُداس مع شرائع الظالم المستبد شرائع الضمير الإنسانى أيضاً !

وكل تاريخ العالم السياسى سلسلة متصلة من المساعى والجهود لاحتياز السلطان والنفوذ . فهذا كان شأن الملوك ، وشأن الكهنة ، وشأن الهيئات النيابية فى هذا العصر . لأن الإنسانية تروم فى كل أطوارها قائداً يتولى زعامتها وإرشادها . وما ثلت عروش الملوك إلا بعد أن أثبتت التجارب أنهم قادة لايصلحون للارشاد . وما أغفل البشر الكهنة فى القرون الأولى والوسطى إلا بعد أن ضلوا هداية الإنسان واقتادوه إلى مسالك ضيقة لم يجد فيها منافذ لأفكاره المتطورة ، وما الهيئات النيابية والبرلمانات فى الآونة الحاضرة إلا تجربة من تجارب التاريخ البشرى ، وسينبذها الإنسان يوماً ما إذا لم تحسن هدايته وإرشاده .

والعامل الذى يعلق عليه العالم آماله الكبار هو إدراك الإنسان لمعنى الحرية الصحيح ، فالفرنسى مثلا يعتقد أن الحرية هى المساواة السياسية . ويزعم الانكليزى أنها الاستقلال الشخصى . ويحسبها العربى أو الهندى أنها التخلص من أى تدخل أجنبى فى بلاده . ولكن عنصراً ضرورياً يجب أن يتوفر فى الحرية لدى كل إنسان ، هو الشعور بالمسئولية

الأدبية أمام نفسه وامام الآخـــرين . وقبل أن يهنأ الفرد بنعيم الحرية ، عليه أولا أن يعترف بالناموس الأدبى فى حياته ويرعاه بأعماله .

وهكذا ترى فى نهاية الأمر أن الحرية معناها الخدمة ، ليس خدمة النفس والمال . ولا خدمة الوطن فحسب، بل خدمة الله. لأن فى خدمة النفس والمال عبودية كاملة مطلقة وفى خدمة الله حرية كاملة مطلقة. وكلما ازداد الإنسان فى خدمة خالقه وربه ، انطلقت مواهبه الروحية من مكامنها التى تميزه عن سائر الحيوانات .ولكن كلما أمعن فى خدمة المال ونفسه ، تقوت غرائزه الحيوانية وابتعد عن الله مصدر حياته. والتاريخ شاهد على ذلك ، فلم يكن فى أثينا رجل أوفر حرية من فيلسوفها سقراط ، ولم يكن فى رومية رجل أشد استعباداً لنفسه وغرائزه من امبراطورها نيرون !

ولو تصفحنا رسائل بولس الرسول طرقت آذاننا رنين هـذه الكلمة العظيمة الخالدة « الحرية » . وهو يستعملها بمعنى التخلص من مظالم الاطماع الحيوانية وأحابيل الشر والإثم .

« لأن الخليقة نفسها أيضاً تعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله» .

« ولكن أنظروا لئلا تصير (حريتكم) هذه معثرة للضعفاء » .

« فاثبتوا إذاً فى الحرية التى قد حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا أيضاً بنير عبودية » .

« حيث روح الرب هناك حرية » .

هذه هى الحرية الكاملة التى هيأها لنا المسيح ، ليست الحرية المطلقة التى لارابط لها . لأنه لن يمكن لأى إنسان أن يكون بلا سيد مسيطر عليه .ولن تسود الحرية الحقة إلا متى كان الله سيد النفس البشرية والقوة المسيطرة عليها.

ألديك مشكلة عقلية ؟!

« كيف يستوعب قلب الله ملايين الخلائق ،
التي لا تحصى من رجال ونساء الذين يسكنون على وجه
الأرض في فترة من الزمن ؟ ! كيف يعنى بهؤلاء جميعاً
وبأولئك أيضاً من ملايين وملايين البشر الذين ساروا
فى مواكب التاريخ المتلاحقة إلى العالم غير المنظور ؟ !

... ذات يوم جاء الصدوقيون - وهم طائفة من طوائف اليهودية القديمة - بمشكلة من مشاكلهم العقلية يجربون بها المسيح . وكان القوم لا يؤمنون بالقيامة فقالوا : « ما قولك فى أخوة كثار تزوجوا الواحد أثر الآخر بأرملة أخيهم الأكبر . وكل منهم بنى بها لنفسه فى دوره ، فلأيهم تكون الزوجة يوم القيامة » . تلك كانت فى نظرهم مشكلة يتعذر عليهم فيها الإيمان بالقيامة ، لما انطوت عليه من صعاب عملية فى تقرير لمن تكون الزوجة فى اليوم الأخير . ولكن المسيح سما بأفكارهم من الماديات المحسوسة إلى المعنويات الروحية . وأزاح عن عقولهم غشاء الغباء والجهل . وذلك لأنهم يقصون الله عن آفاق تفكيرهم ، ويرسمون صورة الحياة بدونه . قد نسى أولئك أن الله لا تحده أفكار البشر وخيالاتهم وتصوراتهم .

— « .... تضلون إذ لا تعرفون قوة الله » .

وللناس فى هذا العصر مشاكل عقلية كثيرة ، وكثيراً ما يضلون فى تعليلها وفهمها لأنهم لا يعرفون قوة الله ، ويقصونه عن تفكيرهم ...

ومرة استعرضت أمام عقلى المفكر أقوال المسيح عن قيمة الانسان فى نظر الله . قيمة كل إنسان فرد ، بل قيمة الطائر الصغير الرخيص الذى لا يسقط على الأرض (بدون إذن الله) . وقلت لنفسى :

ـــ كيف يستوعب قلب الله ملايين الخلائق ، الملايين التى لا تحصى من رجال ونساء الذين يسكنون على وجه الأرض فى فترة من الزمن . كيف يعنى بهؤلاء جميعاً ، وبأولئك أيضاً من ملايين وملايين البشر الذين ساروا فى مواكب التاريخ المتلاحقة إلى العالم غير المنظور . كيف يعنى الله بكل هؤلاء وأى مكان فى الوجود يسعهم .. ثم نظرت إلى نفسى وسط هذه الملايين التى لا تحصى ـــ مجرد ذرة من التراب تذريها الرياح ـــ وقلت : كيف يعنى الله بى شخصياً وســـط هذا العالم العجاج الصاخب الزاخر بأنفس لا يحصيها العد .

حسبت هذا مشكلة من المشاكل التى تحير العقل البشرى . ولكن المشكلة لم تلق ظلا من الشك على إيمانى ، وذلك لأنى تذكرت قولة المسيح :

« أنتم تضلون إذ لا تعرفون قوة الله » .

وما أكثر ما نبعد قوة الله عن تقديرنا وتفكيرنا فى شئون الحياة . إن الذى صنع الكواكب المعلقة فى الفضاء ، وأبدع الأزهار اليانعة على جوانب الطرق ـــ فنان حكيم قدير ، وفى محبته متسع لكل إنسان ولكل شىء . وهـــذا أمر يعلو فوق أفهامنا ، ولا تقدر مداركنا المحدودة على استقصائه .

وثمة طرق أخرى نضل فيها ، ونخطىء الهدف ، ونفشل فى سعينا لأننا ننسى قوة الله . خذ مثلا المشاكل التى تحير عقولنا حين نرى الشر يعتلى عرش المجد ويتسنم ذروة الكرامة ، بينما ينخفض الخير إلى هوة المهانة ومرتبة الاذلال ، حين نرى الأشرار يفلحون والأبرار يتألمون ويتعثرون . وكم من أخطاء اقترفها الناس لأنهم نسوا الله أو تناسوه فى غمرة التفكير والتقدير ؟

والتاريخ حافل بمثل هـــذه المآسى : لقد أخطأ فرعون يوم عامل موسى باستهتار واستخفاف وأبى الخضوع لقوة الله . وأخطأ بيلاطس يوم أمر بصلب المسيح وكبت ضميره ، ولعله أحس أن رومية فى خطر ، فلم يجسر على المغامرة وآثر أن يخفى حيرته العقلية بالتحدث عن قوته وعظمته وسلطانه ، فأومأ إليه المسيح أن القوة هى قوة الله ، وأنه لا يليق بانسان أن يستهين بهذه القوة أو يستهتر بها . ولكن بيلاطس تخيل أنه يؤدى واجباً وطنياً ولم يعرف قوة الله الحقة ، ولم يدر أن فى ذلك النجار الجليلى الماثل أمامه قوة ستحطم بعد قليل أمجاد الامبراطورية الرومانية . . .

ونحن حين ننظر إلى شرور العالم وأعمال القسوة والوحشية التى يأتيها ناس ، تتمرد أنفسنا فى داخلنا ويغشانا شيء من الشك والحيرة ، ونسأل نفسنا قائلين : أليس فى الكون عدل ولا حق ؟ أيكون لهؤلاء الذين تألموا فى سبيل الحرية والإنسانية عوض فى حياة أخرى ؟ ليس فى قدرتنا ولا فى طوقنا أن نجرى العدل . وحين نقرأ عن الفظائع الرهيبة التى يقترفها الناس فى رقاع كثيرة من العالم ، وحين نسمع عن الآلام المبرحة التى يعانيها اللاجئون العرب الذين شردوا من أوطانهم فى جوع وعرى وحرمان ، وغيرهم من اللاجئين فى أفريقية وآسيا . . . نسائل أنفسنا قائلين : أين العدل والانصاف ؟ أيكون لهؤلاء الضحايا المتألمين نصيب فى عدل الله المطلق ، وفى عدل البشر النسبى . إن عقولنا تحار فى هـــذه المشاكل ، ويتولانا القنوط والاخفاق ، ولكننا كثيراً ما نقصى الله عن تفكيرنا ونبعده عن تقديرنا .

أرأيت كيف نظر المسيح إلى ضحايا القسوة ، وفرائس الشر فى العالم ؟ إن قصة السامرى الصالح صورة رسمتها أنامل قلبه بريشة الحنان والرق والعطف ، بكل قوة الله من ورائها ، وفيها لنا رجاء جديد لأننا نضل حين نبعد قوة الله .

أو خذ مثلا ما يقوله الناس عن هيئة الأمم المتحدة ومشكلة السلام ، فإن كثيرين يقولون إن هذه المؤسسة العالمية قد ُمنيت بخيبة ذريعة فى النهوض بما ألقى عليها من مهام ، وما عقد عليها من آمال . فالفرقة ما زالت قائمة بين الشرق والغرب وأن تكن قد خففت حدتها . والحرب ما زالت دائرة فى بعض رقاع العالم . وأعمال العنف والثورة ناشطة فى كثير من البلدان . إن الأدلة متوافرة على أن الأمل فى اتحاد دولى سراب خلاب ، وذلك لأن فى القلب البشرى عناصر شريرة تحطم أفضل النظم وأنفع المشروعات . . .

هذا ما نقوله ـ وهو قول لا يخلو من الحق . ولكن دائماً ننسى قوة الله ، وننسى أن هذه المؤسسة قد أنجزت أعمالا كثيرة خافية عن الناس فى ميادين الاقتصاد والاجتماع والصحة العامة وحقوق الانسان .

ولعل مصدر ما يخامرنا من ريبة فى مستقبل هذه الهيئة هو اخفاقنا فى إدراك قوة الله التى تصنع المستحيل متى خلصت نوايا البشر : « أنتم تضلون إذ لا تعرفون قوة الله » .

وكثيراً ما نخطىء بأغفالنا قوة الله حينما نواجه مسئولياتنا ونضطلع بأعمالنا . وقد نقف أمام واجب ثقيل متهيبين ، ونشعر أنه تنقصنا القوة الكافية على القيام به ونخشى الصعاب التى نراها أمامنا ، فنهرب ونتخلى عن الواجب ونصم آذاننا عن تلبية نداء الله ، ونلوذ بالأمن والراحة والدعة وحياة الإستكانة . . . كل هذا لأننا نقصى قوة الله عند تقديرنا للأشياء .

فى أوائل القرن التاسع عشر فكر الاسكافى (وليم كارى) ، أول مرسل إلى بلاد الهند ، أن يقتحم العالم الوثنى ، فسخر منه الناس وهزأ به بنو قومه . وهو بلاشك قد وزن الصعاب الماثلة أمامه ـــ صعوبة اللغات المعقدة ، والطقس الذى لا يلائم الغرباء ، وعداء القبائل الغارقة فى الوثنية الخ ... وكان يخطىء أشنع الخطأ لو أنه رفض تلبية النداء ، وتقاعس عن المغامرة

والجهاد ، ولكنه عرف قوة الله ، وقال للساخرين : « انتظروا من الله عظائم الأشياء ، وحاولوا فى سبيل الله أعظم الجهود » .

ولهذا السبب عينه — الاخفاق فى تقدير قوة الله — يفشل كثيرون منا حتى فى أعمالهم العادية اليومية . والحياة المسيحية تكون بلا طعم ولا لون إذا تجردت من قوة الله . ولقد قال المسيح إن صغار الناس أمثالنا يقدرون أن ينقلوا الجبال بقوة الإيمان فى الله .

ولكن كيف نعرف هذه القوة ؟ ليست ثمة إلا طريق واحد لمعرفتها . هى الطريق عينها التى نعرف بها أية قوة أخرى — الإيمان التجريبى !

يبدو الإيمان كأنه يضع قدمه فوق فراغ خاو ، ولكنه يجد تحته صخرة راسخة .

وتلك الصخرة هى الله !


أحاديث أخلاقية وأجتماعية

حياتنا رحلة

« طوبى لأناس . . عابرين فى وادى البكاء يصيرونه ينبوعاً . وفى ظلمة الطريق يرفعون بأيديهم علماً من نور، ومن نار ! »

فى استهلال كل عام نقتطع عاماً من الزمن اللانهائى غير المحدود ، ونقتطع عاماً آخر من حقبة العمر المحدودة القصيرة . حياة واحدة نحياها ومتى انصرم حبلها لن تعود . مصباح متوهج يشتعل ، ومتى نفد زيته انطفأ نوره .

وهذه الحياة القصيرة ليست عاطلة عن المعنى ولا عارية من الحق والجمال . وقد كان عند قدماء الاغريق سباق يركض فيه حاملو المشاعل ، فينتقل المشعل من يد إلى أخرى إلى نهاية الميدان . وربما كانت حياتنا أشبه بهذا السباق . فكلٌّ منا يحمل مشعلا من نور ، قد يكون منيراً وهاجاً ، وقد يكون خافتاً ضئيلا ، يحمله فترة من الزمن ثم يسلّمه إلى غيره من بعده . فليست حياتنا حلقات مفقودة متباعدة . بل هى سلسلة متواصـــلة محكمة الحلقات يصيغها الأوائل والأواخر ، ويشدُّ ربطها الاسلاف والأخلاف .

حياتنا رحلة قد تكون شاقة أو لينة ، موحشة أو مؤنسة، بحسب الظروف التى تحيط بنا أو العوامل التى فى أيدينا ، نسير تارة على انفراد ، وأخرى فى جماعة. نسير تارة فى سهل منبطح لين التربة ، وأخرى فى منطقة جبلية وعرة تكثر فيها الحفائر والطرق المضللة . . . . وهذه الرحلة قد تنقطع سريعاً ، إذا نفد

زيت المصباح وشيكا . ولكن عاجلا أو آجلا يجوز كل منا عبر نهر الظلام إلى الضفة الأخرى ، إلى العالم المجهول الذى لايعود منه ، من يذهب إليه ..

ومتى تخطى المرء دور الشباب وبلغ الرجولة أو الكهولة أو الشيخوخة ، لايسعه إلا أن ينظر فى مستهل كل عام الى الوراء ، الى المرحلة التى قطعها وقد نسى كثيراً من معالمها . ومع ذلك يختزن فى ذاكرته تلك المشاهد التى تبدو له أحياناً قائمة أشبه بقمم الجبال المتطاولة وسط الضباب الكثيف . وقد يشعر قوم أنهم لم يضيعوا حياتهم هباء منثوراً ، ولا أسرفوا فى استهلاكها والعبث بها ،وربما يكونون قد خدموا الله والوطن بحسب دعوتهم ومكانتهم. ولكن مهما يكن الحال ، فإن هناك أشياء لا حصر لها يذكرها كل منا فى ندم وخجل . أليس مما يؤذى النفس الرقيقة أن تستذكر تعدياتها ضد ناموس المحبة على الأقل — فى إهمال ، أو سوء تفاهم ، أو نكران الجميل ، أو حدة الطبع ، أو موقف الخشونة والعداء ، أو توان فى فعل الخير . . .

والآن وقد تصرمت من أعمارنا أعوام وما يزال فى القوس منزع ، وفى المصباح بقية من زيت ، فما أحلى أن نسمع نشيد المرنم القديم « طوبى لأناس عابرين فى وادى البكاء يصيرونه ينبوعاً » . ومن ذا الذى لم تدمع عينه فى مرحلة الحياة ، ولاخبر شيئاًمن وحشةالطريق ، ولوعة الأسى ، ومر الفراق؟ من ذا الذى صفت كل أيامه ولم يشبها الكدر مراراً ؟!

هين جداً على المرء أن يبتسم متى افتر له ثغرالحياة بالابتسامة ،وأن يغتبط متى لانت طريقه ، وشدت الاطيار أناشيد الطرب ، وأينعت الازاهير متعة للعين . لكن هناك أيضاً اختبارات أخرى لا قبل لنا على دفعها — أياماً قاتمة حالكة ، سبلا معوجة ثقيلة ، بقاعاً جرداء قاحلة ، حيث لا يزدهر زهر ، ولا يغرد طير .

ومعنى الحياة ، وسر الحياة ، أن نعرف كيف نسيطر على الموقف إذا

حلت بنا تلك الأوقات الحرجة التى لامناص منها فى كيان كل إنسان . وان تملك ناصية نفوسنا إذا هبطت بنا أقدامنا فى مسالك وعرة موحشة . . . وطوبى لإنسان يعبر فى وادى الجفاف فيحتفر بيديه بئراً مروية . ويجوز منطقة الخطر ، فيستلهم منها وحياً وهدى .

ولتحقيق هذا لابد لنا من النظر الروحى الثاقب الذى يوغل إلى لباب الأشياء . وليست الحياة متعة جسدية ، ولا سبيلا إلى السعادة والغبطة ، أو ميداناً لاحراز أكبر قسط من حطام المادة فى صراع أنانى قتال . ليست الحياة شيئاً من هذا ، لأن هناك اختبارات أرقى وأسمى لا تمت إلى هذه بصلة من القربى . . .

قيل ان عاهلا من ملوك الأقدمين أصيب يوماً بمرض شديد الوطأة . ورغم جهود الأطباء لم تبد عليه دلائل التحسن . فجىء إليه بأحد السحرة المشعوذين ليرى فيه رأيه . وبعد التمتمة المألوفة قال هذا . « لم يبق بعد إلا علاج واحد ، وهو أن يلبس الملك قميص أسعد رجل فى مملكته كلها » .

وبدأ رجال الدولة فى البحث والتنقيب وجعلوا هدفهم قبـــل كل شىء الأماكن التى يحتمل أن يجدوا فيها السعداء والمغبوطين....ذهبوا إلىالقصور المشيدة ، والبيوتات العريقة المسيدة ، حيث تدخر الثروة والجاه والكرامة . ولشد ما كانت خيبتهم إذ رأوا وراء هذه المظاهر الخارجية من السلام المقيم والنعيم الدائم ــ قلقاً واضطراباً ، رأنيناً وشكوى .

وتقدم عمال الملك فى البحث والسعى بين الطبقات المتوسطة . وهنا أيضاً ألفوا المظاهر الخداعة كاذبة ، لأن حياة هؤلاء كفاح مستحر وعناء مستمر للاستزادة من كسب المال .

تولاهم اليأس عندئذ ولم يدروا ماذا يفعلون . وإنهم لكذلك وإذا بهم

يلتقون فى طريقهم بشحاذ فقير يستجدى . ومع فقره يشع من وجهه بريق لامع . فظنوه أسعد رجل فى المملكة وتقدموا اليه وسألوه عن قميصه . عندئذ انفجر الرجل فى قهقهة عالية وقال . ـ « لله دركم ! لست امتلك من حطام الدنيا قميصاً ! ! » .

ونحن نميل إلى الظن أن الفوز بالمطامع ، أو الحصول على الملذات ، أو بلوغ المآرب والمنى ـ سر السعادة ومصدر الغبطة. وهذا وهم باطل، وغرور كاذب . كثيرون يفوزون بما يشتهون ، ولكنهم يدفعون الثمن باهظاً «أعطاهم سؤلهم وأرسل هزالا فى أنفسهم » ، كما قيل قديماً عن أحد الشعوب .

إن للحياة معنى آخر غير الظروف التى تلابسها . ان للحياة سراً دفيناً غير المظاهر الكاذبة التى تبدو عليها .

ويقول علماء الجغرافيا ان تربة المناطق المتجمدة التى يكسوها الجليد والصقيع لاتختلف كثيراً فى طبيعتها عن المناطق الخصيبة . انما الفارق الوحيد هو ضوء الشمس وحرارتها . ولو توافر لدى تلك المناطق الجليدية شىء من الدفء والحرارة ، لتبدلت من حال الى حال .

وهذا عين الأمر فى حياتنا واختباراتنا . فليست الظواهر أو الظروف شيئاً . انما الجوهر هو حقيقة النفس ومعدنها . وفى كل نفس مهما تجردت من خيرات المادة ينابيع خفية ، وبذور حية دفينة، فتستطيع أن تستنبت الازاهير اليانعة والزروع الخضراء متى توافر لديها حرارة الإيمان وأشعة المحبة . .

ولكن لن يفوز إنسان بشىء من هذا إلا بعد نزاع عقلى ، وجهاد روحى. ولم تحظ النفوس الباسلة بالغلبة فى الحياة وامتلاك ناصية الظروف إلا عن هذا الطريق ـ الجهاد والكفاح فى ميدان العقل والروح . .

أرأيت الى القطة كيف تحمل صغارها ؟ هى تمسكها بفمها وتنقلها من مكان

إلى آخر دونِ أن يبذل الصغار أى مجهود . تقف موقفاً سلبياً بحتاً!

ثم أرأيت إلى القردة كيف تحمل صغارها من غصن إلى آخر وشجرة إلى أخرى ؟ تتشبث الصغار بظهر الأم ، وتقفز هذه هنا وهناك ،وأصابع الصغار عالقة مستمسكة بها ، وهى هنا تقف موقفاً إيجابياً ، تعمل وتجاهد كأن حياتها بين أيديها .

فالغلبة على ظروفنا لن تتأتى إلا بالجهاد والكفاح ، وجفاف الحياة وصحراواتها الجرداء لن ترتوى إلا بالينابيع التى تحتفرها أيدينا .

وإلا فلماذا ترى فى العمل الواحد شخصاً يؤدى واجبه بابتسامة على ثغره وأنشودة على لسانه ، وآخر قد ثقلت نفسه وعبس وجهه إلى حد التمرد والعصيان ؟ ! .

وإلا فلماذا ترى بيتاً ترفرف على ربوعه أجنحة السلام والفرح والسعادة، وإلى جانبه بيت آخر قد أرخى عليه الظلام سدوله ، فساده النكد والشحناء والقسوة ؟

إن الأمر بأيدينا لا بيد الظروف والأحداث ! فى مصنع كبير ، وفى زاوية قصية فى ذلك المصنع ، وقف عامل يدير بيديه آلة طيلة يومه ، فهو بحسب الظاهر يؤدى عملا مملا تزهده النفس ، وتمقته الحياة الميالة إلى التنوع والتجديد. ولكن إذ تقترب إليه تلمح على وجهه إشراقاً وبشراً . وتسأله عن سبب غبطته فيشير إلى إطار أمامه به ثلاث صور صغيرة ، فى احداها صورة زوجته الشابة، وفى الثانية صورة أطفاله الثلاثة،وفى الثالثة كوخه الصغير الذى يأوى إليه فى الليل .

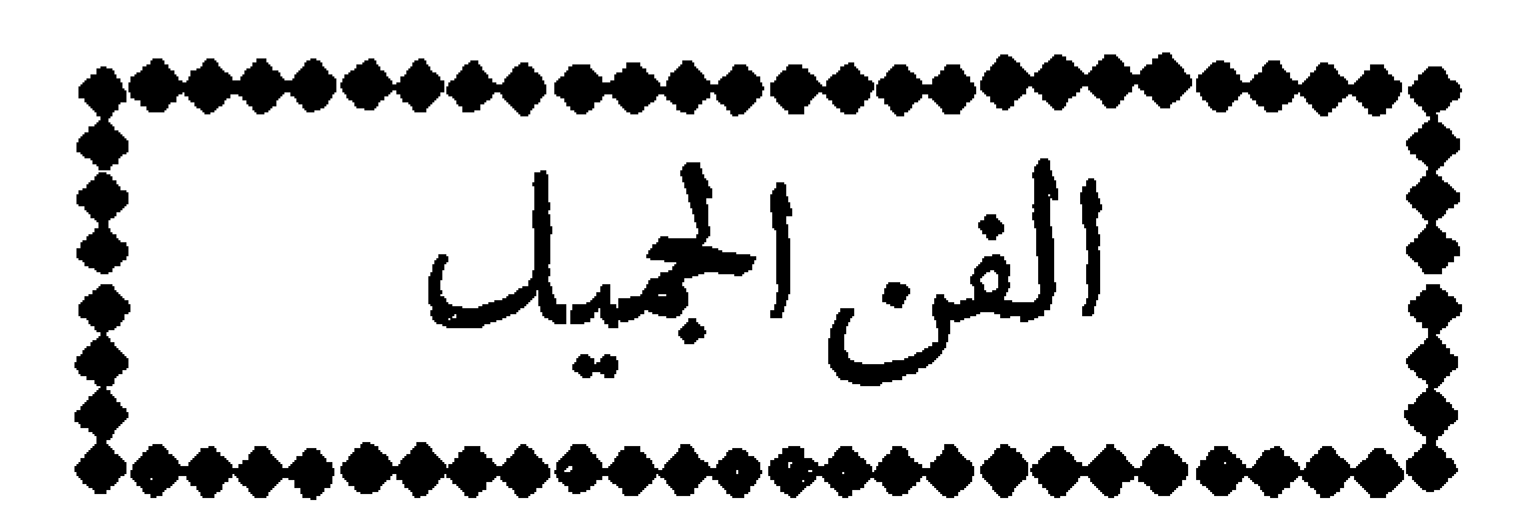
إن هذا العامل الفقير المكدود ليس عبداً لصاحب المصنع ، ولا أجيراً يقوم بعمله مرغماً مضطراً . إنما هو زوج وأب يصطنع السعادة لأسرة سعيدة فى بيت حقير . ها هو قد تغلب على ظروفه القاهرة بعمل التضحية والمحبة ، ها هو قد احتفر بيديه ينبوع السعادة فاستحالت نقمته نعمة ، وفقره غنى ، وكوخه قصراً ، وجحيمه فردوسا .

وبعد ألم يكن هـذا سر غلبة المسيح ـــ سيّد البشرية ومثالها الكامل ؟ جال فى بلاد تنسم فى أرجائها رياح العناء ، والخيبة ، والكراهية ، والعداء ، والوحشة . وختم هذا المطاف بدم الجلجثة . ولكن ألم يحتفر بئراً الماء الحى فى كل رقعة وطأتها أقدامه ؟

ههنا فى نظرنا نحن المسيحيين عظة الحياة ومعناها وسرها ـــ أن نجابه الحياة كما هى ، بمرتفعاتها ومنخفضاتها ، لا نهاب ضراً ولا نخشى شراً . بل يفعل خيراً متى عزّ الخير ، ونقيم نورا حيث ساد الظلام .

وفى العالم اليوم كثيرون من المتشائمين ينعون كل شيء فى الحياة وينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . ولكن أحلك ساعة فى الليل هى التى يعقبها نور الفجر . وهذا الوادى الذى نجوزه فى جفاف روحى شامل هو المكان الذى تتفجر منه ينابيع المياه . وفى هذه الحياة مجال للحب اللينّ العطوف ، والموت القاسى الغضوب . مجال للرعد القاصف والندى الهادىء . مجال للغمام الأسود الكثيف ، والصحو المشرق اللطيف ـــ ولكن أليس لكل حالة ضرها ونفعها ؟ ان كل خطوة نخطوها فى الحياة ـــ حتى الخطى فى المسالك الضيقة والطرقات العمياء المســـدودة ـــ تحمل أقدامنا أخيراً إلى الطريق السلطانى ـــ طريق الله !

وطوبى لأناس . . . عابرين فى وادى الجفاف يصيرونه ينبوعاً ! وفى ظلمة الطريق يرفعون بأيديهم علماً من نور ، ومن نار !



الفن الجميل

« . . . شتان بين العلم والفن . فالعلم ثابت على الدهر يقوم على حقائق ونظريات . أما الفن فهو متصل بالمزاج والعاطفة وهو أبداً فى تطور مستمر » .

طوبى للشاعر الموهوب الذى يصيغ من الألفاظ المجردة ، المعانى الروحية العميقة ، التى تهز أوتار القلب وتذكى كامن العواطف .

طوبى للمثّال الذى يمسك باليد الواحدة أزميله ، وباليد الأخرى قطعة من الحجر الغشيم البارد ، وينفض غبارها ، ويعالج نتوءآتها البارزة ، ويخرجها شكلا يكاد يكون ناطقاً ، يبكيه إذا أراد ، ويضحكه إذا شاء .

طوبى للرسام الذى يسجل على لوحته خلجات النفس الجميلة ، وخواطرها الأصيلة ، وأوضاع الحياة فى جدتها وجمالها .

طوبى للموسيقىّ الذى تداعب أنامله قيثارته ، فتنقل إلى المسامع أصواتاً ناطقة بالجمال المعنوى ، يوزعه فى الفضاء فينساب إلى كوامن الحس ، ويلامس أوتار النفس .

إن الشاعر بقوة بيانه وسحر جلاله ، والمثال بدقة يده وإلهام وجدانه ، والرسام بقوة تصوره وروائع خياله ، والموسيقىّ فى مداعبته النفس براخيم ألحانه — إن هؤلاء جميعاً يخلقون الفن ويتذوقون الجمال ، ويلعبون بالأهواء والأعصاب ، كما يلعب المرتاض بكرة القدم .

والفن الجميل فى كل أوضاعه وأشكاله ومعانيه يتصل بصميم الحياة واب

الحياة ، فهو يجلو النفوس ويذيبها ويصقلها ، هو جزء من حياتنا لا غنى لنا عنه. وما أجف الحياة وأكثر ملالها التي لا تعرف كيف تقدّر الفن ، وتستعذبه وتتأثر به .

والحق أن ذوقنا الشرقي يفتقر إلى شيء الكثير من الترويض والصقل من هذه الناحية ، فنحن نطرب لدويّ الطبول وضوضاء الأصوات المزعجة في الموسيقى ، ولا نخشع ونتهيب أمام النغمات الخثيثة والأصوات اللينة الحنونة . ونحن تروق لنا الألوان الفاقعة الزاهية ولا نميل إلى الألوان الهادئة الخفيفة . وليس في بيوتنا وغرفنا فنّ جميل من حيث انتقاء الصور وأوضاعها وموضوعاتها .

ولعل الطامة الكبرى أننا نخضع في تقدير الفنون الجميلة — شأننا في كل الأشياء — إلى العرف والتقاليد . فلا تجديد ولا ابتكار ولا تطور مع روح العصر ومقتضيات الزمن . بيوتنا عادية لا جمال فيها ، ولا روعة لها . وشخصياتنا جرداء لا خصب ولا نماء .

تقام بين ظهرانينا المعارض التي تحوي بين جنباتها مجهودات كثيرين من غواة ومحترفي الفن ، وبينهم عدد وافر من الناشئين . والاقبال على مثل هذه المعارض هو مقياس رقي ذوق الأمة ودليل ثقافتها ورقة شعورها . ولكن إعراض الناس عن هـــذه المعارض دليل ناطق على أننا ما برحنا في أول الطريق من حيث تقديرنا للفن الجميل .

ونحن الآن نأخذ بأسباب العلم ، ولكن شتان بين العلم والفن، فالعلم ثابت على الدهر يقوم على حقائق ونظريات . أما الفن فهو متصل بالمزاج والعاطفة وهو أبداً في تطور مستمر ، العلم ينظر إلى عالم واحد في جوهره ونظامه ، أما الفن فهو ينظر إلى عوالم كثيرة تختلف من حيث أحاسيس النفس وخلجاتها .

وفرق بين الآلة الفتوغرافية التى تنقل شكل الجالس وأوضاعه وملامحه ، وبين لوحة الرسام التى تحاول الافصاح عن أخلاق الشخص ونظراته بواسطة المظاهر الخارجية المنظورة .

فالفن الجميل يحدثنا أن وراء الظواهر الخارجية المنظورة المسموعة — حقائق عميقة روحية داخلية . وهو من هذه الناحية يصطنع الجمال المعنوى ويخلقه فى عالم جميل . والحقيقة الناصعة هى أن العالم حافل بأسباب الجمال الفنى والطبيعى ، التى تتصل بصميم حياته ومعناها وأغراضها ، فهل عبثاً وضع الله تحت أمرتنا فن الشاعر والرسام والموسيقى فى تصوير مظاهر الطبيعة الجميلة ، وأحاسيس النفس العميقة ، وأوضاع الحياة المتناسقة ؟ أحقاً ليست هذه كلها من ضرورات الحياة ، بل هى مجرد متع كمالية من الميسور الاستغناء عنها ؟

لعلىّ لا أجد إنساناً مثقفاً يقول بالإيجاب ، فإن الفن — فضلا عن تهذيبه للنفوس وصقلها — أشبه بلوحة قائمة فى عرض الحياة تومىء إلى شىء أعظم من هذا الفن بالذات ، إلى مصدره وموحيه . ويحدثنا أن وراء هذا الجمال الفنى ، جمالا روحياً أكثر روعة لا تبصره الأعين ولا تدركه العقول — وأن وراء هذا السكون جمالا هو فى طبيعة الأشياء — وهذا الجمال هو : « الله » ذاته ! !

ويقوى فينا هذا الشعور كلما ذكرنا أن الذين أسدوا للبشرية خير الخدم وأفضل النعم ، هم الذين اصطنعوا الجمال بأيديهم أو بقرائحهم أو بخيالاتهم — فشكسبير الشاعر الخالد بنبوغه الذى لا يبارى فى تحليل أعماق الحياة البشرية ، وبيتهوفن أو هندل بمحاولته التعبير بألحانه الموسيقية عما يعجز عنه اللفظ المنطوق ، والمثالون والرســامون والمعماريون بنتاج قرائحهم وروائع تصوراتهم ، بل المصلحون أيضاً فى جهادهم لافتداء العالم من الدمامة والقبح واسترداد الجمال المفقود فى الحياة البشرية والأنفس العاطلة — هؤلاء جميعاً قد علـّقوا فى طريق التاريخ لوحات تومىء إلى مصدر الجمال — إلى الله ! !

وأنت إذا سألت أحداً من أولئك الفنانين عن سر عمله وفنه ، لا يستطيع جواباً . ولعله لايقدر أن يقول شيئاً سوى أنه أُلهم الجمال إلهاماً . وأنى جاءه ذلك الإلهام ؟ ولماذا تفرد بهذه الغريزة الحساسة الجميلة ؟ ومن ذا الذى ولد فى نفسه الكره لكل دميم قبيح ، والشوق لكل جميل مليح ؟ أليس الإلهام من مصدره ، هو الجمال بعينه ! .

الفن الجميل فى أفكارنا وخيالاتنا

وهذا يأتى بى إلى الفن الجميل من حيث أفكارنا وخيالاتنا . وقد قيل فى أسطورة ان راهباً فرنسياً بلغ فى تجواله أبواب الفردوس ، وأخذ يفاخر بأعماله الصالحة وأفعاله الحميدة ، فقوطع بهذا السؤال : « وماذا فكرت فى عالمى الجميل ؟ » . وفى هذه الأسطورة غذاء للذهن وريّ للنفس ، ولعل بارىء هذا الكون يُعنى بجمال أفكارنا أكثر من عنايته بجمال فعالنا ، لأن الفكر هو المولد الكهربائى الذى ينفث قوة تجرى فى اتجاهات الحياة المختلفة . فما أجمله فناً أن تميل أفكارنا دائماً إلى التفكير الجميل الصائب الحق ، البعيد عن دمامة الإلتواء ومذمة الخطل !

ولم يُعن بهذا السؤال استرعاء النظر إلى الطبيعة الرائعة البديعة وحسب ، بل إلى العالم كله وما فيه من جماد وحيوان وإنسان . ونحن فى تقدير جمال الطبيعة نفتقر إلى كثير من ضروب الترويض والتهذيب . وإلا فلماذا نلقى فى أغلب الأحيان نظرات عجلى على المشاهد الخلابة ، فلا نقف ونتأمل ونخشع ونعبد ؟ ولماذا إذا أخرجنا إلى حديقة أو صحراء أو صعدنا فوق جبل ، لا نتورع عن تشويه جمال الأمكنة بترك الأوراق والقشور مبعثرة أومكدسة ؟ إن من لا يلبى نداء الجمال وتستلين عاطفته إلى دعوته ، ينقصه الفن فى حياته ، والفن فى تفكيره ، وما الحياة الراقية فى مجموعها إلا فن جميل ! .

وليس يكفى أن نقدّر الجمال فى الطبيعة ، بل فى العالم كله ، فى البشرية بكافة

ألوانها وأجناسها وطبقاتها - فى العوالم المعنوية ، كعالم الشعر والموسيقى والأدب ، والمرء أشد ما يكون ميلا إلى رؤية الشر والدنايا والدمامة فيما تقع عليه نواظره ، إلى رؤية الوحشية والقسوة والخسة والحطة فى كثير من أعمال الإنسانية . حتى أنه ليصعب عليه فى كثير من الأحيان أن يرى ولو صورة ضئيلة باهتة من جمال دفين مستتر .

ولكن الحق : أن فى كل نفس بشرية شيئاً من جمال الفن ، لأن فى كل نفس جذوة من شعلة الحب ، والحب هو الجمال ، وهو الفن . .

وإن فى كل جهد أمين تبذله الأيدى أو الأدمغة أو القلوب شيئاً من جمال الفن ، ولو جاءت النتيجة على غير ما نهوى ونشتهى . .

وقد قيل مما قيل إن « الحياة هى مجموعة كبيرة من الأشياء الصغيرة » ، وان « الفن هو استخدام الوسائل لبلوغ الغايات » ، ومهمتنا الخطيرة فى الحياة أن نحول كل دقائقها وتفصيلاتها لتكون رسائل شريفة تبلغ بنا أخيراً إلى غايات نبيلة . وفى الحياة صغائر قد لا نعبأ بها ولا نفطن إليها ، ولكن لها خطورتها وشأنها . فهل سيان أن تلبس ثيابك بعناية وحسن هندام ، وأن تبدو بمظهرك فى بذاذة وتحشف ؟ أيستوى عندك أن تقرأ بتفكير وتعمق ، وأن تقرأ قراءة سطحية فتأخذ الرغاوى وتترك الزبد ؟ أيستوى عندك أن تستمتع بالحياة فى حمية وحرارة ، وأن تقضيها فى رخاوة وبلادة ؟

ما أجمل أن نجعل الحياة فناً ، وفناً جميلا ! . . .

فترة عصيبة من التاريخ

« ليس الكفاح وقفاً على القادة والزعماء ، بل هو واجب مفروض على كل فرد مهما قل شأنه ، فالانتصار فى المعارك ، مهما كانت عبقرية القواد الذين يرسمون الخطط، يتوقف فى نهاية الأمر على شجاعة المواطنين » .

نحن نعيش الآن فى فترة من تاريخنا البشرى ، تكتسحنا أمامها تيارات عنيفة ، وتقصينا عن التقاليد والعادات والأوضاع والنظم التى عرفناها وألفناها. ولا نغالى إذا نحن قلنا اننا نشهد الآن أعظم انقلاب عرفه النوع الإنسانى فى تاريخه الطويل ، وان الجنس البشرى سيبدأ عصراً جديداً من عصوره ، وهذا الانقلاب هو أثر من آثار القرن العشرين ، ويمكن أن نصفه ، من ناحيته الآلية ، بسرعة الحركة والنشاط والنقل والانتقال . ولقد عاش آباؤنا داخل مناطق محدودة إلى حد ما ، وخضعت حركاتهم وأسباب نشاطهم لقلة وسائل النقل السريع . نعم ، رحل بعض الأفذاذ المغامرين ـ من مكتشفين ومرسلين وتجار ـ إلى أوطان غريبة ، ولكن كان أولئك من الشواذ ، وما كانوا نماذج للكافة .

على أن الانسانية تتطور الآن تطوراً سريعاً من ناحية السرعة والنشاط والانتقال . ولقد تم للعلم الانتصار فى معركة تقصير المسافات ، وتقريب الأبعاد ، وفتح آفاق جديدة ومناطق جديدة لم يكن الوصول اليها ميسوراً بالسرعة التى نشاهدها الآن . واليوم يستطيع المحاربون أن ينقلوا فى ليلة

واحدة جيشا كاملا وراء خطوط العدو بالطيارات والهابطات (البارا شوت).
وصار من الميسور نقل جيش من العمال فى يوم واحد لبناء السدود والخزانات، وتمهيد الطرقات فوق الجبال، وإنشاء المصانع والمؤسسات فى سرعة عجيبة حيثما يريد الإنسان، وحفل الجو بالطيارات والقطارات الهوائية السابحة فى الفضاء، لنقل المتاجر والكتب والرسائل والأدوية، والرجال والنساء والأطفال الذين ينقلون معهم آراءهم وعاداتهم من بلد إلى بلد. وغدت مدينة القاهرة مثلا، محطا عالميا جامعا لكل صنوف البشر وأنواع الناس. أما الذين لا تتهيء لهم الظروف أسباب الانتقال، ففى ميسورهم — دون أية رقابة عليهم — أن يقفوا على متجهات الفكر والسياسة والعلم والدين فى البلدان الأخرى. بل قد نستطيع ونحن فى القاهرة أن نتسمع المناقشات الداخلية فى البرلمان البريطانى والكونغرس الأمريكى ومجلس النواب الالمانى. بل نستطيع بواسطة التليفزيون أن نشهد سباق الخيل فى دربى بانكلترا، أو مناقشات دول عدم الانحياز فى بلغراد، أو رئيس وزراء روسيا يخطب فى موسكو.

إن الفتح الجديد حقق لنا كل هذا وغير هذا، وسيتمكن الإنسان — صنيعة الله المحسوب عليه — من أن يكثر فى الأرض ويتسلط عليها — تحقيقاً لمشيئة الخالق فى سفر التكوين يوم سلط الإنسان على كل أشياء الأرض. وربما نظر أخلافنا بعد قرون، إلى هذا الجيل الحاضر، كأنه خاتمة عصر طويل عاش فيه البشر فى حالة خمول جسمانى، وزوال عهد الطفولة للجنس البشرى يوم عاش أبناء الإنسانية فى جماعات مستقرة نسبيا، منفصلة بعضها عن بعض، وموزعة على وجه الأرض المستديرة التى جاهد الأبطال البواسل جهادا عنيفاً فى كشف خباياها وإخضاع قواها..

هذا هو الاتجاه الذى لا رجوع فيه فى عصرنا هذا. على أنه منطو على أخطار وتبعات لم نتأهب لمواجهتها حتى الآن تأهبا كافيا. فنحن نجوز الآن إلى

هذا العصر الجديد — عصر الوحدة العالمية والاختلاط البشرى — بآرائنا العتيقة البالية ، وعواطفنا المحدودة الضيقة،وشعور العداء والتعصب والمشتهيات الأنانية القصيرة النظر — مما يخلق أشر المتاعب وأوخم العواقب فى علاقاتنا الجديدة التى تقتضيها سرعة الحركة والنشاط . وكأنما فى وسط هذا الانقلاب المادى الخطير ، ما زلنا على القديم معنوياً وروحياً . إن تطورنا المعنوى والروحى لايساير التطور المادى الذى يكتسحنا الآن أمامه كتيار جارف .

صوت الكنيسة

والهيئات الدينية والكنائس فى العالم كله قد كسبت اختبارا جديدا . وهى تواجه حقائق العالم السياسى فى أسوأ مظاهرها وأبشع أوضاعها،وكذلك تواجه فرصاً نادرة للجهاد والكفاح لتشق طريقها وترفع صوتها فى عالم حفل بمبتكرات آلية ميكانيكية ، كنا نظنها من المعجزات التى لايصدقها العقل قبل نصف قرن من الزمن ، وتطبع أثرها فى جيل ناشىء استهوته هذه المبتكرات العلمية وصرفته عن مطالب الحياة الروحية ، وتوطد أركان الإيمان والأخلاق الدينية فى مجتمع عالمى سريع التغيير والتبديل، امتزجت فيه الشعوب والثقافات والديانات بعضها ببعض امتزاجا غريباً .

ومن دواعى الغبطة أن الزعماء المسيحيين فى كل أزمة فى العالم ، والهيئات الدينية مثل مجمع الكنائس العالمى وغيره ، قد نادت بنظرياتها ومبادئها المسيحية وأيدت وجهات نظرها فى أوضاع النظام الدولى السليم . ونشرت صحافة العالم أقوالا وخطبا وقرارات للزعماء والهيئات حول المشاكل السياسية والاقتصادية تدل على نبالة القصد ، وحصافة الرأى ، والعدالة المنزهة عن الهوى . ولنا أكبر الرجاء فى أن يكون لهذا أثره فى تقرير مصير العالم فى المستقبل .

موقف الأفراد

على أنه ينبغى على المسيحيين ألا يقنعوا بالنظم السياسـية والاجتماعية لخلاص البشر ، فالفارق بين جماعة تمزقها المنازعات والحزازات وجماعة

يسودها السلام والانسجام يقوم على أشياء كثيرة غير الحكومات الصالحة .. إن السلام والانسجام والتواد فى أية جماعة بشرية مردّها إلى موقف أفراد هذه الجماعة بعضهم نحو بعض ، وإلى أسباب التعاون الاختيارى بينهم . فإذا نظر أبناء الأمة ، بعضهم إلى بعض ، نظرات الجفاء والريبة ، والتعصب والأنانية ، وسوء التفاهم والتقاطع ، فإن قوات الحكومة مهما نشطت لن تستطيع منع الانقسام والعنف والكراهية ، وهذا هو الحال تماما فى جماعات الدول والشعوب . ومستقبل الانسانية معلّق بعوامل التفاهم والمودة والتعاون بين أفراد الأمة الواحدة وبين الأمم والجماعات الدولية المختلفة .

إن انتصار الحرية فى كل مكان سيجرّ خيرا للعالم ، إنما يشترط أن يكون هذا الانتصار فاتحة عصر جديد لإحداث تغيير ادبى روحى فى العالم يساير هذا التغيير العلمى المادى . . إنما الذى نخشاه كل الخشية أن يتعرض هذا الانتصار لأخطار الاسترخاء والكبرياء . فقد يميل المنتصرون إلى الراحة بعد الجهاد ، وإلى المفاخرة والمباهاة بعد الظفر ، ويكون من سوء حظ الانسانية إذا اكتفت الشعوب بالنصر المادى ، وأغفلت الجهاد والسعى لربط العالم كله بروابط روحية أدبية تمنع هبوب العاصفة الهوجاء مرة أخرى .

والانسان الذى لم تصقل طبيعته بالدين ، قلما تجد فيه فضيلة الحرص على حقوق الآخرين ومراعاة خواطرهم ومصالحهم . فهو ميال إلى إغفال نقائصه وضعفاته ، بل إلى اعتبار هذه النقائص فضائل يحمد عليها . وذلك لأنه ينقصه التواضع والدعة والشعور بالمسئولية حيال الاخرين ، وهذه كلها من الفضائل التى يربيها الدين فى النفس .

وهذه العوامل هى تراث المسيحية وأساس دعوتها منذ نشأتها ، فالمسيحى الصادق لا يفكر فى نفسه أكثر مما ينبغى ، وحتى إذا صادفه التوفيق فى حياته ظاهريا ، يؤمن فى دخيلة نفسه أنه خاطىء أمام الله ، وفى افتقار إلى غفران الله ومحبته . والقلب المنسحق والمنكسر يخلق أقوى شخصية يعتز بها العالم

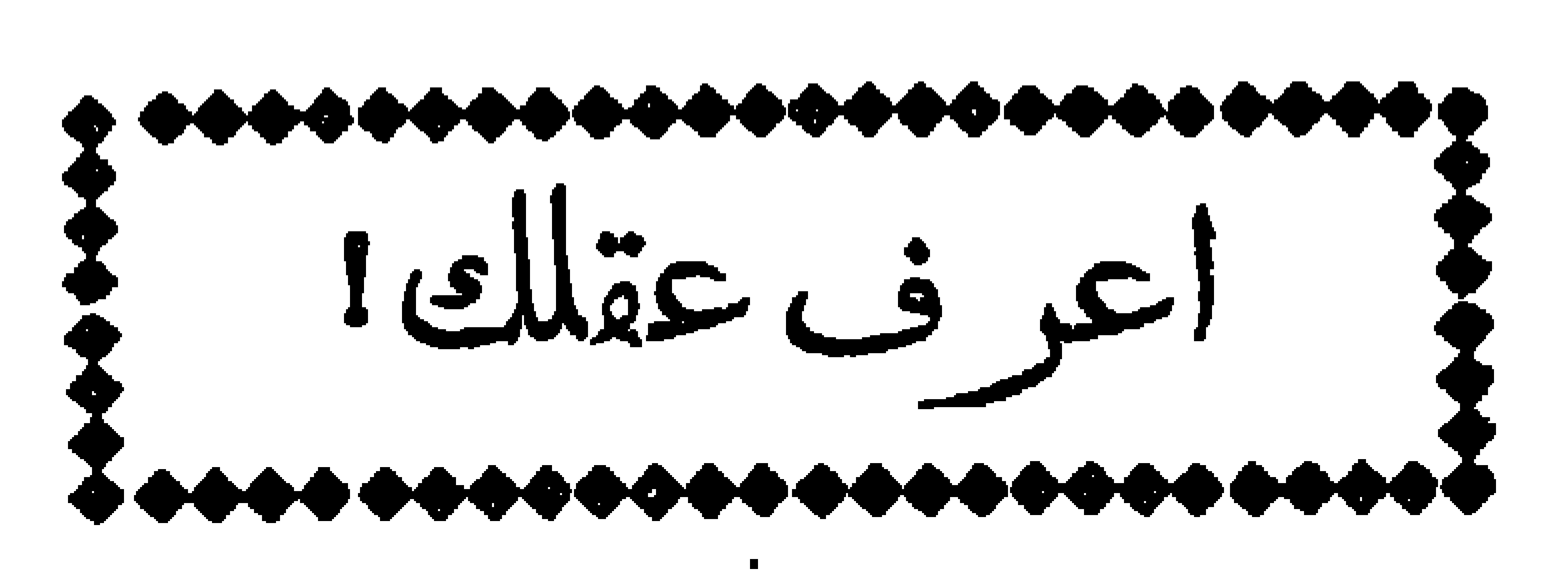
لتوحيد أسباب المودة بين أفراد الأمة الواحدة ، وبين الجماعات البشرية . كذلك نظرت المسيحية إلى الفرد ، لا كموضوع الاستغلال ، بل كشخصية جديرة بالاقتداء والإنقاذ . ومن الفكر الدينية القديمة المتواترة فى الأحاديث المسيحية « عالم واحد . . وإله واحد . . وأخوّة بشرية » .

الوصية الخالدة

وكانت وصية المسيح الثانية « أن تحب قريبك (أى أخاك فى الإنسانية) كنفسك » . وأغلب الظن أن البشر لم يختلفوا فى فهم المقصود من هذه الوصية ، ولكنهم اختلفوا وتباينت آراؤهم فى الإجابة على السؤال القائل : « من هو قريبى ؟ » وقد كان معنى (القريب) فى المؤلفات العبرانية والصينية والرواقية ، بل فى نظر كثيرين من المسيحيين ، ضيقا محدوداً . ولكن معناه فى المسيحية جاء شاملا جامعاً لكل أبناء البشرية على السواء . وذلك لأن « الله » فى المسيحية قد « أحب العالم » كله — لا اليهود فقط ، ولا الأمريكان فقط ، ولا الألمان فقط ، ولا البيض فقط ! — فاستغلال أية طائفة من طوائف الناس ، وتمييز قوم على آخرين ، اعتداء على الشريعة المسيحية ومناهضة المشيئة الإلهية .

وجدير بالمسيحيين أن يحرصوا كل الحرص على تراثهم القديم ، فالعالم اليوم يتشكل فى شكل جديد ، أيكون صالحاً أو رديئاً لسنا ندرى . ولكن هذا التشكيل الجديد يهيىء فرصة لم يجد التاريخ بمثلها من قبل . واليوم قد استهوت الآلات والماديات ألباب الكثيرين — وخاصة الأمم الصغيرة الناهضة . وراحوا يعبدونها آلهة من دون الله . ولكن قد ثبت لنا من الاختبار الأليم أن هذه الآلهة رهيبة ملطخة بالدماء . على أن حسن استخدام هذه الآلات والماديات لإنقاذ البشرية من الفقر والموت يعود عليها بأجل البركات . وهنا يجب ألا نغفل أن الكفاح فى هذا السبيل ليس وقفاً على القادة والزعماء ، بل هو واجب مفروض على كل فرد مهما قل شأنه ، فالانتصار فى المعارك مهما كانت عبقرية القواد

الذين يرسمون الخطط ، ويتوقف فى نهاية الأمر على شجاعة المواطنين وبسالة الجنود الأنفار . وانتصار المبادىء الدينية وانهزامها يتوقفان على تصرفات المؤمنين أنفسهم وحسن بلائهم فى الجهاد ، وفى التحديق بعيونهم فى الآفاق الجديدة ، وحمل المسئوليات والتبعات الجديدة . إن مستقبل الانسانية يفرض علينا أن نتذرع بكل أسلحة الحق والعدل ، والنزاهة والاستقامة ، والخدمة والإيثار ، لانقاذ البشرية المعذبة بأيدى أبنائها .



اعرف عقلك!

« على الرغم من دقة الدماغ وتعقيده ، وعلى الرغم من سمو العقل وعظمته إذا قيس بالجسد ، فان الناس لا يعرفون عن عقولهم إلا النذر اليسير » .

العقل هو المرشد غير المنظور الذى يدير دفة الجسد . والإنسان يستخدم عقله فى كل يوم ، هو يفكر ويحلم ويدبر ويبتكر ، ويزعم أنه فى غنى عن تغذية هذه الأداة الخفية ، أو معرفة أسرار عملها .

وكما أن الإنسان العادى لا يفكر عن أصابعه ، ولا عن رجليه ، ولا عن أى عضو آخر من أعضاء جسده ، إلا أن يُصاب بعطب ، كذلك لا يفكر الإنسان العادى فى عقله إلا إذا اعتلّ واختل توازنه .

ومما يقوله الطب الحديث ان الأصحاء هم أولى الناس باستشارة الطبيب من المرضى ، لكى لا تعتل جسومهم . فأنت إذا عرفت تركيب جسمك وطريقة تغذيته ، وتزويده بالوقود الكافية ، والعناية بسلامته ، أمنت كثيراً من الأمراض ، ولذلك لابد من استشارة الطبيب بين وحين وآخر لفحص الجسم وتقويته وصيانته بأسباب المناعة الكافية .

هذا ما يقوله الأطباء ، وهم يقرنون القول بالعمل فى كثير من البلدان الراقية ، فلا يكتفون بعلاج المرضى ، بل يبذلون جهوداً وقائية جبارة ، كزيارة الناس فى بيوتهم ، والتفتيش الصحى على المصانع والمكاتب

والمدارس ، ونشر الدعوة الصحية ، وتقويم أذهان الجماعات للوقاية من الأمراض .

وهكذا الحال تماماً مع العقل ، فإن فهم أسراره وعمله ، يحول دون الانهيار العقلي الذي يصاب به كثيرون في هذا العصر المضطرب . ولا حاجة إلى القول ان العقل ذخيرة لا تقدر ، وبدونه يكون الجسم ميتاً لا قيمة له . أرأيت إلى إنسان تحت التخدير . إنك تراه ملقى لا حراك به تحت رحمة الجراح . الجسد حي ، ولكن العقل هجع إلى حين الجسد يمكن تحريكه ، ونقله ، وتعريته ، وتقطيعه ، دون أن يبدي احتجاجاً أو اعتراضاً . والعقل ، وهو القوة المحركة للجسد ، والدقة التي تديره ، غائب عن وعيه . لذلك يمسى الجسد بدونه مهزلة ، وأداة عقيمة ، تحتل فراغاً كما تحتله الجمادات الأخرى .

وعقل الانسان أدق شيء فيه . وحتى الدماغ ، الذي هو أداة العقل ، أكثر أعضاء الجسم تعقيداً في تركيبه وتلافيفه ، وهو أكثر الأعضاء حاجة إلى الوقاية والصيانة ، لذلك ترى الطبيعة قد أحاطته بغلاف ، هو في الواقع أصلب وأمتن غلاف في الجسم البشري كله .

ولكن على الرغم من دقة الدماغ وتعقيده ، وعلى الرغم من سمو العقل وعظمته ، إذا قيس بالجسد ، فإن الناس لا يعرفون عن عقولهم إلا النذر اليسير . لقد درس الانسان العالم حوله ، النباتات والحيوان والأسماك ، واخترع وابتكر وكشف أسرار الطبيعة ، ولكنه لم يتوصل بعد إلى معرفة أسرار عقله . لقد غطى وجه الأرض في بحوثه عن الجيولوجيا وعلم النبات وعلم الحيوان ، ولكن أهمل أقرب الأشياء إليه ، عقله . وكان علم النفس من العلوم المهملة ، فلم تقم له قائمة إلا مؤخراً . وقد سخر كثيرون منه ، وحسبوا أساتذته وأطباءه دجالين مزيفين ، وهو في الواقع أعظم العلوم كلها ، وإن يكن أصغرها سناً وأحدثها نشأة .

وأنت إذا كنت صاحب سيارة ، تستطيع أن تفعل بها أحد ثلاثة أشياء :

تستطيع أن تصب البترول ، وهو المادة التى تسيّر السيارة ، جزافاً كيفما اتفق ، وفى هذه الحالة لا شىء يحدث إلا أن تكون سيارتك عرضة للانفجار أو الاحتراق . وتستطيع أن تصب البترول فى الوعاء المخصص لذلك فتدور الماكينة وتسير العجلات ، ولكن تأتى ساعة ، إن عاجلا أو آجلا ، تأبى فيها السيارة أن تسير ، وفى هذه الحالة لا غنى لها عن العلاج والإصلاح . أما الشىء الثالث وهو الأهم والأنفع ، أن تدرس دقائق سيارتك ، وتفهم أجزاءها ووظائفها ، وتعنى بتنظيف هذه الأجزاء وتزييتها . وهذه أسلم طريقة لصيانة السيارة والإبقاء عليها مدة طويلة .

وعلى هذا النمط عينه يكون شأن العقل . فأنت تقدر أن تبعثر أفكارك فى عقلك كيفما اتفق ، وترجو الخير من وراء ذلك . ويقول علماء النفس ان ثمانين فى المائة من الناس يفعلون هذا ، فتغدو أفكارهم وتروح بطريقة سائبة لا رابط لها . وهذه الأفكار السائبة المضطربة هى علة ما يعانيه العالم فى هذا العصر من فوضى وقلق واضطرابات نفسية وقومية . وتتضرم الحروب والمنازعات فى العالم بقوة الجماهير غير المفكرة ، أكثر مما تتضرم بتدابير الأشرار من الطغاة والمستبدين ، ذلك لأن أفكار الملايين السائبة ، غير المركزة ، البليدة ، الراكدة ، تنطلق كأرواح شريرة ، وفى نهاية الأمر تندلع لهباً آكلة .

وفريق أقل من الناس يبذلون بعض الجهد لتحديد هدف أفكارهم وهم يختلفون عن العامة الذين تشرد أفكارهم على غير هدى كما تشرد الأنعام الشاردة . يضعون البترول فى موضعه ، ولكنهم لا يعنون بتفهم تركيب العقل وطريقة سيره . وأمثال هؤلاء يتوقف تفكيرهم فى سن معينة ويبطل نتاج عقولهم . ولكن فريقاً ثالثا من الناس يجعلون همهم دراسة عقولهم وطرائق تفكيرهم ، فينتجون الأفكار ، لا فى كثرة دون اكتراث ، بل فى قصد حكيم بتدبير الأمور ووزنها بميزان التعقل والحكمة . هؤلاء يدرسون دقائق عقولهم ويفهمون عملها وطرائق سيرها .

عصر العقل

وفى هذا الموقف خير أجزل . فى وسعنا بالسيطرة على عقولنا ، أن نحفظ أجسادنا سليمة أمداً طويلا . ذلك لأننا نعيش فى عصر العقل . وكما أنه قد مر بنا عصر حجرى ، وعصر حديدى ، وعصر مادى أوشك على نهايته وقارب الزوال بعد هـذه الهزات العنيفة ، كذلك نتوقع اليوم بفارغ الصبر انبثاق « عصر العقل » ، وسنـكون نحن أبناء هذا الجيل من المقدامين فيه الذين يمهدون الطريق . ومهما تـكن أعمارنا وعدد السنين التى انفرطت من عقد الحياة ، فإننا نخلص من دراسة العقل ، بأنه لا يشيخ قط ، وأن الجسد الذى هو المادة المطاطة اللينة التى يستخدمها العقل لتنفيذ أغراضه ، يمكن أن يحتفظ بشبابه بعد أن يبلغ سن الشيخوخة .

وينشط العقل البشرى عادة فى مظاهر ثلاثة . وهى مظاهر متداخلة فى بعضها ، لا يمـكن الفصل بينها ، بحيث يجوز لنا أن نفـكر فيها كما يفـكر علماء اللاهوت فى عقيدة الثالوت . هى ثلاثة..فى واحد ، وواحد فى ثلاثة . وكما أن الله خلق الإنسان على صورته ، فإن هذه الصورة تتمثل فى عقل الإنسان من حيث هو فى تـكوينه وطبيعته أشبه بالثالوث فى الوحدة :

العقل الواعى

فهناك أولا العقل الواعى الناشط ، ويطلق عليه بعض علماء النفس « العقل الموضوعى » . وهو العقل الذى نفـكر به فى شئوننا اليومية العامة ، والذى بواسطته نعمل ونزن الأشياء .

العقل الذاتى

والجزء الثانى من العقل هو الذى يسميه علماء النفس « العقل الذاتى » أو « العقل السلبى » وهو الذى ينشط فى الأحلام ، والذى تعلق به أحداث الماضى ، حلوها ومرها — هو مستودع الرغائب والميول والأفكار والعواطف التى لا تريد أن تستعلن للناس . وهو العقل الذى نستمد منه الذاكرة ، لأنه يخفى بين تلافيفه حوادث الأيام الخوالى .

والعقل السلبي هو مصدر أكثر الاضطرابات العقلية التي تنتاب الإنسان. وقيل عنه انه السجن ، وان العقل الواعي هو السجان . على أنه يحدث في بعض الأحيان أن يغافل محابيس العقل السلبي عيون السجان الحارس ، وتفلت إلى الخارج . وهنا يبدأ الاضطراب . وعلم النفس يلقن طلابه كيفية تنظيم العقل السلبي ، وطريقة المحافظة على هؤلاء المحابيس . وأحيانا يكون من إصالة الرأى إطلاق سراح الأسرى المحبوسين خشية أن يتلفوا بيت السجن .

العقل اللاواعي

أما النوع الثالث من العقل ـ أو الأقنوم الثالث في الثالوث البشري ـ فهو الذي افتتن بدراسته وتحليله علماء النفس المعاصرين . وهو الذي يقع «تحت السطح» في الأعماق ، ويسميه أكثر علماء النفس «العقل اللاواعي». وهذه تسمية أبعد ما تكون عن الحقيقة . فالعقل اللاواعي واع جداً . هو لا ينام قط كالعقل السلبي ، ولا يتيه ولا ينسى كالعقل الواعي . هو أقوى جزء فينا .

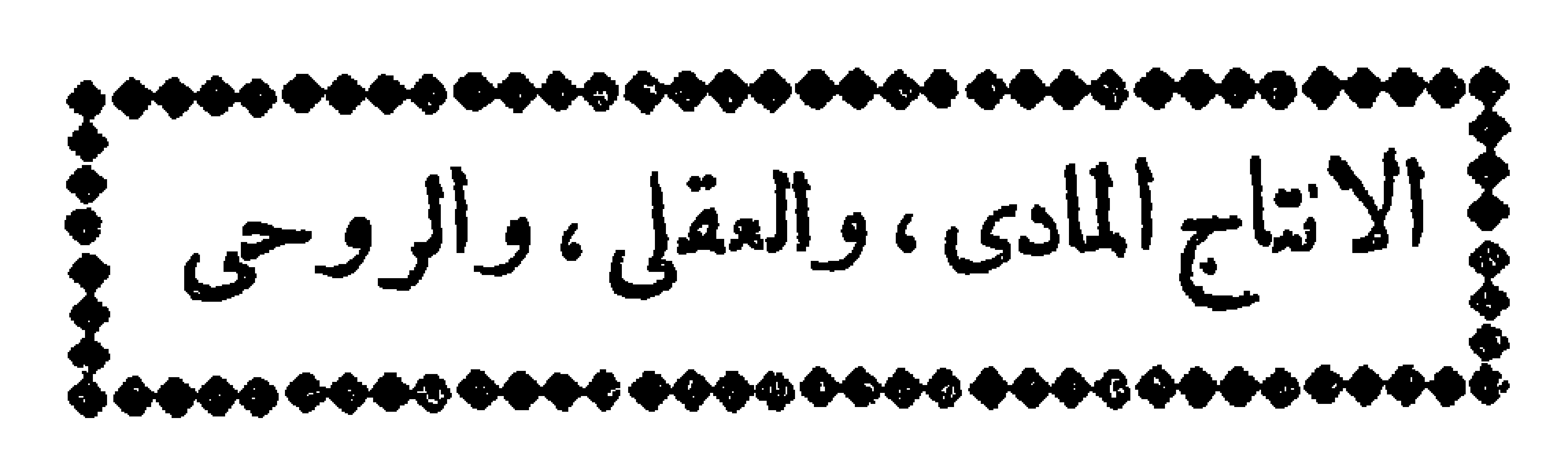
لذلك آثر بعض العلماء العصريين بتسميته « العقل المبتكر » أو الخالق المبدع ، لا يعرف الناس عنه إلا قليلا ، ولا يستخدمونه إلا نادراً ، وذلك لأنه بعيد عن نواحي النشاط العادية ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بعد جهد عنيف ، ولا استخدامه إلا بطريق غير عادية ، قد تكون مضنية .

ومما يقوله الملاحون الذين عركوا البحار ان جبل الجليد الطافي فوق الماء يبدو ضخماً هائلا ، ولكن الذي تراه العين فوق سطح الماء ليس إلا الثلث فقط . والجزء الأكبر منه غاطس تحت سطح الماء . وهكذا الحال مع عقل الإنسان . فإننا نظن أن العقل الناشط الواعي قوى متسلط علينا ، وهو في الواقع ليس إلا الجزء الصغير المنظور ، أشبه بجبل الجليد فوق سطح الماء .

قلنا ان هذا العقل « الخالق المبدع » هو أقوى شيء فينا . هو الذي يصنع المعجزات الباهرات . نتكلم أحيانا عن العبقرية . فما هي العبقرية ؟ ولماذا

لا نكون كلنا عباقرة ؟ إن العبقرى هو الإنسان الذى غاص إلى أعماق عقله المبدع المبتكر . فليس فى العالم نواميس طبيعية جديدة ، ولا ما نسميه مبتكرات جديدة . فالنواميس الطبيعية المتضمنة فى الطائرة أو اللاسلكى أو السيارة كانت موجودة يوم كان الإنسان البشرى يصبغ جسمه بالصباغ الأزرق ، وهو هائم على وجهه فى غابات الأرض وأدغالها . كانت تلك النواميس منذ تلك العصور السحيقة ، ناشطة عاملة فى الكون . ولكنها لم تعرف ، لأن عقل الانسان المبدع لم يكن قد كشف أسرارها وعرف خفاياها . وهذا العقل المبدع هو ظهير كل العلوم العصرية الحديثة . فالكيماوى يحلل العناصر الطبيعية حتى يصل إلى الذرة ، ثم هو بعد ذلك يحطم الذرة ذاتها ، ولسنا ندرى ما سيكون عليه العالم فى المستقبل بعد تحطيم الذرة وإطلاق هذه القوة الهائلة من عقالها فى قنابل ذرية وصواريخ مهلكة .

هذا هو العقل إذاً : هو ثالوث فى كل منا . وعلم النفس يؤمن بهذا العقل المثلث — العقل الناشط الواعى — العقل السالب - والعقل المبدع المبتكر . والثلاثة عقل واحد .



الانتاج المادى، والعقلى، والروحى

« يتجه التاريخ إلى فكرة فى الحياة جديدة ، هى تقدير الناس ، لا بنسبة ألقابهم ورتبهم وثرواتهم وجاههم ونسبهم ، بل بقدر ما يغدقونه على المجتمع من خير ، ويؤدون له من خدمات . . . » .

يتجه التاريخ إلى فكرة فى الحياة جديدة ، هى تقدير الناس لا بنسبة ألقابهم ورتبهم وثرواتهم وجاههم ونسبهم ، بل بقدر ما يغدقونه على المجتمع من خير ، ويؤدون له من خدمات ، ويضيفون إليه من مبادىء ومُثُل عليا. وقد كانت الكلمة الأولى التى عبّر بها الله عن قصده ، فى الفصل الأول من سفر التكوين ، هى « أثمروا » . وإنّا لنرى الله فى هذه الصفحة الأولى من تاريخ الخليقة ، يفرح ويُسر كلما رأى شيئاً حسناً يكمل فى خليقته . « ورأى الله . . . انه حسن » . وكأنما كانت إرادته الصالحة منذ البدء أن يكون العالم موفور الإنتاج ، كثير الخير ، وافر الثمر . وأساس الحياة فى هذا العصر هو الإنتاج : الإنتاج المادى ، والعقلى ، والروحى .

ورقى الإنسانية مردّه إلى وفرة الإنتاج فى عالم المادة . فالإنسان الذى يتعاون مع الطبيعة ، ويستنبت غلّة الأرض ، ويخرج الخير من تربتها ، إنما يعمل على وفرة الإثمار ، وهو ما زال فى نظرنا العامل الأول والأهم فى كيان الحياة . فهو الذى يزودنا بالطعام الذى نأكله ، والكساء الذى نلبسه . والحضارة تستند فى آخر الأمر إلى الزراعة .

والإنسان الذى ينتزع من بطن الأرض كنوزها ، ويغوص إلى مناجمها آبارها ، ويخضع الطبيعة لتنفيذ مآربه ، هو أيضاً منتج نحن مدينون إليه بأكبر الدين . وكل مرة يبتكر العقل البشرى آلة نافعة ، يصير العالم إلى حياة أوفر خيراً وأغزر منفعة . وحقاً قد غدا العالم المادى عالماً حافلا بالممكنات التى تولد أكبر الآمال ، والانسان يسير فيه وكأنه السيد المتسلط على القوى الجبارة التى أخضعها لسلطانه . ونحن نقف أحياناً مشدوهين حيال المعجزات التى يصنعها العقل البشرى ، ويحلم المفكرون أحلاماً عذاباً فى مستقبل مجيد لهذا العالم المادى ، يوم يصبح كلّ إنسان منتجاً بالمعنى الصحيح ، فتزداد القيم فى العالم ، ويساهم كل فرد إنسانى بنصيبه فى هذا الإثمار .

ولا غرو أن إرادة الله أن يكون كل بشر منتجاً بعض الخير . فلا حق لأى إنسان أن يأكل وجبة من الطعام لم يكسبها عن طريق الانتاج والجهاد. وكلما زاد انتاج المرء ، زاد حقه فى الثراء المشترك .

الانتاج العقلى

والجنس البشرى مسئول عن الانتاج العقلى مسئوليته عن الانتاج المادى. وليس من الأمور الطبيعية فى هذا العالم أن تكدح الجماهير الغفيرة فى الميدان المادى ، ويقتصر الانتاج فى العالم العقلى على قلة ضئيلة واهنة العزم . فالإثمار العقلى حق لكل رجل ، وكل امرأة ،وكل طفل . وإذا انتفى هذا فى مجتمع ما ، صحّ القول ان هذا المجتمع لايؤدى وظيفته على الوجه الأكمل . وهناك عقل واحد فى وسع كل إنسان أن يعمل على ترقيته وتهذيبه وتثقيفه ،وهذا هو عقله . وإذا حيل بين المرء وبين تثقيف عقله، ليشترك مع مواطنيه فى الانتاج العقلى على قدر ما تسمح به طاقته الفكرية ، كان ذلك اعوجاجاً وتنكباً عن الطريق القويم. على أن هناك خطراً فى أن يزعم الرجل الحاذق البارع أن البراعة والذكاء هما فى الواقع جوهر قوته العقلية. بيد أن القوة العقلية الصحيحة هى التى تسعى دائبة فى غير ونى إلى معرفة الحق فى شتى نواحيه ، وإلى التماس الحقيقة أينما وجدت . وهذا هو أكبر نصر يظفر به العقل البشرى .

وهنا يجب أن ندرك الفارق بين الانتاج وبين استغلال النفوذ والاحتيال الماكر . فحينما يبتكر الإنسان آلة تفتقر اليها الإنسانية ، وينال بسبب هذا الابتكار أرباحا طائلة ، فانه يكون قد ظفر بمكافأة مقابل هذا الانتاج العقلى . وحينما يستخدم انسان عقله للانتفاع بالآلات القائمة على أكمل وجه ، فانه يضيف إلى المنافع الموجودة منفعة أخرى جديدة . ولكن حين يعمد الانسان بطريق استغلال النفوذ والاحتيال الماهر إلى احتكار الأسواق أو الاستئثار بالمنافع أو المضاربات الضارة ، فإنه لايكون منتجاً ، بل طفيلياً قذراً يجب استئصاله من جسم المجتمع ليكون سليما . وكم عانى العالم فى تاريخه الاقتصادى والاجتماعى من أمثال هؤلاء الحاذقين الماكرين الذين استخدموا عقولهم الجبارة للهدم لا للبنيان ، وللشر لا للخير . ويوما ما ابتكر جماعة من علماء الأمريكان نوعا من (اللمبات) الكهربائية غير قابلة للاحتراق . ومعنى هذا أن يقل استهلاك اللمبات العادية ، وتبور صناعتها . فقام أرباب هذه الصناعة وأصحاب رؤوس أموالها وابتاعوا بالأموال الطائلة براءة هـــذا الاختراع وأعدموه فى مهده . وكان هذا على حساب المستهلكين الذين كانوا سينتفعون حتما بمثل هذا الاختراع الذى سيوفر عليهم الأموال التى ينفقونها فى شراء اللمبات العادية التى تحترق بالاستعمال العادى لأتفه الأسباب .

لم يكن عمل أولئك الطامعين فى الربح الكثير إنتاجاً ولا خدمة للمجتمع . ولكنه كان حذقا تجاريا ماكراً ، ومعركة استغلالية استخدموا فيها العقول الجبارة لجر أكبر قسط من الغنم .

الإنتاج الأدبى

وفى العالم ميدان فسيح للانتاج الأدبى الأخلاقى . وقد قال مرة أحد الحكماء ان هدف الانسانية هو صياغة الحياة والأخلاق . وأفضل الانتاج فى

هذا الميدان هو خلق الروح الاجتماعي . ومع أن الروح الاجتماعي يتصل بكثيرين من الرجال والنساء والأطفال ، إلا أنه يقتصر حتما في جهاده على التأثير في عدد محدود من العقول والقلوب . فالشعور الأخوي الاجتماعي لا يهيم في العالم على وجهه دون أن يتصل اتصالا وثيقاً بأفراد معينين، والمجتمع الجديد لا يصاغ إلا عن طريق انقاذ الأفراد من أنانيتهم وجشعهم ، وتكوين العقل الاجتماعي في هؤلاء الأفراد أولا وكل محاولة لانقاذ المجتمع من مفاسده وعيوبه عقيمة جدباء ، ما لم يُشدد التكير على الأفراد أولا كأفراد . وحين يبدأ الإنسان تطبيق القاعدة الذهبية في حياته أولا ، ولا يحفظها فقط في ذاكرته ، فإنه يكون قد خطا الخطوة الأولى في الإنتاج الخلقي وتكوين الروح الاجتماعي المطلوب . ومتى تكوّن في امرىء هذا العقل الاجتماعي ، استطاع أن يقدّم يد الشركة والزمالة لمن حوله ، واستطاع أن يجد في كل إنسان آخر شيئاً يحبه ويحترمه، واستطاع أن ينظر إلى الطبيعة البشرية كأرض عجيبة غنية ، من الميسور أن يستكشف فيها كنوزاً مجيدة جديدة .

القيم الروحية

أرقى القيم في الحياة ليست المادية ، ولا العقلية ، ولا الأخلاقية ، بل هي القيم الروحية . ولا يكون إنتاجنا كاملا ما لم يشمل ميدان الروح . وأكثرنا يعرف أناساً نمسّ فيهم السمو الروحي ، هم أصحاب النظرات الروحية الرفيعة وهم عادة أعظم الناس في كل مجهود إنساني ، ووصية السفر المقدس القديم « اثمروا » تبلغ أوجها وذروة معناها في ميدان القيم الروحية .

وقد كان يسوع المثل الأعلى في هذا الميدان ، فلقد انطلقت من ذاته مدى عشرين قرناً أسراراً خالدة من الانتاج الروحي . والشعور بالقرب من الله ، وإدراك الأشياء الروحية بذهن صاف وقلب نقي — هما في الواقع أعظم ما في هذا الوجود .

بهذه الوسائل المختلفة يزيد كل جيل من القيم الموجودة في هذه الأرض .

فهو يضيف إلى القيم المادية لتكون الحياة أيسر وأمتع ، ويضيف إلى القيم الأخلاقية لتكون النفوس أصفى وأنقى ، ويضيف إلى القيم العقلية ، لتكون المعارف أوفر وأغزر ، ويضيف إلى القيم الاجتماعية ليكون التضامن أمتن وأوثق ، ويضيف إلى القيم الروحية لكى تزدان قيم الحياة كلها بجمال روحانى خلاب . ولن يكون للحياة الانسانية معنى بدون القيم الروحية التى بها نعرف الله حق المعرفة ، والحقائق الأولية الخالدة التى ترفع الماديات إلى عالم الروحيات.

أجل . يجب أن نكون منتجين فى كل ناحية من نواحى الحياة . ومن قبل قدّم لنا سيد الانسانية وربها نموذجا كاملا فى هذا الانتاج الشامل، وهو الذى قد أطلق فى العالم قوى رفعت كل القيم على اختلاف أنواعها . وفى هذا كان أوفر الشخصيات التى عرفها التاريخ البشرى إنتاجا للخير والحق . وانتصار ملكه فى العالم يضمن لكل القيم النبيلة الحقة بقاءها فى هذا العالم ويضمن لها اكتمالها فى العالم الآتى .

الكبرياء الخاطئة

« لست أرى الكبرياء شراً على إطلاقها ....
الكبرياء الخاطئة القاتلة هى تمجيد الذات من دون الله ،
هى انكار الله ومجده وصلاحه ومحبته ... » .

... قال الأقدمون ان الخطايا المميتة الفاتكة سبع ، وعلى رأس هذه القائمة « الكبرياء » ! ولست أرى الكبرياء شراً على إطلاقها ، فمن حق ، وحق القارىء ، أن يفخر بالعمل الجليل الذى يجيده ويتقنه . والإنسان الذى لا يفخر بعمله وفنّه خليق بالرثاء والاشفاق !

كذلك لا أرى غضاضة فى أن يكون للانسان قسط من الكبرياء فى نفسه ، سمّه الكرامة أو احترام الذات إن شئت . وقد علمتنا المسيحية أن نحترم الآخرين ولا نسلبهم ما يستحقون من تقدير وتوقير .

وليس عيباً أن أفخر بالمبادىء والمُثل العليا فى دينى ، وبالتقاليد الكريمة فى وطنى . على أن ثمة فارقاً بين هذه الكبرياء المحببة وبين الكبرياء المرذولة ... الكبرياء الخاطئة القاتلة وهى تمجيد الذات من دون الله . هى إنكار جلال الله ومجده وصلاحه ومحبته . هى الخطية الأساسية فى كتابنا المقدس . الخطية التى أسقطت الشيطان ، والتى أسقطت آدم الذى أراد أن يكون مساوياً لله . هى الخطية التى نعاها أنبياء العهد القديم بكلمات لاذعة ، والتى نعاها الرسل فى كتاباتهم بأقوال صارمة .

وهناك وسائل كثيرة نحاول بها تمجيد ذواتنا من دون الله . فقد نحاول تمجيدها بسبب الثروة ، أو بسبب الفقر ، أو بسبب العلم او بسبب الجهل ، بسبب الفضائل أو بسبب الرذائل . قد نحاول تمجيد ذواتنا زهواً بالوطن ، أو الجنس ، أو الأسرة . إن خطية تمجيد الذات أصلية فى الإنسان وتتخذ ألواناً وأوضاعاً شتى . وحسبي أن أشير إلى ثلاثة من هذه الأوضاع :

كبرياء القوة :

هذه وصمة شابت أكثر الأسر المالكة فى التاريخ . جرّت الفساد ، ثم الفناء والانقراض . وما أكثر ما ينسى أصحاب السلطان أن القوة وديعة من الله ، ووكالة يؤدى الناس عنها حساباً . وقد أطلّت كبرياء القوة بقرنيها على مسرح التاريخ منذ العهود القديمة . فشاول ملك العبرانيين فى القديم ترسمه الأسفار المقدسة ، عند دعوته للمُلك ،رجلا باسلا وشخصية كريمة نبيلة ، ولكنه لايلبث طويلا حتى يخدعه السلطان وتغريه القوة ، فلا يقبل نصحاً ، لا من الناس ولا من الله .

وأولئك الفراعين الذين بنوا الأهرامات ليشيدوا فى أجيال التاريخ بقوة ملوك مصر وسلطانهم ، إنما كانوا فى الواقع يدقون المسامير فى نعش هذه القوة ، لأنهم بنوا هـــذه الآثار لتمجيد أنفسهم والإشادة بعظمتهم ، واستنفدوا فى هذا السبيل ثروة البلاد وقوة رجالها .

وأباطرة الرومان الذين أعلنوا أنفسهم آلهة على الأرض ، هم الذين أنجبوا من بينهم الطاغية نيرون الذى كان يغنى ورومية تحترق ، وصار فى التاريخ مثلا على الغرور الساخر والكبرياء الفاجرة .

والعصر الحديث حافل بكثير من الشواهد ، فالعروش التى تهوى اليوم ، واحد بعد الآخر ، إنما تستمد مادة انهيارها وزوالها من كبرياء القوة ، وجنون العظمة ، وبناء أبراج بابل لأنفسهم ، وتمجيد ذواتهم .

كبرياء العلم والمعرفة :

إن هذه الكبرياء هي خطية العالم ، والفيلسوف ، والاقتصادى ، وغيرهم من أرباب الفكر ، ممن يزعمون أن نظرياتهم هي الحق النهائى ، وينكرون أن العقل البشرى قاصر عن إدراك كل الأشياء . وهذه هي خطية الذين يجحدون الحق الذى أعلنه الله فى يسوع المسيح زعماً منهم أنه يناقض العقائد العلمية السائدة . وما أكثر الحمقى فى العالم الذين يتجاهلون جهلهم مسوقين إلى ذلك بكبريائهم العقلية . ألم ترَ إلى العقائد العلمية والفلسفية والسياسية التى لا تبقى على حال ، بل دائمـــة التغيير والتطور من عصر إلى عصر . وما أكثر الأشياء التى قبلها الناس كأنها حقائق مقررة وأقوال فاصلة جازمة ، وإذا بها تنقلب على نور البحث الجديد فنراها جهلا وبطلا ، ونسخر ممن قبلوها وآمنوا بها . ولا نعدو الحقيقة إذا نحن قلنا ان الحقائق الجازمة التى نؤمن بها اليوم ، قد تبيت فى الغد باطلة سخيفة فى نظر الذين يعيشون بعد مائة عام !!

الكبرياء الروحية :

ولعلها أمكر وأخطر أنواع الكبرياء . هى الخطية التى جعلت المسيح يتفوه بعبارات صارمة ، ويلقى سهاما من نار على أدعياء الصلاح والبر الذاتى ، والمتكبرين روحياً . لقد غفر للمرأة الخاطئة التى أمسكت فى زلتها ، ولكنه ما استطاع أن يغفر للفريسيين الذين أحسوا أنهم لم يرتكبوا شيئاً يستحق الغفران . ولعل أقدامهم لم تسعَ يوماً إلى الشر ، ولكن قلوبهم خلت من المحبة نحو أخوانهم .

وقد قيل انهذه خطية كثيرين من رجال الدين . وقديكون هذاصحيحاً . ولكن أغلب الظن أنها خطية المحترمين الموقرين الذين لا يكسرون الوصايا العشر مثلا ، ويشعرون بالاكتفاء الروحى إذا ذهبوا إلى الكنيسة مرة فى الأسبوع !!

وبعد ، لقد صدق اقدمون فى إحصاء « الكبرياء » ضمن الخطايا السبع القاتلة المميتة !!

الأمة الصغيرة !...

«... إن البشر لا يحصون بالرؤوس كما تحصى الأغنام والأبقار . وليست عظمة الأمة فى كثرة رجالها ، وقوتها المادية ، وسعة سلطانها ..» .

فى الطبيعة ، وفى التاريخ ، وفى الحياة الانسانية شواهد كثيرة تنبيء عن عظمة الأشياء الصغيرة . فإن البشر لا يحصون بالرؤوس كما تحصى الأغنام والأبقار . وليست عظمة الأمة فى كثرة رجالها ، وقوتها المادية ، وسعة سلطانها . ونحن إذا عدنا إلى التاريخ القديم نجد مصداقا لهذا القول . فبابل الصغيرة قد هيأت للعالم منذ القدم أرقى مجموعة من القوانين عرفها البشر منذ آلاف من السنين . وحمورابى الذى وضع هذه النظم القانونية بدأ حياته زعيما لطائفة صغيرة فى شعبه . ولم يلبث بقوة زعامته وعبقريته أن تسلط على كل بابل . وأخذ يجمع شرائعه من التقاليد والسجلات المبعثرة . ثم بوّبها وقننها ونقشها على لوحة من الرخام خالدة . ولما أن عثر المنقبون على هذه اللوحة بعد أربعة آلاف سنة وعرفوا تأويلها ومغازيها ، وقفت شعوب الأرض معجبة خاشعة أمام تلك العظمة الخالدة ، عظمة تلك الأمة الصغيرة التى لم يزد عدد سكانها عن سكان مدينة من مدائن هذا العصر .

وقد انطوت شريعة حمورابى على العدل والحق وشرف المعاملة . ولئن كانت بعض عقوباتها قاسية مريعة إلا أن الزمن السحيق الذى ظهرت فيه يبرر هذه القسوة . وهى فى مجموعها تحفة من تحف العقل البشرى ، وهبة للعالم من أمة صغيرة .

الفينيقيون

وإذا أدرنا البصر نرى فى ناحية أخرى من التاريخ البشرى أمة صغيرة قد أدت للعالم خدمة جليلة . فالفينيقيون كانوا شعباً صغيراً ضئيل العدد ، لم يبلغ ما بلغه المصريون فى فنونهم وعلومهم ، ولكنه كان قوة هائلة فى تربية العالم وتهذيبه . ولئن كانوا لم يبتكروا الحروف الهجائية إلا أنهم استنبطوا طريقة للكتابة فاقت الطريقة الهيروغليفية ، وطريقة التعبير عن المسميات بالصور التى جرى عليها الفراعنة . وهم الذين تولوا قيادة العالم فى صناعة القلم وهذبوا أساليب الحساب وعلم الفلك واخترعوا صـــناعة الزجاج وبعض الصناعات الأخرى .

وكان الفينيقيون قادة العالم فى الكشوف والمغامرات ، فهم الذين طافوا حول أفريقية واكتشفوا رأس الرجاء الصالح قبل أن يكتشفه « دياز » بعدهم بواحد وعشرين قرناً من الزمن . وقرطاجنة الصغيرة ربيبة الفينيقيين نازعت رومية سيادة العالم وأنجبت « هنيبال » أعظم نابغة حربى فى ذلك العصر . وهى التى بعثت بسفرائها للمتاجرة مع الجزر البريطانية قبل أن يطمح « يوليوس قيصر » فى تلك الجزر التى ظنها نهاية الكرة الأرضية ! ! .

وقد زالت « فينيقية » كما يزول قوس قزح . وذابت « قرطاجنة » كما يذوب الشمع . ولسنا نعرف اليوم السلالات البشرية التى تحدرت من الشعبين ، ولا اللغة التى كانا يتكلمانها . ولكن التاريخ شاهد على تلك العظمة التى لم يكن أساسها كبر الحجم ولا سعة السلطان .

جزيرة أقريطش

وهناك شعب آخر قليل العدد جداً له فى التاريخ مآثر غراء ــ هو الشعب الذى حل يوماً جزيرة أقريطش (كريت) ــ والذى ضرب بسهم فى الثقافة القديمة حتى حسبه المتأخرون شطراً من الأساطير اليونانية . وقد اندثرت معالم هذا الشعب ولكن تجدد ذكره فى هذا العصر بفضل مكتشفات الحفائر

والخرائب . ومما أيده التاريخ القديم أن الكريتيين احتكوا بالمدنية المصرية فانتقلوا من العصر الحجرى، وقفزوا قفزات عالية أخذاً بأغنى أسباب الثقافة التى يدركها العقل البشرى . وفى العهد الذى كان فيه العبرانيون يئنون تحت نير العبودية المصرية ، كان للكريتيين علوم وفنون لا تقل روعة وبهاء عن علوم مصر وفنونها . وكانت لهم قصور ونقوش ورسوم تضارع تلك التى برزت فيها اليونان فى مستهل تاريخها .

وقد ابتكروا ثلاثة أساليب للكتابة ، وحملوا ثقافتهم إلى جزر كثيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهيأوا لليونان نماذج رائعة من العلوم والفنون.

الاغريق

واليونان نفسها التى هى مهد الثقافة الحديثة لم تكن إلا أمة ضئيلة العدد . ولم تكن إلا مجموعة من المدن . وفى تلك التربة الخصبة أينعت بذور العلوم والفنون بعد أن أعدت تلك البذور للنماء فى مصر وأقريطش . ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه لم تبلغ أمة حتى فى هذا العصر ما بلغت أمة الإغريق من مجد وجلال فى الفن الروائى التمثيلى ، ومن كمال وإتقان فى الآداب والنقش والنحت والبناء. ولا يزال العالم منذ ألفين من السنين يرتشف من مناهل حكمة اليونان ـ تلك الأمة الصغيرة .

وإن أوربا لمدينة لليونان ، ليس ديناً عقلياً فحسب ، بل مدينة لها بحضارتها وحياتها . وهى التى ناضلت واستبسلت وعرضت صدرها لسهام عدو يفوق عدده رمال بحرها . هى التى وقفت بين أوربا وبين أكاسرة الفرس الطغاة الذين لولاها لاجتاحوها اجتياحا . ولم تكتف بموقف الدفاع ، بل بعثت بجيش من رجالها لا يربو على أربعين ألفاً من المقاتلين ، فتح الأمصار ، وجاب الوهاد والبطاح ، وعبر الأنهار والجبال تحت قيادة الاسكندر . وكانوا يحملون مع هذه الغزوات الحربية ثقافتهم اليونانية التى ظلت آثارها باقية حتى اليوم فى أنحاء الشرق .

وإذ وجه الاسكندر وجهه صوب الشرق لم يحفل كثيراً برومية . ولو

قدّر له أن يعود من فتوحاته حياً، لكان أخضعها للنير اليوناني . وحدث بعدئذ أن رومية هي التي أخضعت اليونان ، ولكن المغلوب أسر الغالب وابتلعت اليونان رومية العظيمة بثقافتها وعاداتها وآلهتها .

ولما حان الأوان لأن تموت وتندثر تلك الآلهة الصماء ليحل محلها الإله الحي ، كانت اللغة اليونانية هي اللغة المستعملة لإيصال هذا الحق إلى الجنس البشري وإذا أراد العالم اليوم أن يقرأ أقوال المسيح وكلماته كما عرفها المسيحيون الأولون ، اضطر أن يرجع إلى اليونانية التي استعملها الرومان أنفسهم بعد إذ سادت عليهم الثقافة والآداب اليونانية .

رومية

وبعد أن دالت دولة الاغريق تولت رومية سيادة العالم . وقد كانت هي صغيرة أيضاً خصوصاً عندما وصلت إلى أوج مجدها وذروة عزها . ولكن بعد أن توالت عليها الفتوحات ، ودخلتها العناصر الغريبة ، وطغا عليها سيل العبيد ، وأصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف ، عندما كبرت واتسعت ، بدأت قوى الانحلال والفساد تعمل على انهيار بنائها الضخم . كانت رومية الصغيرة قوية نشطة فائزة متحلية بالفضائل . وأما رومية الكبيرة العظيمة فكانت أشبه بدوحة يفسد السوس جذوعها .

والجمهوريات الايطالية الصغرى هي التي أنهضت العلوم والفنون وبعثتها من لحدها . فبينما كان سلطان رومية العظيمة يذوب وينحل ، كانت تلك الولايات والجمهوريات الصغرى تجاهد في سبيل استقلالها وحريتها . وفيها نبغ جبابرة في مختلف الآداب والعلوم والفنون أمثال (دانتي) و (بترارك) و (رفائيل) و (بتيتان) و (مشيل أنجلو) وغيرهم من أنجبتهم تلك المدائن الصغيرة بقلة عددها ، والعظيمة بأدمغة وقلوب رجالها .

وإذا ألقينا نظرة على التاريخ الحديث نجد شواهد كثيرة تؤيد هذ الرأي الذي ذهبنا اليه، فسويسرا الصغيرة أقامت نفسها مدة ستة قرون كاملة، نموذجا

حياً أمام العالم كله البسالة والتفانى فى سبيل الحرية الديمقراطية فى عصر كانت بلدان أوروبا الغربية كلها تحت نير حكامها العتاة المستبدين . وظلت هولندا الباسلة قرنا ونصف من الزمن صامدة أمام قوة أسبانيا وحلفائها مؤثرة المخاطر والآلام على التسليم فى حريتها ودينها أمام أعداء أقوياء وقوى حربية هائلة . وكان من وراء هذا الدفاع النبيل الحق أن ثارت فى تلك الأمة الصغيرة روح ناهضة ، وضعت هولندا فى مقدمة امم العالم فى الملاحة وفنون البحر والعلوم والآداب ، ونبغ من رجالها أفذاذ وجهابذة رفعوا شأن أمتهم الصـــغيرة بفضل عبقريتهم الفنية . ووقفت مصر صامدة أمام عدوان ثلاثى من دول كبرى تفوقها عدداً وعدة .

هذه شواهد من التاريخ القديم والتاريخ الحديث . شواهد ناطقة حيّة على أن عظمة الأمة لا تقوم على كثرة العدد . ومجدها لا تصوغه بالضرورة الملايين الكثيرة والجحافل الجرارة . وما أحرانا نحن الشرقيين — فى الجمهورية العربية المتحدة والبلدان العربية الأخرى — أبان نهضتنا ، أن نضع هذه الحقائق نصب أعيننا ، ونحن نجاهد لنتبوأ مقاعدنا تحت الشمس . قد تعوزنا الكثرة والقوة ، وقد تعوزنا أسباب العلم الحديث والمخترعات العصرية . ولكن لنذكر أن التاريخ حافل بالدروس والعظات ، وأن جموعنا القليلة قد تستطيع أن تتولى الزعامة فى نواح كثيرة من نواحى الحياة البشرية . ولنا فى شتى نواحى الحياة ملكات ومواهب نستطيع ، لو استخدمناها ، أن نؤدى أجل الخدمات للانسانية . لنا حضارات قديمة دارسة ، وماض مجيد ، وتقاليد دينية روحية ، ونهضة حديثة . وفى وسعنا أن نخطو خطى سريعة فى التقدم العقلى والرقى الفكرى والأخلاق ، لتعود إلى الشرق منارته الذهبية التى شعت فى سالف العصور على البشرية قاطبة .

ليست الطبيعة مرآة وجه الله الا...

« الأمر الواقع فى الطبيعة وجمالها ، انها لن تسمو بالانسان إلى أحلام السماء وخيالات العلى إلا إذا أقبل الانسان إليها موقناً أن الله هناك حاملا معه فى جعبة أفكاره الايمان بالله »

... يقولون إن الطبيعة مرآة وجه الله . وقولهم حق ، ولكنه حق معلّق بشرط ...

فأنا لست أنكر . . أن الطبيعة الجميلة ترفع النفس إلى أماكن الروح العلوية ، حيث تتسمع صوت الله وتنظر إلى وجهه ، فصفاء الفجر وأمجاده تنبئنا بقوة الحياة وتكريسها ، وجلال المغيب وروعته تحدثنا عن هدوء النفس ومصيرها .

وقد نخرج إلى الخلاء فى ليلة هادئة ، ونرفع أبصارنا إلى السماء المرصعة بالكواكب ، فيخيل إلينا فى هدوء الليل وراحته أن آلام الحياة ومتاعبها وهمومها ليست إلا خيالا عابراً . وقد نصعد إلى المرتفعات والربى فنحس بحياة وانتعاش ، ينسياننا تلك المضايقات الأليمة التى توغر منا الصدور . ان الطبيعة لدى كثيرين أشبه بهدب الثوب الذى متى لمسوه عادوا أصحاء .

هذا كله قول حق . وقد عرف بالاختبار كاتب هذه السطور شيئاً منه . غير أننا نتسمع من ناحية أخرى حديثاً آخر . وتقع العين على مشاهد نقف

أمامها حيارى . فبينما نرى الطبيعة رائعة بديعة فى جمالها وجلالها وقوتها نراها أيضاً قاسية جبارة فى صراعها وبطشها — فيها نرى الأسد يبطش بالظبي ، والصقر يلتهم العصفور ، والصياد يقتنص الطائر ، والسمكة الكبيرة تبتلع الصغيرة من جنسها . نكاد نحس فى مشاهد كهذه أن تنازع البقاء هو ناموس الحياة وحسب .

ولقد حاول كثيرون من الزنادقة والملحدين أن يمثلوا الطبيعة أمامنا كمسرح دموى قتال يلعب فيه الأحياء أدوارهم،ويقودهم فى ذلك شيطان رجيم زنيم هو الجالس على عرش الكون . فأمواج البحر التى تمتع أنظارنا برغواتها المزبدة ، تبدو وحشاً ضارياً ، وصوتاً كريهاً منفراً لتلك الأم الثكلى التى ابتلعت الأمواج وحيدها فى حدث من أحداث الحياة .

ليست الطبيعة بالضرورة مرآة لوجه الله . فلقد حدثنى صديق قادم من بلاد الهند فقال إنه خرج ذات يوم إلى غابة جميلة تطاولت فيها الأشجار فى الفضاء،وتناثرت فى جنباتها الأزاهير البرية . فاستحال منظرها فردوساً للجمال الرائع ، وتعالت فوقها جبال اكتسحت قممها بالألوان الخلابة ولكن فى زاوية قصيّة من تلك الغابة وقع نظره على فتاة هندية يعذبها قوم غلاظ الأكباد ودمها الحار يسيل أحمر قانياً على صدرها — هى فريسة القسوة الغاشمة والوحشية الضارية .

فى أجمل الأماكن سحراً وأروعها منظراً قد يكون الإنسان أبعد الخلائق عن الله . فالهمج المتوحشون فى أواسط أفريقية وجزر البحر الجنوبية كانوا يعكفون إلى عربدة وحشية ، ويمزقون اللحوم البشرية بأسنانهم ، وينغمسون فى ممرّات مخزية . يفعلون ذلك وحولهم الطبيعة تنشر أمام عيونهم المظلمة أجمل ما أبدعته من روائع مناظرها ، وبدائع سحرها .

ولماذا نذهب بعيداً : لنأخذ إحصائية الجرائم فى أى بلد من البلدان

فى العالم ، ولنقارن بين جرائم القرى والضياع وجرائم المدن والحواضر . ففى تلك القرى والضياع التى تكسوها الطبيعة ثوباً من الجمال الفتان والمناظر الخلابة ، تُرتكب جرائم أكثر فى عددها وأشنع فى وصفها مما يرتكب فى المدن التى حرمتها الطبيعة نعم الجمال .

وحيال هذا لا يسعنا إلا أن نصرخ مع أيوب قائلين « أما الحكمة فمن أين توجد ؟ وأين هو مكان الفهم ؟ .. القمر يقول ليست هى فىّ . والبحر يقول ليست هى عندى ». والروابى والغابات ، الأنهار والمروج ، الجبال والأودية ، كلها تقول ليست هى فىّ ! !

وهل إذا جاءك — أيها القارىء الكريم — إنسان مضنى القلب كسير الفؤاد لخيبة روحية أو أدبية تعثر فيها ، هل إذا جاءك لينشد النصح تقدر أن تقول إذهب إلى الجبال تقيلك من إعثارك ، أو ترقب الفجر ليملأ بجدّة الحياة نفسك ، أو متع ناظريك بالورود والأزهار ليفيح للناس عبيرك ، أوقف على البحر فتطهّر نسماته المعطرة أوزارك ؟ . .

لا ، ان إنساناً ساقطاً متعثراً يفتقر إلى شىء آخر ليس من هبات الطبيعة ، إلى « شخص » يأخذ بيده وينتشله من وهاده !

والأمر الواقع فى الطبيعة وجمالها ، انها لن تسمو بالإنسان إلى أحلام السماء وخيالات العلى ، إلا إذا جاءها أولا موقناً أن الله هناك ، حاملا معه فى جعبة أفكاره الإيمان بالله .

ومما يروى عن القديس اغسطينوس حديثه المأثور مع الطبيعة فى قوله :

« سألت الأرض فاجابت لست أنا هو . سألت البحر وأعماقه وما فيه من زواحف وأحياء ، فأجابنى لست أنا الله . سالت النسيم العليل والعاصفة العاتية والهواء وما فيه من عناصر ، فقيل لى أنت مخطىء أنا لست الله . سألت السماء والشمس والقمر والكواكب، فأجابتنى كلها لست أنا مطلبك .

« ناجيت جميع الخلائق التي تحيط بمنافذ حواسي الجسدية ، قالت لي إن الله ليس ههنا .

« إذاً، نبئيني أين هي ؟ فصرخت كلها بصوت واحد : هو الذي صنعنا ! »

أجل . ليست الطبيعة مرآة وجه الله إلا إذا غُمرت قلوبنا بالإيمان بالله . .

والطبيعة مرآة تنعكس عليه أفكارنا وهي تقدم لنا مما نعطيها . فإذا أخذنا إليها أفراحنا ومسراتنا ، ومرحنا في جنباتها بهجة القلب ومسرة الخاطر ، عندئذ ترقص أمامنا طربا وتبتهج جذلا . وبالعكس إذا ذهبنا إليها بأتراحنا وأحزاننا ، بدت أمامنا باكية منتحبة تذرف الدمع مدراراً . وقد نتخيل الأمطار المتساقطة من السماء دموع الحزن والبكاء تذرفها من مآقيها لمشاركة الحزانى المتألمين ، أو دموع الفرح والابتهاج تسكبها لمشاركة الراقصين المغتبطين — حسب الموقف الذي نقفه في خيالاتنا وأحلامنا !

وللشعراء في خيالاتهم وأحلامهم تشابيه متباينة عن الطبيعة . فمنهم مَن يمثل النجوم والكواكب بعيون حزينة متلمعة قد جفّ الدمع فيها من فرط الألم . ومنهم من يمثلها بعيون الذئاب الجائعة تترصد الأرض الجاثمة تحتها . وفيهم مَن يمثلها بعيون الله العلي يبدو فيها جماله وجلاله . .

عرفت فتاة غضة الأهاب في الثامنة عشرة من عمرها ، لاقت من ويلات الحياة في هــذه الفترة الوجيزة ما لم يلاقه الشيوخ المعمرون في عشرات السنين . كانت تصارع داء التدرن في رئتيها . وكانت تسكن مصحة جميلة في ضيعة جبلية أحاطتها الطبيعة بكل أسباب الجمال والبهجة ، ولكنها كانت تناجي نفسها قائلة :

« ما أشد كرهي لهذه المناظر ! هذه التلال الصامتة التي لا تتكلم !

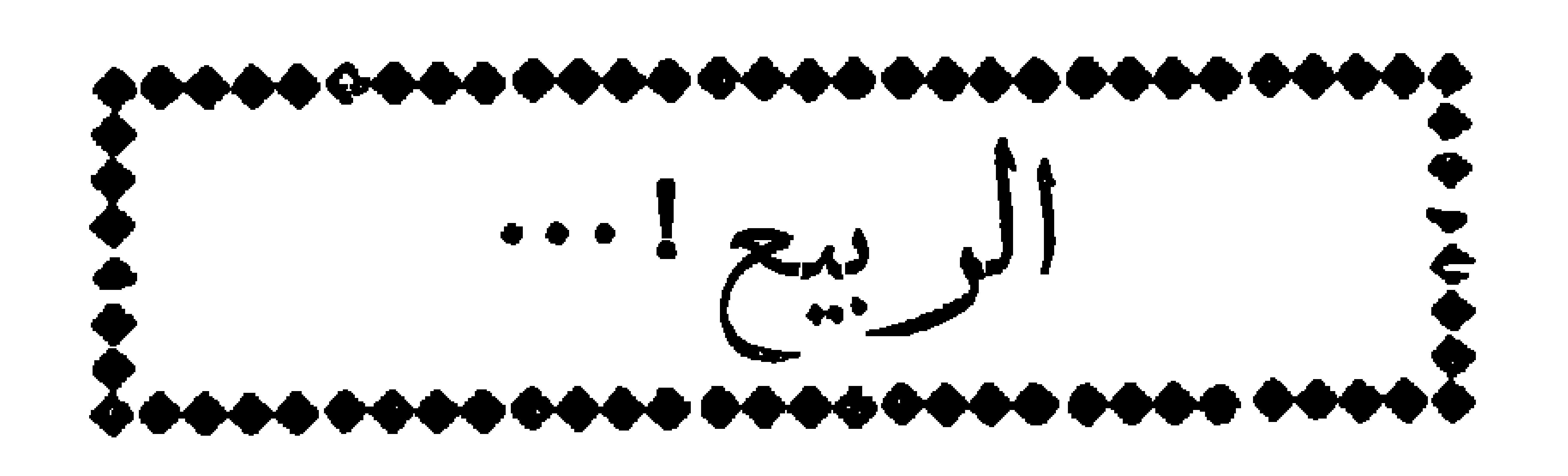
هذه الطبيعة الساكنة الهادئة التي لاتنطق أمام بلواي ! أريد صديقاً يتحدث إليّ وقلباً يتفاهم معي ! »

أجل.. لن تزينا الطبيعة الله إلا إذا عمرت قلوبنا أولاً بالإيمان بالله! وإذا ذهبنا إليها بمثقال ذرة من الإيمان عدنا بقناطير مقنطرة من الخير والبركات. هي هدب « ثوبه » ولكن الشفاء « منه » وليس من الثوب!

قرأت مؤخراً نبذة عن حيـــاة كاتب شهير، كان أكثر الناس تعشقا للطبيعة. تسمع في غاباتها وأوديتها وجبالها وأنهارها ما لم تتسمعه إلا كل أذن خيالية مدربة. ومع ذلك كان ممن كرهوا الدين ولم يعبأوا به شيئا. ولمـا حضرته المنية في الأربعين من العمر، رقد على سرير الموت يائساً مستوحشاً جائع النفس ضامر الروح. وفي حالته هـــذه عاد إلى الكتاب المقدس. ولما سمع زوجته تقرأ له من بشارة لوقا التفت إليها وقال: « هذه كلمات يسوع، كلها حق، وكل فلسفة عداها باطلة جوفاء. لقد اقترفت خطأ وفكرت خطأ، يالحماقة الغرور العقلي »!

وبعد مدة وجيزة انتقل من هذه الحياة يردد على لسانه، ليس اسم الطبيعة، بل الإسم الذي فوق كل اسم — يسوع!

هذه حقيقة من حقائق الحياة. ليست الطبيعة كافية للقلب البشري. هي طريق نجوز فيها وليست مرساة نستقرّ عندها. وأمام أزمات الحياة ومصائبها وويلاتها تهتز النفس وتترنح. وعند حلول تلك الظلمة النهائية التي نغمض فيها عيوننا، يوم لا نقوى على تمييز الجبال والأودية والبحار والأنهار والسماء والكواكب، لا تنفعنا الطبيعة شيئا. إنما حاجتنا إلى صديق رقيق، فيه تجد النفس مرساتها، صديق تبتسم عيونه بالإشراق في أعيننا، وتمتد يداه إلى عوننا. صديق له قلب يفهم — يسوع!!



الربيع !...

« كما أن نواظرنا الطبيعية تستمتع في فصل الربيع بازاهير البستان المادى التى تسكب عطر أنفاسها فى الفضاء ... فان أفكارنا الروحية تتجه إلى بستان فيه صليب ، وفيه قبر ، وفيه حياة .. »

في كل عام نودع دورة من دورات الطبيعة . دورة ينقضى فيها الشتاء بقره وزمهريره ، ويستيقظ بعدها الربيع بجماله ، وبهائه ، ووروده ، وأزاهيره ، ويليها بعد قليل الصيف بقيظه وحره ... دورات منتظمة ثابتة لم يرو قط فى التاريخ البشرى ان اختل نظامها يوماً من الأيام ! . .

نواميس إلهية لايعتورها تغيير ولاتبديل . وهذه النواميس الثابتة هى قوام الحياة فى هذا العالم المادى . بدونها لايستطيع المهندس أن يبسط قنطرته فوق الأنهار ، أو يحفر نفقه فى بطون الجبال . بدونها لايحلق الطيار بطيارته فى السماء ، ولايبعث الكهربائى بموجاته اللاسلكية فى الفضاء . بدونها لن يقوى الإنسان على مقاومة الأسقام والعلل البشرية ، ومكافحة المساوىء والموبقات الفردية والاجتماعية .

وهذه النواميس الالهية — طبيعية كانت أو أدبية أو دينية — تتخلل كل شىء فى حياتنا ، وتعلن لنا محبة الله للبشرية فى ظواهرها الكثيرة المتعددة .

وناموس محبة الله بالذات يقوم على الألم والتضحية . ولهـذا الناموس الروحي نظائر في العالم الطبيعي . فإنك إذا ألقيت نظرة على أزاهـير الفصل — فصل الربيع — تجد ناموس التضحية والألم بارزاً للعين المبصرة. ألا ترى الزهور اليانعة تموت وتذبل لتحيا الحشرة الآكلة التي تمتص دمها وحياتها ؟ ألا ترى تربة الأرض الخصبة تبذل مافيها من خصب ودسم لتحيا الأشجار المورقة ، وتزدهر الورود النضرة المزدهرة ؟

وكما أن نواظرنا الطبيعية تستمتع في فصل الربيع بأزاهير البستان المادي التي تسكب عطر أنفاسها في الفضاء ، وتتأمل مظاهر التضحية المنبثة في أرجائه، فان أفكارنا الروحية تتجه في فصل الربيع إلى بستان آخر ...

إلى بستان « جثسيماني » عند سفح جبل الزيتون ، حيث صارع المسيح آلام النفس تحت ظلال أشجار الزيتون العالية ، التي كانت تغتسل أغصانها بأشعة القمر ، وحيث سلم إرادته لنداء التضحية التي مآ لها المجد .

وإلى بستان الجلجثة ، إلى بستان فيه صليب وفيه قبر وفيه حياة ...

وكانت الجلجثة رابية مرتفعة مستديرة خارج أسوار أورشليم تراها العين من بعيد كأنها جمجمة إنسان . ولسنا نظن أنها كانت مجرد مرتفعة عارية جرداء خصوصاً في فصل الربيع حينما تزدهر في ربوع فلسطين الأزهار البرية . والمرجح أنها كانت مكسوة بنباتات الخزامى الزرقاء ، وشقائق النعمان القرمزية ، وأزهار الخشخاش الحمراء القانية .

ولسنا نقدر اليوم على تحقيق مكان تلك الرابية بالضبط ، وإن كانت التقاليد ترشدك اليوم في مدينة القدس القديمة إلى بستان هادىء يقولون ان فيه القبر المقدس ، وعلى مقربة منه تلة الجلجثة . ولـكن هـذا لايعنينا ، فانها مرتفعة خالدة ارتسمت أوضاعها وألوانها ومعانيها في قلوب ملايين البشرية مدى أجيال التاريخ، لأن عليها قام منذ ألفي سنة صلبان ثلاثة تطاولت في

الفضاء ، ووقعت عليها أنظار الغادين والرائحين . وفوقهـــا ارتفع صليب مخلص البشرية ـــ مرآة تجلت فيها محبة الله ورحمته بالعالمين .

ومايزال الصليب منذ ذلك العهد مرفوعاً متطاولا فى الفضاء . فاننا إذا أردنا النظر إلى المسيح لابد أن نرفع أبصارنا إلى العلاء . ولن يفهم معنى الصليب إلا الوجه المرتفع والقلب الخاشع المتعبد . ولم يعد الصليب منصوبا على الأرض، بل قد ارتفع حتى عانق السماء ليضمن للبشرية مصالحة خالدة . .

ومهما تكن مواقفنا سواء أكنا فى وادى الحزن والمذلة ، أم فوق جبل الغبطة والعظمة . فإننا نستطيع أن نرى الصليب باسطا ذراعيه الممدودتين على حياة الإنسان ، إلى أقاصى الأرض وإلى أبعد حدود الزمن . .

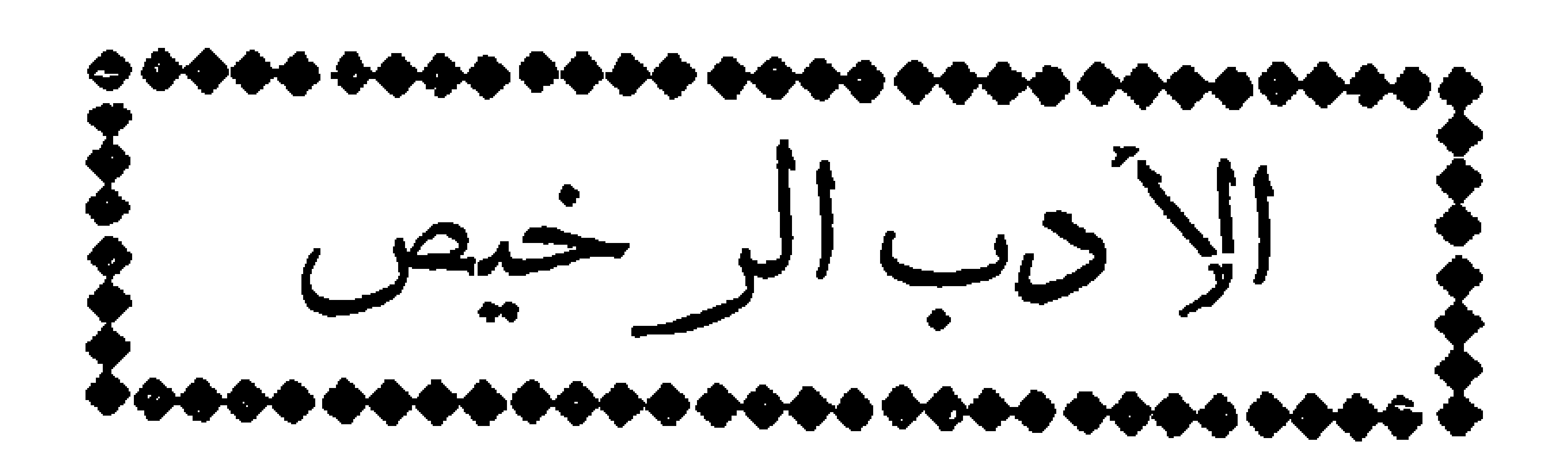
ارتفع الصليب فوق رابية على قارعة الطريق حتى شهده الغادون والرائحون إلى أورشليم . وكانوا يهزون رؤوسهم سخرية قائلين « خلّص آخرين اما نفسه فلم يقدر أن يخلصها » . وكان مكان الإعدام فى العصور الغابرة على قارعة الطريق لادخال الرهبة والخوف فى قلوب من تحدثهم نفوسهم بارتكاب الجرائم . ومايزال بعض الأحياء فى بلدان الشرق يذكرون كيف كانت تنصب المشانق فى الأسواق والميادين عبرة للناظرين. وهكذا أقيم صليب المسيح على قارعة الطريق ، وربما تكون تلك الطريق معبدة للسير حتى اليوم ، أو ربما تكون قد طمرتها الأحداث التى توالت على المدينة المقدسة ، أو ربما تكون اليوم حقلا من حقول الحنطة ، أوخربة من الأرض مغطاة بالحسك والأشواك . لسنا ندرى ولايعنينا الأمر كثيراً . لأن الصليب مافتىء قائما على قارعة تلك الطريق التى يمرّ فيها الناس جيئة وذهاباً بين الشفق والغسق حتى ينقضى يوم الحياة ـــ فليس الصليب شبحا بعيداً متباعداً عن شؤون حياتنا اليومية العادية ، بل هو قوة تؤنب وتدين متى ندمنا . تخجل وتذل متى عاندنا . تتودد وتتقرب متى تباعدنا . تعزى وتغيث متى آمنا . . قوة تعكس أمام أبصارنا نور محبة الله لأبناء الانسانية !

قد يموت أى إنسان فيموت مرة واحدة . قد يُصلب أى إنسان مرة واحدة . أما المسيح فقد يُصلب فى أى وقت مراراً وتكراراً . وقد يرتفع على خشبته متألما على قارعة أى طريق من طرق حياتنا المعوجة الملتوية . قد تصلبه من جديد كلمة تنفرج عنها شفاهنا ، أوصنيع تأتيه أيدينا يكون مضاداً لمشيئة الله وروحه . فهل نشك بعد ذلك أن الصليب مازال مرتفعاً على قارعة الطريق حتى اليوم ؟ !

أفلا نرى بأعيننا المصلوب معلقاً عليه كل يوم وقد نجوز « مقابله » ، بل قد تشترك أيدينا فى دق مسمار ، وقد تجود ألسنتنا بكلمة استهزاء ؟ !

وكان إلى جانب الجلجثة بستان وكان فى البستان قبر فارغ . . ومع أن هذا البستان لن يمكن الآن تعيين موقعه ورؤية أزهاره الباسمة وقبره الفارغ . إلا أنه يمثل أمام خيالاتنا شعار الحياة فى جمالهـــا ومسراتها المتنوعة الأسباب والألوان . كما أنه يمثل أيضا شعار أسرارها الغامضة وكآبتها المستحكمة القاسية . ولكل إنسان حقبة من الزمن تسطع فيهـا أشعة شمسه وتزهر فيها أزهاره . ولكن ترى ماذا بعد اختفاء هذه الأشعة وذبول هذه الأزهار ؟ ! لكل حياة بشرية « بستانها » . وإلى جانب هذا البستان يرتفع الصليب فيلقى على الحياة ظل النعم والرجاء . وفى هذا الظل نلمح عناية الله ورعايته . نرى محبته ورحمته .

تحت ظلال الصليب المتطاول فوق حياتنـا ، نستنبت أبهج الآمال التى تتملكها النفس ، وتقوى على الصبر والانتظار حتى ندرك أسرار هذه الحياة الغامضة علينا ، والممتزجة تارة بالغبطـــة وأخرى بالألم . تحت ظلاله ندرك فى كل تقلبات حياتنا ، وفى فصولها المتعاقبة ، سلام الله ، السلام الذى يفوق كل فهم ! ...



الأدب الرخيص

« لا تقدر أن تشفى إنساناً من مرض سرى ،
كما تشفى الكلب من الجرب ، ذلك لأن جراثيم الداء
باقية هناك فى النفس ، لا فى الجسم ، وكامنة فى الشهوة
التى لا تبرأ إلا بالحب والطهر » .

... أرأيت إلى بعض الصحف الرخيصة التافهة كيف تسوّد صفحاتها بوصف الحوادث القذرة والجرائم الدنيئة ، وكيف تهتك الأسرار المستورة ، وتبتكر الروايات المثيرة ، وتنزل إلى أحط دركات السفه والتبذل .

إنها تفعل ذلك لتجذب إليها جمهور القارئين ، لأنها تعلم أن الطبيعة الحيوانية الشهوانية فى الإنسان تنقاد إلى هذه البواعث فى غير عناء . ويتحدّث كبار كتابنا عن محنة الأدب فى الشرق ، وعن كساد بضاعة الأدباء والكتّاب ، وطغيان التافه الذميم الرخيص من الأدب على الكريم القيّم منه . أكتب مقالا أو كتاباً عن مغامرات غرامية لطاغية من الطغاة ، أو قصة سفاح من السفاحين ، أو فظائع قوم من غلاة المجرمين ، ترَ الناس يقبلون إلى قراءته ، ويروج المقال أو الكتاب فى سوق الأدب — وإن شئت فقل سوق الرذيلة ! ولكن أكتب مؤلفاً فى الأخلاق أو الدين أو الأدب أو الاجتماع ... فما أصعب رواجه وما أقل قرائه !

وأنا أدعو إحدى المجلات الكبرى إلى القيام باستفتاء طريف ، بأن تضع قائمة من الشخصيات البارزة فى الشرق من رجال الأدب والدين والعلوم

والفنون الرياضية والتمثيل والسياسة والجريمة الخ ، وتسأل مجموعة من الناس ممن يمثلون « الجمهور » لعلها تعرف رأى « الشعب » فى هؤلاء الناس الذين يسمع بهم كل يوم . . . وأنا لا أريد أن أتنبأ ، ولكن أكاد أوقن بان نتيجة الإستفتاء ستكون دليلا على سيادة الطبيعة الحيوانية الشهوانية فى الإنسان ، لأن الأكثرين سيعرفون كواكب السينما وأبطال المسابقات والمراهنات ، وغلاة المجرمين ، و « أزياء » النساء ، ويجهلون الأدباء والعلماء والكتاب والمفكرين . . .

وَيحنا نحن البشر ! ان المجون والهزل والجريمة والرذيلة أكثر تسلطاً على الإنسان العادى من الحق والجدّ والفضيلة . وان العنصر الحيوانى الشهوانى فينا أقوى من العنصر الروحى النورانى . على أن المجون والخلاعة والشهوة لن تشبع الإنسان فى آخر الأمر ، لأنه جدّ مفتقر إلى الجد والرزانة ، والحق والحب . وليست الشهوة طبيعية فى الإنسان ، لأنها تغفل العنصر الأسمى والأرقى فى حياته . وكلما أوغل الإنسان فى الشهوة ، زاد انحطاطا وتبذلا لاتباع شهوات مستحدثة يبتكرها خياله السقيم ، وأخيراً ينزلق إلى قرارة سحيقة لا مهرب له منها . هذا مصير الإنسان الذى تفشل معه القوة الأدبية الروحية ، وتعجز عن السمو به من المستوى الحيوانى ، إلى المستوى الإنسانى ، بل المستوى الإلهى !

ولعلك لا تمجّ الطبيعة الشهوانية فى الحيوان الأعجم ، لأنها أمر مألوف طبيعى ، تعمل بالأكثر على إبقاء النسل ، وفى أزمنة معينة . ولكن الطبيعة الحيوانية الشهوانية فى الإنسان أمر غير مألوف ، ومتى خرجت عن حدودها ، باتت بذيئة ، فحشة ، بشعة . والشهوة فى الانسان تكون غالباً دنيئة ، منحطة ، لأن الباعث إليها ليس دائماً توالد الحياة والابقاء على النسل وحسب .

وتبذل اليوم فى الشرق ، وفى العالم كله ، جهود جبارة لمكافحة الأمراض

السرية . وهى ضربة موجعة يجب أن نكسر شوكتها . ولكن وراء أعراض الداء ووسائل العلاج مشكلة أعمق وأدق ، مشكلة إنسانية خلقية . فأنت لا تقدر أن تشفى الانسان من مرض سرى كما تشفى الكلب من الجرب ! ذلك لأن جراثيم الداء باقية هناك فى النفس ، لا فى الجسم ، وكامنة فى الشهوة التى لا تبرأ إلا بالحب والطهر .

إن قصة الرجل والمرأة ، وهما يقطعان مراحل التاريخ ، من أروع القصص التى يتألف منها التاريخ البشرى . فهما قد اشتركا معاً لاكثار الذرية وتوالد النسل . ولكن أحياناً يقتربان جسمانيا ، ويتباعدان روحياً . ولكى يصير هذا التقارب روحياً سامياً ، يجب أن يتغلب الحب على الشهوة ، والفضيلة على الرذيلة ، والحق على الباطل . ولن يقدر أن يعيش الرجل والمرأة بجرد خليلين لأنهما خلقا شريكين .

وفى تركيبنا البيولوجى قوة هائلة تسوقنا إلى التوالد وإكثار النسل ، ولكن إلى جانبها قوة أخرى ، أدق حساً ، وأقوى أثراً ، وأنبل قصداً — هى التى تسوقنا إلى شركة أعمق ، إلى طهر الحياة . وحتى إن استطاع العلم بمبتكراته الحديثة أن ينقذنا من الأمراض السرية ، فستبقى الشهوة لعنة كريهة تلصق بحضارة هذا الجيل ، لأنها تحول دون الشركة والتعاون بين الرجل والمرأة تعاوناً نبيلا فاضلا .

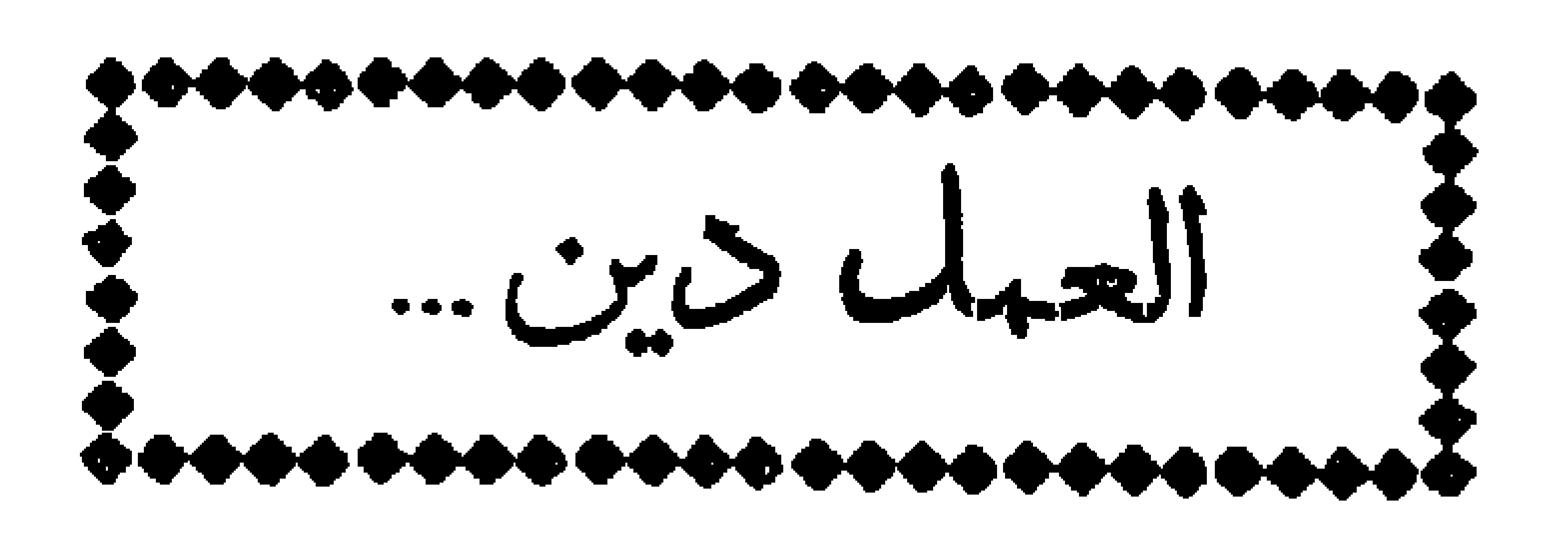
ووراء أشباح الحرب التى تهدد العالم ، ووراء المادية القاسية الناشبة مخالبها فى أجنحة الحياة ، ووراء النزعة الالحادية التى تبعد الانسان عن خالقه ، ووراء صنوف المظالم وألوان القسوة . . . وراء هذه كلها تقف الشهوة تتهادى فى شكل إمرأة ترتدى ثياباً أنيقة ، وقد برز صدرها ، وعلت شفتاها ابتسامة شريرة صفراء تومىء بها إلى الانسان أن يسير وراءها . والناس يتكالبون على الثروة ، ويتهالكون على القوة والجاه والصيت ، ويدوسون بعضهم

بعضا ، ويهرق بعضهم دماء بعض ... لكى يظفروا بأكاليل الغار يطرحونها عند قدمى آلهة الشهوة لعلهم يحظون بقبلة محرقة من فمها الملتهب بالنار ! ولكنهم يجدون تلك القبلة لعنة ، لا تترك وراءها إلا نفساً جائعة ظامئة .

وتباً لذلك الفرنسى الذى كان أول من ابتكر القولة المأثورة « فتش عن المرأة » ، وهى قولة يرددها الناس اعتباطا إذا أرادوا استقصاء أسباب الشقاء والجريمة فى الحياة . على أن المرأة المقصودة هنا ليست المرأة الحقيقية التى لا تجرؤ الشهوة على الاقتراب منها . لأن مثل هذه المرأة هى التى تدعو الناس إلى السلام لا الحرب ، إلى التجديد لا التدمير ، إلى الخدمة لا التناحر ، إلى الحنان لا القسوة ، إلى الحب لا الشهوة . هى التى تحدثنا عن حنان البيت ، وتضحية الأمومة ، وسذاجة الطفولة ، وجلال الفن ، وروعة الموسيقى ، وبسطة الانشراح . هى الرفيقة الوديعة ، الابنة الباسمة كزهر الربيع . ومتى عاش الرجل للمرأة ، وعاشت المرأة للرجل ، وعاش الاثنان لله — عندئذ يستلهم الرجل وحيها ، وتفيض عليه من خزانة عطفها كل طريف فى الفن والموسيقى والآداب والثقافة ، وحتى فى التجارة والصناعة والسياسة والاقتصاد الخ . وتتبوأ مكانتها فى الحياة إلى جانب شريكها .

هذه هى المرأة التى يخشاها الانسان الحيوانى فينا ، لأنها تتحداه بالتفوق عليه ، وتقف سداً فى وجه قوته الغاشمة ، وتنتزع منه انتزاعاً احترامها وهيبتها ، وتهزأ من غروره وخداع نفسه ، وجموده وبلادة حسه . وأخيراً تكسر شوكة شهوته !

إن الشهوة فى الانسان أكذوبة كاذبة ، ولطخة شائنة سوداء ، تلطخ جبين الحق ، والفضيلة ، والطهر ، والجمال ، والحب !



العمل دين ...

« إنها فكرة وثنية تلك التي تطغى الآن على العالم ، فتوسوس إلى النفوس أن تأكل وتشرب وتطرب لأنها غداً تموت . وأجل خدمة يسديها المرء إلى وطنه وإلى العالم أن ينظر إلى العمل الذي بين يديه نظرة جدية ، ويؤديه « كمن يرضى الله لا كمن يرضى الناس » .

عرفته عاملا مكدوداً يكدح دائباً ، وقد ارتسمت على جبينه أمارات الكد والضنى ، والإعياء والأسى .

عرفته موظفاً يقضي ساعات عمله في مكتبه ، كأنها السنون الطوال يتوقع بفارغ الصبر نهايتها للافلات من سجنه الفكرى .

عرفته طالباً يحسب ساعات مدرسته أشق ساعات اليوم ، ويود لو تنتهي سراعاً ليريح نفسه من الملال .

ولعلى لا أعدو الحقيقة إذا قلت ان كثرة الأفراد في مجتمعنا مهما تنوعت أعمالهم ، يحسبون العمل الذي يؤدونه في الحياة عبئاً ثقيلا يتململون تحت حمله . وكثرتهم يؤدون الواجب المفروض ، إما لمجرد كسب الرزق ، أو لخوف من عقاب ، أو على أحسن الفروض — إرضاء للضمير . وذلك لانعدام اللذة في العمل ، وفقدان العوامل الحافزة إلى الاجهاد والابتكار .

ولست أنكر أن العمل في هذا العصر يختلف عما كان عليه في عصر الآباء والأجداد . فالحياة قد أضحت زحاماً متدافعا ، وتنوعت فيها أسباب العناء .

والمشقة ، وتكاثرت العوامل المنهكة للأعصـــاب والمضعفة للقوى . حتى ليحسب المرء نهاية عمل اليوم فرجا عن نفسه المتضايقة ...

كل هذا حق لاسبيل إلى إنكاره . ولكن كراهية الانسان لعمله واعتباره عبئا ثقيلا ، شر مستطير يترتب عليه اضمحلال الفرد وفناء القومية . ولقد قال مؤخراً أحد المؤرخين ان تدهور الامبراطورية الرومانية يرجع إلى « انعدام حسن الارادة ، وندرة الأمانة ، وفقدان اللذة فى العمل المجدى » . والتاريخ يعيد نفسه . والعوامل التى عبثت بروما القديمة تعبث بأية أمة فى هذا العصر . وعندى أن شغف الانسان بعمله وإخلاصه له وتفانيه فى أدائه مهما كانت البواعث المثبطة للهمة ، لمن أقدس الواجبات المسيحية .

وذلك لأن العمل الذى أعطانيه الله فى الحياة ، كبر أو حقر ، علا أو خفض ، دين أنا مدين به لله أولا ، ثم للناس ثانيا ، ثم لنفسى ثالثاً .

دين لله

هودين لله . لأن الانسان خلق على صورة الله . والهدف الأسمى فى الحياة أن يحتفظ المرء بهذه الصورة رائقة صافية ، لاتشوبها شائبة . والذى نعلمه فى هذا العصر أن الله عامل باستمرار فى الكون الذى صنع . هذه حقيقة لاشك فيها ، انتهت إلينا من المكتشفات التى أزاح عنها العلماء الستار فى الثمانين سنة الأخيرة . وحين أعلنت الملأ نظريات النشوء والارتقاء لأول مرة خيل إلى رجل الدين فى ذلك العصر انها كفر وإلحاد ومروق عن الحق القويم. ولكن بعد هدوء الفورة الفكرية علم الناس أن هذه النظريات لاتقصى الله عن الكون، بل بالأولى تضعه فى مركز الحياة فيه . وترى اليوم أكثر من أى عصر آخر ان كل الأشياء « به تحيا وتتحرك وتوجد » .

وكانت الفكرة القديمة فى خلق العالم أن الله بعد أن أكمل عمله ، ابتعد عن العالم كثيراً ، واستقر فى راحة لانهائية ، تحيط به أجواق الملائكة بكرة

وعشيا . ونظرة واحدة إلى الأناشيد والترانيم الدينية التى وضعها المؤلفون منذ خمسين سنة تدلنا على أن هذه الفكرة قد تأصلت جذورها فى الفكر المسيحى . ولكن نظريات العلم قد أجدت علينا فكرة سامية عن الله ، الله العامل بلا ملل فى كونه ، مصدر كل حياة فى العالم ، العقل المبدع المجدد ، الصانع عجائب كل يوم ، البناء الذى لا تغفو له عين فى رقابة الكائنات التى أبدعها .

الله هو العامل الخالد الأبدى . ونحن معشر أولاده الذين خلقنا على صورته ، مدينون له بان نحاكيه ، فلا ترتخى أيدينا فى عملنا ، ولا تتبلد عواطفنا فى شعورنا .

دين لزملائنا

والعمل دين مدينون به لزملائنا من بنى الانسان . وقد مضى عصر فى التاريخ كان فيه الانسان قانعا مكتفيا بما تنتجه يداه ، فأغنته جهوده الفردية عن الاستعانة بالآخرين . ولكن تلك الأيام قد ولّت . وتاريخ الحضارة من ناحية واحدة على الأقل ، هو تاريخ تبادل المنافع بين الجنس البشرى واعتماد الفرد على غيره فى قضاء حوائجه ، وتوفير أسباب عيشه . وأنت اليوم تعتمد على جمهرة من الناس فى مختلف الأنحاء لإعداد غذائك وكسائك وأسباب رفاهيتك الجسمانية والعقلية والروحية . فلا ينقضى يوم دون أن تعمل ألوف من الأيدى فى كثير من رقاع العالم لخدمة جسومنا وأبداننا ، ولا ينقضى يوم دون أن يبذل المؤلفون والفنانون والموسيقيون من عصارة حياتهم لخدمة عقولنا ومشاعرنا .

والانسان الأنانى الميال إلى الأثرة ، الذى لم يستنر عقله يوما بفكرة الخدمة ، قد لا يأنف أن يعيش طفيليا على حساب الآخرين ، ولا يرد شيئا سوى دراهم معدودات أو غير معدودات ، ينقدها بديلا عن المنافع البدنية والعقلية . واحسبه يختال فى الأرض زهواً وكبراً حين يشعر أنه يستخدم ألوفاً من البشر لقاء حوائجه ، ولا يفعل هو شيئاً للمجموع ...

إن موقفا كهذا لا يتفق وكرامة الانسان — ولا يليق على الأقل بالمسيحى لأنه مناف لتعاليم سيده : من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن خادماً — فالعمل فى نظر المسيحى وسيلة ليخدم بها الآخرين . فهو يودعه أفضل مافى نفسه من جهد وإخلاص وحب ، لا لينال ترقية ، ولا ليكسب مالا ، بل لأن خدمة المجموع وبذله للصالح العام ، هما له خير الجزاء . ومهما تكن المهنة أو الحرفة التى عينتها له المقادير بليدة مملة ، حقيرة تافهة ، فانه يشعر فى أداء عمله اليومى أنه يوفى دينا مستحق الوفاء ، ويهون الحياة على غيره من الناس.

دين لأنفسنا

والعمل دين مدينون به لأنفسنا . ولعلنا لم نفطن بعد إلى أن احترام النفس فضيلة من الفضائل المسيحية . فان من المثائل الهامة التى لقنها إيانا المسيح أن نقدّر الشخصية البشرية حق قدرها ، ويعنى بهذا طبعاً شخصياتنا والآخرين أيضاً . فالعبث بالحياة ، وافسادها بالتلكؤ والخمول ، خيانة للنفس وامتهان لكرامة الفرد . والانسان الجدير بالكرامة هو الطموح إلى التجديد فى كيانه البشرى ، هو الذى يخلف وراءه آثاراً تدل على أن حياته لم تكن عبثاً ولهواً. هو الذى يعمل خلال اليوم لينعم بهجوع الليل ، هو الذى يكدّ ويتعب ليستمتع بالراحة والهدوء .

ونحن إذا سرحنا الطرف فى مجريات التاريخ ، ندرك لأول وهلة أن الذين نعجب بهم ، ونحلهم مكانة الكرامة والتبجيل ، هم العباقرة النوابغ الذين ابتكروا الجديد الطريف فى ميادين الحياة . هم جبابرة الفكر أمثال أفلاطون وكنت وابن رشد . هم نوابغ الفن أمثال رفائيل وميشيل انجيليو . هم أبطال الشعر والموسيقى أمثال المتنبى وشكسبير وبيتهوفن . هم المشترعون أمثال موسى ويوستنيان ، والسياسيون أمثال بركليس وشارلمان — كل هؤلاء كلٌّ فى ميدانه الخاص ، قد أثمروا فى حياتهم نتاجاً ماديا أو روحيا وتركوه تراثا خالداً للعالم. وهم المبرزون الذين خلدت أسماؤهم واستحقوا كل مديح واطراء.

ولكن إلى جانب هؤلاء فريق لايحصى من الرجال والنساء ، لم تنصب لهم اللوحات التذكارية ، ذهب بأسمائهم الزمان ، وعفا على ذكراهم النسيان . ومع ذلك قد انتجوا فى عصرهم وجيلهم أشياء بقيت أجيالا بعد أن ذابت أجسادهم فى بطون الثرى . ونحن محاطون كل يوم بأدلة تشهد لما قدم السلف من أياد بيضاء ومآثر غراء . فأنت إذا دخلت كنيسة رائعة البناء دقيقة الفن ، لايسعك إلا أن تفكر فى ذلك البنّاء المجهول الذى شادها رفيعة العماد . وإذا سرت فى طريق قديم عبدّه الأولون يتجه فكرك إلى الذين مهدوا السبل للملايين جاءت بعدهم . ونحن ننعم الآن بثمار جهود بذلها السابقون ، وعلينا فى دورنا أن ننضج ثماراً يتذوق عذوبتها اللاحقون .

فالعمل إذن هو دين نحن مدينون به لله ، وللآخرين ، ولأنفسنا . ومن الرجولة أن نؤدى الدين ، ولا ننكث فى العهد ، ان العهد كان مسئولا . وانها لفكرة وثنية تلك التى تطغى الآن على العالم ، فتوسوس إلى النفوس أن تأكل وتشرب وتطرب لانها غداً تموت . وأجل خدمة يسديها المرء إلى وطنه وإلى العالم : أن ينظر إلى العمل الذى بين يديه نظرة جدية ، ويؤديه « كمن يرضى الله لا كمن يرضى الناس » .

الخطيب الألثغ - والشعب المهزوم

« ليست أمر الذكريات تلك الفرص التي ضاعت ،ولا الأخطاء التي اقترفت ، وأن يكن ذكرها يثير في النفس حسرة وأسى . ليست هذه هي الجراح التي تحرق القلب وتفرى العظم . إنما أمر الذكريات هي تعدياتنا على ناموس المحبة . . . » .

في حقبة من حقب الدهر الغارقة في القدم ، ولد في بلاد الأغريق طفل أطلقوا عليه اسم « ديموستينس » ولعلّ أباه كان يحمل أيضاً هذا الإسم . ومات أبوه ، وهو ما يزال صبياً صغيراً . ولمّا بلغ السابعة من عمره ، كفله هو وأخته الصغرى ثلاثة من الأوصياء . وكان لزاماً على أولئك الأوصياء أن يرعوا حقوق القاصرين ، ويسهروا على تنشئتهما ، ويحرصوا على المال الذي خلفه المورث لولديه الصغيرين . على أن أولئك الأوصياء كانوا من أردياء الناس ، فأهملوا العناية بالطفلين ، وبذروا الثروة في سفه ورعونة .

ولما بلغ ديموستينس الثانية عشرة من عمره كان يحق له الاستيلاء على نصيبه في ثروة أبيه ، ولكن الأوصياء كانوا قد بددوها ضياعا ، فرفع الدعوى على أحد أوصيائه أمام القضاء ، وكسب دعواه .

وفتح له كسب القضية فتحاً مبيناً . ذلك أنه عقد عزمه على أن يكون خطيباً عاماً . وكان قدماء الأغريق يخلعون على هذه الوظيفة في هاتيك الأيام ألوانا

من الكرامة والتمجيد . وجرت على ألسنة القوم يومئذ أسماء بعض فطاحل خطبائهم وأمراء اللسان بينهم ، كما تجرى ألسنة الناس هذه العصور بأسماء كواكب السينما وأعلام السياسة ومشاهير الألعاب الرياضية .

على أن التاريخ يحدثنا بأن ديموستينس هذا كان صوته ضعيفاً خافتاً ولسانه ثقيلا متعثراً . بل قالوا انه لم يكن ليقدر أن ينطق حرف « الراء » ، وكان يتلعثم ويتهته فى كلامه . ولكن الشاب كان قد حزم أمره وعقد نيته ، فراح يعمل ويجاهد ليغلب ضعفه ، وينتصر على ثقل لسانه ولعثمة نطقه . وقيّض له الله صديقاً من أعلام الخطباء فى عصره ، فأخذ يدرّبه على فن الكلام والخطابة . ولكن كان على ديموستينس أن يقهر عيوبه ونقائصه ليظفر بما يريد ، فسلك لتحقيق هذه الغاية مسالك غريبة ...

كان يصعد الجبل راكضاً ، ويتلو الأشعار والقصائد وهو يركض لكى يقوى صوته . وكان من عادته أن يهز إحدى كتفيه ، فلكى يغلب هذه العادة ويقلع عنها ، كان يخطب أحيانا بعد أن يعلق سيفا مسننا مدلّى من سقف الغرفة ، حتى إذا هزّ كتفه اصطدام بسنان السيف .

وكان على الخطباء فى تلك العصور أن يقفوا أمام الجماهير الصاخبة ، ويُدعوا أحيانا لتهدئة جموع حانقة مغيظة ، فلكى يعدّ نفسه لمثل هذه المواقف الحرجة ، درّب نفسه على أن يصيح أمام الأمواج الصخّابة على شاطىء البحر !

استطاع صاحبنا أن يقهر كل نقائصه وعيوبه ، فما بلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد ذاع صيته فى أرجاء البلاد كخطيب مصقع يشار إليه بالبنان . وهو قد أدرك فى مستهل حياته ان موهبة الخطابة — إذا أتقنها — تعينه على أن يكون قوة ساحرة تميل بالناس إلى الخير أو الى الشر ، واعتزم على أن يستخدم موهبته المكتسبة بالعرق والنصب والمران ، لخير شعبه وإشاعة الحق بين الناس .

ويحق بنا أن نضع ديموستينس فى مصاف عظماء الغالبين القاهرين . فان رجلا برئتين ضعيفتين ، ولسان ثقيل ، ونطق متعلثم ، يصعد إلى القمة ، ويصير أخطب خطباء اثينا ، تلك المدينة التى اشتهرت بخطبائها الفصحاء البلغاء — اقول ان رجلا كهذا تذهلنا مثابرته ، ويشجعنا ثباته ، ويقدم لنا فى جهاده وكفاحه وغلبته اروع الأمثلة .

ولكل منا ضعفاته وعيوبه ونقائصه التى يقدر ان يغلبها ويحولها إلى اتجاه الخير والنفع . وقد كان لديموستينس صديق اعانه عند الحاجة واخذ بيده فى الضعف . ولكن إلى جانب عون الصديق ، تذرع خطيب اثينا بقوة عزمه وثبات قصده ، فى التغلب على نفسه وقهرها . ونحن لنا صديق اعظم يعيننا لنغلب ضعفاتنا ونقائصنا ، وهو يعرف كل شيء عنا ، لأنه مجرب مثلنا نحن المجربين . هو يقدر ان يجعل من ضعفنا قوة ، ومن نقصنا كمالا ، ومن عيبنا جمالا . ولكن يجب أن نقوم بدورنا — كما فعل ديموستينس — فنصمم على الغلبة ، ونثابر فى الجهاد .

فإذا أردنا ان نغلب ، مثلا ، ما فينا من حدة الطبع ، وسرعة الغضب ، أو نقهر ما يساورنا من خوف عندما نقول الصدق والحق ، او ما يتملكنا من أنانية ومحبة ذات عندما تعرض علينا مشاكل الحياة . . . او اى نقص آخر فى حياتنا او اعمالنا ، ففى وسعنا ان نجيء إلى الصديق الأعظم — المسيح — ونلتمس منه العون والإرشاد . ومتى اقترن هذا بقوة الارادة ، نغدو — مثل ديموستينس — من الغالبين القاهرين .

شعب مقهور

« تفكرت فى ايام القدم ، السنين الدهرية » (مز ٧٧ : ٥) .

ليس من اليسير ان يتحدث الكاتب عن الماضى فى عصر يبغى فيه الناس الاستمتاع بالحاضر ، وتشرئب اعناقهم إلى المستقبل . وإنك لنسمع كثيرين

يقولون : ليعش فى الماضى الذين لا أمل لهم فى المستقبل ! ألم يقل بولس نفسه : لننسَ ما وراء ونمتد إلى ماهو قدام ! وقد ردد صدى عبارته غيره من الشعراء والحكماء بمعنى يختلف عن المعنى الذى قصد إليه الرسول .

أجل ، هذه لغة الشباب والصحة والثقة بالنفس ، فالشبان فى عنفوان قوتهم ، والأمم الفتية أبان نهضتها ، لا تفكر فى الماضى ، بل ترنو إلى المستقبل . وقيل عن الاثينيين قديماً إنهم حينما عادوا إلى مدينتهم بعد الغزو الفارسى ، ألفوا جنود كسرى قد حطموا بدائع فنهم فوق تلة الاكروبول . فلم يرفعوا تلك النصب والتماثيل ، بل تركوها حيث كانت لتطمر فى بطن الأرض ، ويقيموا على أنقاضها مصطبة جديدة . وقد عثر المنقبون منذ سنوات على تلك التماثيل المطمورة ، فإذا بها تحتفظ بألوانها الحمراء والزرقاء والخضراء وتنفرج شفاهها عن ابتسامات تكاد تكون ناطقة . وأولئك الأثينيون لم يعبأوا بتلك الروائع يومئذ . وان المرء ليقف مذهولا فوق تلة الاكروبول أمام هذه التماثيل المهجورة التى صاغتها أيدى المثالين فى القرن السادس قبل الميلاد ، ويعجب كيف رضى الذين شادوا البارتينون أن يطمروا فى بطن الأرض ، ويدوسوا بالأقدام ، تلك الشعائر المقدسة التى صنعها أباؤهم وكرّسوها للعبادة فى محاربهم !

فهل نقدر أن نطمر الماضى وننساه كأنه لم يكن ؟ ان الزمن سرٌ رهيب عميق ، لانقدر على سبر أغواره . ولكن إذا نحن محونا الماضى محواً تاماً ، وحسبناه عدماً لا وجود له ، فإننا نفقد كل الحقائق . ذلك لأن الحاضر لحظات عابرة يمضى شيئاً فشيئاً والمستقبل لم يأت بعد . وذلك المنظر الذى يمتد وراءنا وتلك المرحلة التى قطعناها ، والتى تكاد تكون ملفوفة بضباب النسيان . هذا المشهد الذابل — هو من الحقائق التى لانقدر أن ننكرها فى حياتنا . وان قيل ان أعمالنا تتبعنا من بعيد ، فإن الماضى حىٌ قائم كالحاضر فى نظر الله ، وهو مكتوب فى سفره الخالد بأحرف لن تطمسها أيدى الزمن . والماضى هو الخيوط

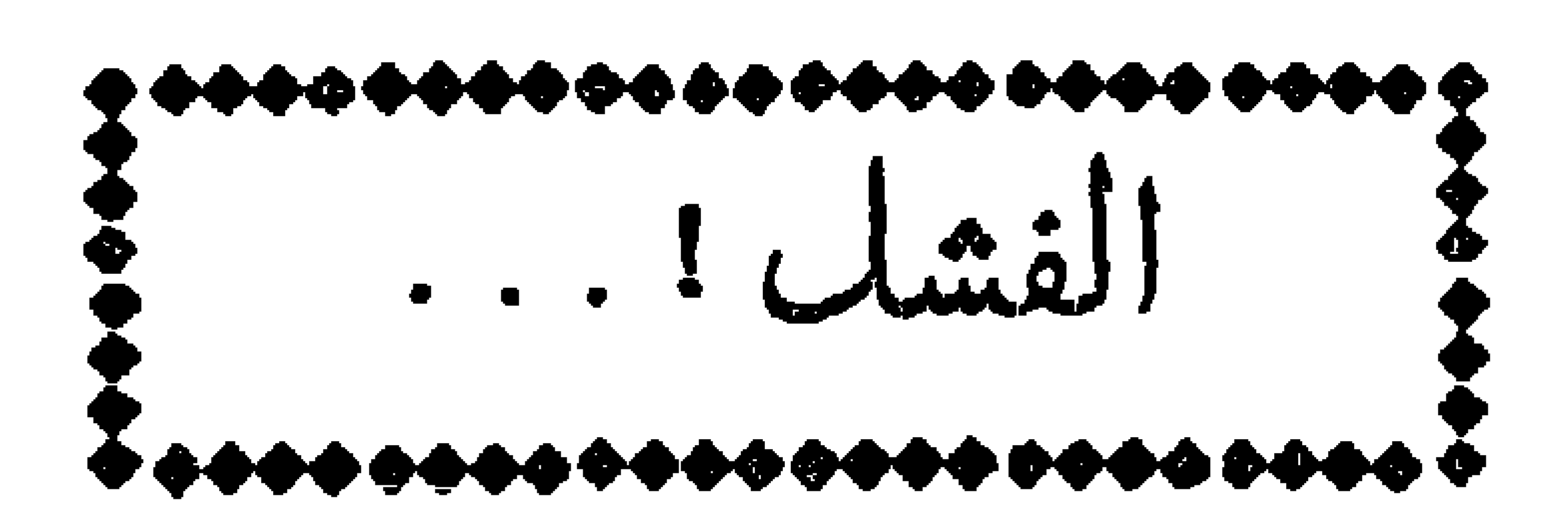
التي ينسج بها مصيرنا الزمني ومصيرنا الأبدي . فالآثام والذنوب التي نسيت ، لاتغفر لأنها نسيت ، بل لعلها أن تـكون الذنوب التي لن تغفر .

وتحضرني الآن قصة وضعها تشارلس ديكنز الروائي الانـكليزي عن إنسان رغب في أن تمحي من فكره كل الذكريات البغيضة في حياته الماضية فكان له ما أراد . ومن جرّاء هذا المحو اختفت النواحي العاطفية المحببة في أخلاقه ، وعجز أن يعين إنسانا أو يعطف على أحد . وأساء الظن فيه الذين ائتمنوه في الماضي ووثقوا به . وازورّ عنه الذين أحبوه والتفوا حوله. وأخيراً في شقاء وحدته وعزلته ، صلّى إلى الله أن يرفع عنه هذه الموهبة القاتلة وصاح « رب" . اجعل ذاكرتي مورقة مزهرة أبداً » . وفي هذه القصة الخيالية شيء كثير من الحق .

والذي نعرفه أن أحبّ الذكريات الينا ، ليست تلك التي ظفرنا فيها بكسب كبير ، أو بنجاح باهر ، بل هي ذكريات الصداقة العزيزة التي تمتعنا بها ، وخدمات المحبة والعطف والوداد التي تناولناها أو أديناها للغير . ثم أن أمرّ الذكريات ليست الآلام التي لذعتنا ، فإن الألم الجسماني يُنسى تقريباً بعد أن يزول . وليست أمرّ الذكريات تلك الفرص التي ضاعت ، ولا الأخطاء التي اقترفت ، وأن يكن ذكرها يثير في النفس حسرة وأسى . ليست هذه هي الجراح التي تحرق القلب وتفرى العظم . إنما أمرّ الذكريات هي تعدياتنا على ناموس المحبة والعطف والوداد . هي ذكريات المحبة التي دسناها تحت مواطيء الأقدام . والمحبة عنصر في الحياة مقدس . هي قساوة القلب ونكران الجميل وسوء معاملة الذين يستحقون منا الرعاية والاحترام والاكرام . هي الفرص التي خدعنا فيها الآخرين ، وجرحنا كرامتهم ، ودفعنا بهم إلى مزالق الخطأ والضلال .. هذه هي الجروح التي تدمي أبداً ولا تلتئم . فلنفكر في هذه كلها ولا ننساها قبل أن يرحل عنا الأصدقاء والأقرباء وتنعدم الفرصة للتوبة والندم وإصلاح ما أفسدته تصرفاتنا الآثمة .

وإن الوقت يجيء لكل منا ، حين تكون الحياة كلها وراء ظهورنا ، ولن يكون أمامنا إلا الباب المؤدى إلى الوطن المجهول ، الذى لن يعود منه سائح إليه . وفى ذلك الوطن الخالد سنرى الأشياء على ضوء الأبدية ، لا ضوء هذا الزمن الفانى . والذى نعلمه أن الله سيدينا على مقتضى متجهات حياتنا كلها هنا على الأرض ، خيراً كانت أو شراً . وان تكون دينونتنا على مقتضى الحالة العقلية والخلقية فى اليوم الذى ننتقل فيه إلى عالمنا المجهول . ستكون حياتنا كلها مكشوفة أمام كرسى القضاء ، لا الوضع النهائى فقط الذى نكون عليه فى يوم الموت كما يظن البعض . إن الماضى كله مقياس للحياة فى نظر الله. فأيام الشباب التى نبذرها فى بطر وخلاعة ، وأيام الرجولة والكهولة التى نقضيها فى أنانية وطمع ، ان تصلحها أيام الشيخوخة القليلة التى قد نقضيها فى تقوى وورع ، انتظاراً لليوم القريب . لن يمكن أن تموت أيام شبابنا وأيام رجولتنا كأنها ليست منا فى شيء ، وكأنها ليست فى سجل حياتنا .

إنما يكون نماء الحياة البشرية طبيعيا متدرجا متواصلا ، كسنبلة الحنطة... أولا نباتاً ، ثم سنبلا ، ثم قمحاً ملآن فى السنبل . وبعد ذلك يجيء الحاصد بمنجله ، لأن أوان الحصاد قد حان . . .



الفشل ! . . .

« .. وأنت إذا رأيت إلى الرجل الكفيف المحروم من نعمة البصر ، تجده ذا حساسية فى السمع واللمس أوفر من سواه من المبصرين . لأن ما أضاعه فى فقد البصر ، نال عوضاً عنه نصيباً أوفر فى السمع أو اللمس أو قوة الذاكرة » .

لا أحسبه شجاعا مَن لا يفشل ، فالفشل أحيانا من طبيعة الجهد البشرى . ولا أحسبه شجاعا مَن لم يذق يوما مرارة الخيبة ، أو يصطدم بظلام المصير ، فالحياة قلّب لا تسير على وتيرة واحدة . أما الشجاع الباسل عندى ، فهو الذى يتخذ من الفشل حافزاً للجهاد ، ومن الخيبة سلما للأمل والرجاء .

والفشل فى الحياة اختبار لا بد منه . تلقاه فى بعض نواحيها — سواء أكانت مادية أم أخلاقية أم روحية — وإن اختلفت أطوار حدّته وماهيته ، وكلما كثرت مطامع الانسان — حتى فى عالم الروح — كان أكثر تعرضا للفشل حسب تكوينه الطبيعى البشرى . .

ومن الناس مَن يتخذ الفشل مهمازاً لسعى جديد . ومنهم مَن يتمرد عليه ، فتصيبه الحيرة والارتباك . ومنهم مَن يستكين إليه ، فيحيا فى يأس مستحكم وظلام دامس .

وعندى أن الفشل فى سعى أدبى أخلاقى ، لأفضل كثيراً من النجاح فى سعى

دون ذلك مرتبة . وما أكثر ظواهر النجاح التي نغبطها في الحياة ، وهي في الواقع أمرّ من الفشل ، وأسوأ منه عقبى .

وقد لا تتعدى مطامحنا وآمالنا ماديات الحياة - كالمال والشهرة واللذات - وقد نبلغ في هذه أكثر مما نأمل ونبغي . ولكن عاقبة هذه كلها خادعة مغررة ، لا نصل فيها إلى حد الاشباع . ومتى جعل الناس هذه الأمور هدفهم الأول والأخير في الحياة ، وبلغوا مناهم ، عندئذ يصلون إلى خاتمة يحسون فيها بأنهم قد خُدعوا بهذه الألاعيب المضللة ، التي اتخذوها بديلا عن كنوز الحياة الثمينة وهباتها النبيلة . ذلك لأن قيمة المرء الأدبية في الحياة تقدّر بالمبادىء والمثل العليا التي يسعى إليها .

ومتى جعل الإنسان قبلته في الوجود ، أن يسعى إلى حياة أخلاقية كريمة ، فإنه لا يكون بلا رجاء ولو كان الفشل نصيبه في هذا الجهاد . لأن الفشل في هذه الحالة يحفزه إلى جهود جديدة ووثبات قوية ، وهو في هذا السعي لا يخفض مثله الأعلى ، ولا يميل إلى المهادنة مع شيء هو دون الكمال ، ولا ينسب خيبته إلى ظروف ملتوية منحوسة . وهو يعلم أن محاولته ذاتها أهم لديه من البغية التي يصبو إليها ، لأن فيها تدريباً لقوة إرادته ، حتى يبلغ أخيراً في هذا الصراع مرحلة من السعادة لا يدانيها أي نجاح في الحياة .

وكثيرون من الناس يلتمسون المعاذير لهزيمتهم بطبائع الظروف التي يعيشون فيها أو العناصر الخاصة في تكوينهم الخلقي . ويزعمون أن الوراثة ، أو التركيب الجسماني ، أو القوة العقلية . تجعل فوزهم أمراً متعذراً . وهم لا ينكرون قيمة المثل الأعلى ، ولكنهم يقعدون عن الجهاد استسلاما لهذه العوامل التي تعوقهم . ولكن الاذعان للفشل في مثل هذه الظروف لا مبرر له ، والعلة الوحيدة هي الكلال الأدبي ، والاسترخاء ، والكبرياء ، والافراط في الاشفاق على النفس . ولا يمكن أن يُعفى الإنسان العاقل من الجهاد للرقي الأخلاقي الروحي ، وكل من جدّ في سعيه ، حتى على تدريب

إرادته ، وترويض قواه ، لا بد أن يخطو إلى الأمام ولو قليلا إلى مستوى أعلى فى الكمال الانسانى . . .

هاتوا لى ذلك المرء الذى يصمد أمام أقسى الظروف معاكسة ، ويواجه أشد النائبات بطشا ، وأنا الكفيل بأنه يجد الفوز حتى فى الفشل ! !

وإلى جانب فشلنا فى الرقى الأخلاقى ، نذكر فشلنا فى أداء الواجب نحو الآخرين . وهنا نسلم أن الفشل معناه اضاعة فرصة سنحت ولن تعود ، وأن الشخص الذى أهملنا فى حقه أمسى بعيداً عن منالنا ، ولن يمكننا بحال اصلاح خطأ اقترفناه وصار فى سجل التاريخ الغابر ، ولمثل هذا الفشل مرارة خاصة لا يعرفها إلا من تذوقها يوما . ولكن حتى فى هذا ، لا مجال لليأس ووخز الضمير . أرأيت الرسول الأكبر الذى أنكر سيده وأقسم الإيمان المغلظة بأنه لا يعرفه ؟ خرج تحت جنح الليل فى آلام مرة وبنفس معذبة ، ولكن فى الفجر المبكر بعد أيام ، رنت فى أذنيه كلمات الحل والغفران والدعوة إلى خدمة الإنسانية . ولسنا ننكر أن الفرص الضائعة لن تعود ، ولكن تسنح لنا فى مكانها فرص أخرى ، نعوض فيها ما فشلنا فيه فى الماضى .

هذا هو فن الحياة الأخلاقية الروحية . وما أجمل أن يتفهم شباب هذا العصر فن الحياة ، ويتشبعوا بهذه الفكرة ، ويذكروا القول المأثور الذى خلفه لنا أحد العلماء المبرزين : « ان مهمتنا فى العالم ليس أن نفوز ، بل أن نستمر على أن نفشل بروح طيبة راضية » . وهذا العالم هو «ستيفنسون» الذى طلب أن ينقش على قبره هذه الكلمات : « هنا يرقد إنسان قصد خيراً ، وجاهد قليلا ، وفشل كثيراً » .

ومتى توافرت لدينا الإرادة المعتزمة على السير إلى الأمام ، ومتى صمدنا أمام الواجب بعزم صادق موطد ، وأبينا أن نستسلم إلى اليأس وخيبة الأمل ،

متى فعلنا ذلك ، لا يؤثر علينا الفشل شيئاً . فالخيبة لن يمكن أن تكون خاتمتنا المحتومة ، والهزيمة لن تسلبنا تاج الفوز الأخير .. إنما نسقط لننهض . ونسعى نحو الهدف الأسمى ، نحو الرجولة النبيلة وهى القصد الإلهى الذى أعدّه الله لكل إنسان فى حياة الكمال البشرى .

ناموس العوض

وهذا يأتى بى إلى فكرة أخرى مرتبطة بالأولى . فأنت لا تقدر أن تحكم على مقدار سعادة النفس بالظواهر الخارجية التى تبدو على المحيا . وكم من إنسان تحسبه أمامك تاعساً مثقلا بالهموم وهو فى الداخل قرير العين مغتبط الفؤاد . وكم من إنسان تظنه سعيداً فى الحياة وهو فى الواقع محوط بظلام نفسى كثيف ، وذلك لأن السعادة الداخلية لا تخضع للظروف الخارجية .

وفى عالم القانون ناموس خاص يطلق عليه رجال الشرع «ناموس العوض» . وهو ناشط فى عالم الطبيعة وفى حياة الإنسان . وله فيه أثر خاص ، لا فى ظروفه وأحواله فقط ، لكن فى نفسه وجسده أيضا . وأنت إذا رأيت إلى الرجل الكفيف المحروم من نعمة البصر ، تجده ذا حساسية فى السمع واللمس أدق من سواه من المبصرين . لأن ما أضاعه فى فقد البصر نال عوضا عنه نصيباً أوفر فى السمع أو اللمس أو قوة الذاكرة . فما ينقصنا فى ناحية واحدة ، نعوض عنه مواهب خاصة فى ناحية أخرى . ولذا نلتقى كثيرين يتحملون عناء الحياة وثقلها بثقة واطمئنان على الرغم مما يبدو عليهم من الضعفات والضيقات الأليمة ، ويستمتعون بسعادة يحسبها الناظرون بؤسا مقيما .

ويعرف كاتب هذه السطور أشخاصاً قد يحسبهم الناظر إليهم موضع العطف والاشفاق لبؤسهم وشقائهم ، لكنك إذا تحدثت إليهم أدركت لأول وهلة سراً دفينا فى نفسيتهم ، وعرفت أنهم فى هدوء النفس ، بعيداً عن ضوضاء العالم ، ينعمون باختبارات روحية على الرغم من الضيقات

الظاهرية ، ولهم عوضا عن المذلة نصرة ، وعوضا عن فقدان القوة الجسمانية حيوية روحية ، وعوضا عن الآلام أفراح لا يحس بها إلا المختبرون .

ونحن نختلف فى مواهبنا الأدبية اختلافنا فى قوانا البدنية أو العقلية . وناموس العوض الذى ألمحنا إليه يعمل ناشطا فى ميدان الأخلاق والروح ، فإن كثيرين من رجال الفضيلة الحقة يأتون أحيانا أعمالا تجلب العار على أنفسهم وعلى الآخرين بسبب نقص فى أخلاقهم يتعذر عليهم التغلب عليه . ولكنهم مع هذا الفشل الأخلاقى فى ناحية ضعيفة فى كيانهم الأدبى ، يجوزون اختبارا يعوض عليهم ما أصابهم فى سقطتهم هذه .

وكلمة « الغفران » يفهمها الإنسان العادى فهما خاطئا ، ويظنها التجاوز عن سقطاته ومحو نتائجها وعواقبها . بيد أن هذا زعم فاسد ، لأن الغفران يكسب ، لا القوة على غلبة الخطية فقط ، بل المناعة ضدها وتحويل المجرى الذى زلق فيه المخطىء إلى مجرى آخر يرتفع به إلى ذرى الفضيلة ، ويشق له طرقا جديدة للنشاط فى الخدمة النافعة للآخرين . ولسنا ندعى هنا أن السقطة فى الرذيلة تجعل المرء أكثر صلاحا ، ولكننا نرمى إلى القول إن التائب النادم بعـــد هفوته ، تتوافر لديه قوة العطف على الساقطين الآخرين ، ويعرف أن فى الغفران قوة حافزة إلى النشاط والحرص . وتاريخ البشرية الروحى حافل بأمثال هؤلاء ممن كانوا مصادر خير وعون للآخرين بعد أن نهضوا من كبواتهم .

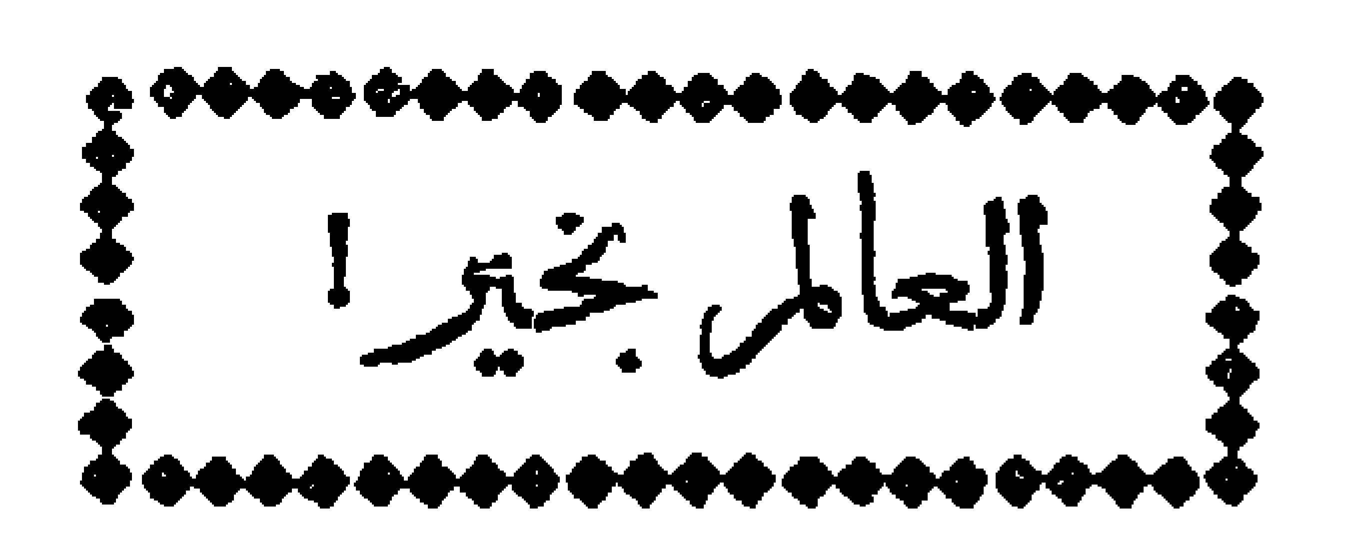
ونعتقد أن هذه الاعتبارات أولى بالرعاية فى هذا العصر أكثر من سائر العصور ، لأن كثيرين من أخيار الناس يفقدون كثيرا من نفوذهم الصالح ومؤثراتهم السليمة بسبب قساوتهم فى الحكم على أنفسهم ولو سرا . وهم إذ يشعرون بنقائصهم وضعفاتهم وفشلهم ، على الرغم من الجهود التى يبذلونها لبلوغ الفضائل التى يصبون إليها - يجنحون إلى الاستسلام فى تشاؤم مقبض . وما أجدر بهؤلاء أن يفهموا شيئا من ناموس العوض فى العالم الروحى ،

ويذكروا أن ولاء الإنسان لواجباته المفروضة — ولو فى الفشل — يحمل جزاء وفاقا . ولو فعلوا ذلك لفازوا بنصيب من السعادة حتى مع الألم ، ولفطنوا أن وراء ما فى العالم من حيرة واضطراب وشذوذ ، معانى سامية لقوم يعقلون .

وناموس العوض هذا يبدو جلياً فى حياة من عرفه البشر « رجل الأوجاع ومختبر الحزن » . فقد كانت الحياة قاسية عليه منذ ولادته فى الفقر والحرمان ، إلى موته على الصليب . ولكنه احتمل ما حل به من الألم فى القلب والعقل والجسد ، عالماً أن له عوضا رآه فى نتائج آلامه فى نفسه والآخرين ..

« هو » الذى عرف الفقر فى حياته العادية ، وتذوق ما فيه من مرارة ، اختلط بالشحاذين والبرص ومنبوذى العالم ، رأى بعينيه عسف العشارين وجباة الأموال وظلم الأغنياء وذوى السلطان ، شهد مظاهر الفجور والخلاعة والفساد وما جرّته هذه كلها على الأبرياء ، ترعرع فى وسط ألقت فيه الأمراض والموت ظلالها على البيوت والأسر ، عانى فى شخصه مظالم العالم وقسوته ، خدعه البشر وافتروا عليه وهددوا حياته ، وتألبت ضده كل قوات الشر فى العالم ، وأخيراً عذبوا جسده وسخروا بروحه .

ومع ذلك كان له فى كل هـــذا ، عوض ثمين ملأ نفسه غبطة وارتياحا « وتعلم الطاعة مما تألم به » . وعرف معنى التمشى مع المشيئة الإلهية . وكان له العوض أيضا فى حياة الآخرين . لأن ثمار الصليب هى الجنس البشرى المفتدى . وثمار آلامه خلاص العالم . . . نظر عن بعد إلى النتيجة وكفى . وأدرك قبل حلول الخاتمة انه بتجرع كاس الآلام مترعة ، يشقّ طريق الحياة والفوز للسالكين على نهجه .



العالم بخير!

« .. إن غلبة الانسان على الكون المادى هى فى الحقيقة أقل أمانيه شاناً . وهو جد مفتقر إلى السمو فوق هذه الماديات ، إلى اختراق حجب المادة والتوصل إلى أوضاع من الوجود الروحانى وراء عالم الحس .. »

...أعرف صنفا من الناس يُخضع حقائق الحياة لميوله وطباعه ومزاجه الخاص . ومن خطل الرأى أن نقيس قيم الأشياء ، ونحكم على تطور الزمن ، على ضوء ما يصيبنا كأفراد من آلاء تُسبغ علينا ، أو نقم تحلّ بنا .

وليس من ينكر أن العالم يتطور ، وتقفز بنا أسباب الحضارة قفزاً سريعاً . وإذا كان القرن التاسع عشر قد امتاز بوفرة الجهود الأدبية والاجتماعية ، واليقظة الفكرية والروحية ، فان القرن العشرين منيف بين العصور بوفرة ما فيه من مبتكرات التجديد والتبديل فى الآراء والأزياء والمذاهب ، فى شتى ميادين النشاط البشرى .

ولاشك أنه العالم يسير إلى الأمام . والتقدم فى فهم الحياة يجعلها أكثر نوراً ، وأوفر خيراً ، وأغزر معرفة .

فالكواكب كانت دهشة لنا يوم كنا نعرفها مصابيح نور معلّقة فى فلك ثابت لهداية الملاحين فى بحار عزّ فيها الدليل . ولكنها اليوم تبدو لنا دهشة

أكبر ، بعد أن عرفناها عوالم متلبعة تدور فى الفضاء اللانهائى ، خاضعة لنواميس حسابية دقيقة ...

وأجسادنا كانت غريبة مدهشة، يوم حسبناها جبلت فى طرفة عين من تراب الأرض ، ولكنها قد أضحت أكثر دهشة وغرابة ، بعد أن أرشدتنا العلوم الحديثة ، كعلم وظائف الأعضاء ، وعلم تكوين الأجنّة ، إلى متابعة أطوار لا تحصى من بداية وضيعة ، إلى كيان مركب ، غريب فى أوضاعه وأجزائه . وكنا بالأمس ، إذا أحسسنا بمرض يدهمنا ، نلجأ إلى الدجالين والسحرة لاسترضاء الآلهة ، أو كتابة التعاويذ والتمائم . وكنا فى هناءة ساذجة من العيش ، أما الآن ونحن نستعين بمبتكرات العلم ، فقد غدونا أكثر هناءة وأوفر غبطة .

وبين الناس من يظن اننا بالحضارة قد فقدنا الشعور بالراحة والطمأنينة والقناعة والرضى . وهذا إحساس يتغلغل اليوم فى مشاعر كثيرين منّا . وهو أشبه باحساس الشيخوخة التى تتوق لو يعود الشباب يوماً ، والتى تنظر بعين الأسى إلى آمال ضائعة ، ونشاط مفقود . ولكن مهما يكن من أمر ، وعلى الرغم مما فى الحضارة من عيوب ومساوىء وأمراض ، فإن العصر الذهبى نلشده فى سيرنا إلى الأمام ، وأبصارنا ممتدة إلى الأفق البعيد ، لا فى رجوعنا القهقرى وأعيننا وراء الظهور .

وبين الناس مَن يزعم أن الوجود البشرى — سواء أكان فى الماضى أو فى الحاضر — باطل فى أصوله ، وأن الرجاء الوحيد هو التسليم بما لابدّ منه ، والثبات فى موقف المجالد . وكأن الحياة البشرية فى نظرهم فترة قصيرة عاطلة يحلّ فيها القضاء المحتوم الذى لا يشفق دون تمييز بين الخير أو الشر ، والصالح والطالح .

وهذا هو أقسى مواقف التشاؤم . وهو موقف يذكرنا بما ذهب إليه

« شوبنهور » الفيلسوف الالمانى فى قوله : « إن آلام الحياة ترجح ملاذها ، وانه كلما دقّ شعور المرء اشتدت حساسية الألم فيه . فأصدق حكمة أن نكبت كبرياء الحياة ، وأوفر غبطة أن نفقد شعورنا وتبلد حواسنا » .

والحق انه لايسع كل نفس حساسة إلاّ أن ترتجف وتضطرب أمام آلام الحياة وبلاياها المحرقة ، والمسيحى الصادق تتألم نفسه وهو يرى حياة عمياء قائمة على الاثرة والانانية ، ويذكر قولة الرسول «الخليقة كلها تئن وتتوجع » ، بل يذكر أن رئيس خلاصه كان رجل أوجاع ، قد اختبر الحزن ، وثقلت نفسه بخطايا البشرية وأحزانها حتى تساقط عرق جبينه كقطرات من دم . فليس من الهين على نفس المسيحى أن يجوز فى غير مبالاة مقابل آلام الحياة ، وهو يرى قلب التاريخ البشرى ينبض بمأساة أليمة قاسية !

ولكن ، أليس يلعلع بريق من النور وسط هذه الغمامة الكثيفة ؟ أليس « الله فى سمائه » كما يقول الشاعر « برونتج » عن يقين ثابت .

ولسنا نقدر على تفنيد مزاعم المتشائمين هذه بحجة المنطق ، أو بارقام الاحصائيات . لان آلام الحياة ولذاتها ليست مما يقاس أو يُوزن ، بل هى أحوال ذاتية تتوقف على مزاج الفرد وتقديره ومدى صبره . والكفاح فى سبيل الحياة فى حد ذاته لأقوى دليل على أن الحيـــاة ذات قيمة . وتطور الانسان فى كل أدوار حياته ، وارتقاؤه من طور إلى آخر ، ومن مرحلة إلى أخرى ، لأصدق برهان على أن فى الحياة لذة تستحق كل هذا الجهاد، وكل هذا النزاع فى سبيل البقاء . ولعلّ المتشائمين هم أصحاب الامزجة غير المتزنة ، الذين يصبغون الوجود البشرى بألوان كئيبة من اختباراتهم الذاتية الشخصية . ولن يمكن أن يكون هذا « قانون ايمان » الجنس البشرى ، وإلا كان مآله الانقراض السريع .

وهنا قد يتقدم المتشائم ببسط ظواهر بارزة صارخة فى الحياة البشرية ، ويرسم صورة الانسان كذئب يتحفز للوثوب على أخيه والبطش به . فالمالك

الغنى فى بعض أنظمة الحكم يتجاهل حقوق الأجير الضعيف، ويود لو استحال دمه ذهباً نضاراً ، فيعتصره ويصيغه مادة وهاجة ، وأرباب المطامع الجشعة فى كل صناعة أو تجارة يسلبون حقوق الضعفاء فى غير رحمة ولا هوادة ، وكثيراً ما تهرق دماء الحياة البشرية على مذبح الشهوات الغاشمة والميول القاسية. وحيال هذه وأشباعها لا يسعنا إلا أن نطأطىء الرأس خجلا بقلوب ثقيلة مكلومة !

ولكن ينبغى ألا تلهينا هذه الظواهر عن الأمر الواقع. فليس الانسان ملاكا ، وليس الانسان شيطاناً . ومن ذا الذى ينكر أن فى بعض نواحى الحياة البشرية العادية ، الشيء الكثير من الصلاح الفطرى الساذج ، والشعور الرقيق ، والوجدان الحى ، والأمانة الحقة ؟ فالى جانب الأثرة الطبيعية ، كثير من الغرائز الحية الناطقة بالايثار . وإلى جانب المظالم والكراهية والحقد ، كثير من الشعور الطيب فى محبة الوطن والأسرة ، وروح الخدمة والتضحية والبذل ، ورغبة التعاون والود المتبادل ... ...

ثم هل ننسى ضيق المجال الذى تهيأ للبشرية لترقية ممكناتها السامية ومزاياها الكامنة ، وفساد أساليب التربية والتعليم التى أدت إلى التواء كثير من المقاصد المستقيمة ، والدعايات السيئة التى أفسدت الكثير من الغرائز السليمة ؟ إن ما يزرعه الانسان إياه يحصد . وكثير من تقصيراتنا وشقاوتنا وآلامنا مما يسهل علاجه . فليس حقاً ان نتخذ موقف المتشائمين قبل علاجها .

وفى كثير من مدننا خلائق بشرية أينعت فى نفوسها بذور الشقاء والفساد والاجرام ، تعيش حياة البؤس والفاقة والمرض والجهل. وإذ أرى رجالا ونساء من ذوى الأمزجة الحساسة الرقيقة ، والأجسام الغضة الأنيقة ، أخلوا نفوسهم من متع الحياة لعلاج الأطفال المرضى ، وتعليم الجاهلين ، وتهذيب الصبيان الشاردين ، والعطف على العميان البائسين المهملين — نعم إذ أرى كل هذا لا يسعنى إلا أن أصرخ قائلا : الدنيا بخير ، والقافلة تسير ، وما يزال فى العالم شيء كثير من نكران الذات واخلاء النفس فى سبيل الغيرية

الجيدة . فلا سبيل للتشاؤم من مصير البشرية ولو كانت هذه الجهود ونظائرها وشلا ينقطر ، وليست بحراً ينهمر !

وبعد هذا فليست الحضارة هي أس شقاء البشرية . فالقول بهذا هو من قبيل الخلط بين العلة والمعلول . وذلك لأن في الحضارة تتزايد معرفتنا لشكنه الآلام ، وتشتد حساسيتنا في العطف على المنكوبين بها . ومعرفتنا المتزايدة، وعطفنا المتكاثر ، يخلقان مغالاة في تقدير العلل المثيرة التي نظنها آخذة في الكثرة والتوالد ، في حين أن منشأ هذا هو دقة في الشعور، وتزايد في المعرفة.

ولعله لم يسبق للتاريخ البشري أن شهد عصراً قبل هذا ، توافرت فيه أسباب اللذة والخير للانسان العادي كما تتوافر الآن . وماحدث من قبل ، أن وُضعت تحت إمرأته من التجارب الكثيرة لإخصاب طبيعته وحياته ما يتمتع به الآن . ففي كل ناحية تمتد أمامه الآمال والأماني ، وتتسع له الفرص لتدريب الجسد والعقل والعاطفة .

ولسنا مع هذا كله نتعامى عن مشاكل الحياة العويصة العسرة الحل ، ولسنا نغمض أعيننا عن الحقائق الراهنة ، ونغرق في بحر من الأحلام الجميلة والرؤى الخيالية . وذلك لأن تطور الطبيعة البشرية يفتقر إلى أجيال طويلة. والتقدم البشري — كأي شان آخر في الطبيعة — لا يجيء طفرة بل يسير في خطى متثاقلة ، في حقب طويلة من الدهر.

وفي العالم المادي قد قهر الانسان قوى الطبيعة التي بطشت به وأرهبته يوماً ، وقد أذاب الحجر الصلد ، وصهر المعادن ، وانتزع الثروة الدفينة من بطن الأرض والبحر ، وسخر البر والبحر والهواء لخدمته وأخضعها لسلطانه ...

ولكن غلبة الانسان على الكون المادي هي في الحقيقة أقل أمانيه شأناً ، وهو جدّ مفتقر إلى السمو فوق هذه الماديات ، إلى اختراق حجب المادة والتوصل إلى أوضاع من الوجود الروحاني وراء عالم الحس . والانسان في

فى سيره نحو هذا الهدف يسير بخطى متثاقلة تارة ، ويتعثر فى أذيال خيبته أخرى . ولكن الأمل الوحيد فى أن وراءه قوة إلهية تسنده فى هذا التطور الروحانى ، وتقيله من عثاره .

والإنسان جاء من عند الله ، وإلى الله المآب . وفى هذا التطور الروحانى البطىء قد خرج الله عن نفسه إلى العالم ، وأنشأ ملكوتا من أبناء البشر يكونون له فيه أبناءً ، وشركاء فى وجوده وحياته . فالتطور الذى تتوافر فيه كل غبطة ، وتنتفى كل شقوة ، هو رجوع العالم إلى الله ، فى ملئه وكيانه الكامل.
ولعل هذا هو الذى قصده بولس الرسول عند قوله : ان يسوع المسيح يسلّم الملك لله الآب « كى يكون الله الكل فى الكل » .

بل لعل هذا أيضا هو ماقصده الرائى عند ماوضع قبلة عبادتنا وموئل محبتنا ورجائنا ، شخصا يقول « أنا هو الألف والياء ، الكائن ، والذى كان ، والذى سيكون » .

الحضارة المـادية

« ليكن العقل حراً طليقاً فى تفكيره واستنتاجه .
ولكن يجب ألا يغفل عنصر الايمان الذى هو أداة
الروح والنفس » .

من الحقائق الشائقة فى التاريخ ان الأمم والشعوب عرضة لنوع من الأمزجة الغالبة التى تتخلل حياتها فى فترات معينة . فلقد فتنت أمة الأغريق قديما بمزاج فلسفى ، حتى كنت ترى الناس فى الطرقات والأسواق يتطارحون الفلسفة ويجادلون فى نظرياتها ومذاهبها .

وفى القرن الرابع الميلادى طغى على الشعوب الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط مزاج لاهوتى ، فكان حديثهم كله حول عقائد الدين وأسراره .

ومرّت بإيطاليا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا حقبة من الزمن شغفت فيها هذه الشعوب بالموسيقى والرسم والتصوير والتمثيل ، وانصرف الناس إلى الفن فى سائر ألوانه ، وأخرج النوابغ والعبقريون روائع الصور والتماثيل التى بقيت تحفاً ثمينة تزدان بها حتى اليوم متاحف أوربا .

ويخيّل إلينا ان الرقى لم يَسرْ على وتيرة واحدة وفى اتجاه واحد فى أية أمة من الأمم ، فالعقل البشرى ينشط فى اتجاه معين فترة من الزمن ، ولا يلبث أن يتحول إلى اتجاه آخر يستهوى ألباب الأمة ويغلب على مزاجها .

وفى القرن الأخير تحول اتجاه أكثر شعوب العالم إلى البحوث والاختراعات

العلمية ، وأمسى هذا المزاج العلمى الآلى القوة الغالبة المسيطرة على أرواح الناس وعقولهم . وتبعاً لذلك حفلت مدارسنا بالبرامج العلمية ، واتجهت الجامعات بالشباب الحديث إلى نزعة علمية بحتة ، أخفت وراءها الثقافات القديمة — الأدبية والفنية والدينية . وانك لترى اليوم أرقى العقول وأنضجها بين الشباب فى أكثر شعوب العالم ، تميل إلى دراســـة الطبيعة ، والكيمياء ، والمعادن والبيولوجيا ، والجيولوجيا ، والفسيولوجيا ، والرياضيات ، والفلك الخ . وكان من أثر هذه الدراسات ابتكار صنوف من المخترعات الآلية الحديثة ، حتى لقد يقال ان مزاج العصر الغالب هو المزاج الميكانيكى الآلى .

وفى بيوتنا نعتمد على النور الكهربائى ، وآلة الحياكة ، والراديو والتليفون والسيارة ، والتليفزيون ، وأحياناً على آلات الكنس والتنظيف والكىّ التى تُدار كلها بالكهرباء . وفى مكاتبنا نستعمل الآلة الكاتبة ، والحاسبة ، والناطقة وغيرها . وفى طرقاتنا ننتقل بالسيارة والترام ، وفى بعض مدن أوربا وأميركا بالقطارات الكهربائية التى تسير تحت الأرض وفوق الأرض ، وأحياناً معلقة فى الفضاء ، وأحيانا بدون سائق . وكثيرون من الناس يحسبون السيارة من مستلزمات الحياة لا متعة من متعها ، ولا يستهويهم إلا السفر بالطائرة فوق متن الرياح . وفى حقولهم يستخدمون آلات البذر والحرث والحصاد وحلب الألبان ، وفى كافة الصناعات التى تتصل بالزراعة . ولا يكاد ينقضى أسبوع واحد دون أن تبتكر آلة من نوع ما توفر الجهد البشرى ، وتكثر من الإنتاج فى نطاق أوسع .

ويقال لنا اننا فى عصر التقدم العلمى . ولكن من الناحية الأخرى نسمع صيحات عاليات تنذر بسوء المصير ، لأن هذا التقدم العلمى قد أفقر الروح البشرية ، وجعل حياة الإنسان رخيصة تافهة القدر . ولقد سمعت مرة خطيباً من أشهر خطباء انكلترا يخطب يوم الأحد فى جمع حاشد فى كنيسة كبرى فيقول : « بالأمس كانت العلوم والفنون والآداب كلها مقترنة بالدين ، بل

كانت خادمة للدين . أما اليوم فقد انفصلت هذه كلها عن الدين ، وبات الدين مظهراً على هامش الحياة لا علاقة له بتفكيرنا وحياتنا فى كافة أوضاعها . وإذا كان لى ولد ، وأردت أن أعلمه تعليما دينيا ، فلا أرسله إلى جامعات اكسفورد أو كمبردج أو لندن ، بل أرسله إلى مدرسة من المدارس التى تديرها المرسليات الدينية فى أواسط أفريقية » . وراح ينذر قومه بصوت كالرعد ، وبألفاظ قوية جارحة فقال : « إن حضارتكم المادية هذه ستزول ، وعظمتكم ستمسى عدما ، كما زالت من قبل حضارات الأغريق ، والرومان ، والفرس ، وبابل ؛ لأنكم بعدتم عن الله فى غمرة هذه الحضارة الآلية ، المجردة عن العواطف الدينية » .

ونحن لا ننكر أن تقدم الإنسان وسيطرته على قوى الطبيعة ، حق له فى تطوره الفكرى والعلمى ، كما أن من حقه أن يفسح له المجال ، وتطلق له الحرية ، فى تفكيره العقلى ، لكى يستنبط من أسرار الحياة وخفايا الوجود ما استغلق على الأجيال المتصرمة . وإننا لنفرح ونغتبط كلما بلغت الأدمغة البشرية آفاقاً مجهولة . ولكننا نؤمن بأن السيطرة على المادة ، والتعمق فى الأبحاث الفلسفية والعقلية ، يجب أن تتجه إلى تحقيق الاهداف الروحية التى تتوق إليه نفس الإنسان البشرية . فالإتقان فى صنع الآلة الموسيقية مثلا ، واستكمال مستلزماتها الفنية ، لا يعنى بالضرورة أنها تخرج اللحن الرائع ، ولكن الاتقان يهيىء للموسيقىّ البارع فرصة لإخراج اللحن والتعبير عما يجيش فى روحه من المعانى والعواطف .

ان الذى نعيبه فى هذا العصر المادى هو التركيز المفرط فى ناحية واحدة من الحق ، بحيث يُساق الرجال والنساء إلى حالة عقلية يفقدون فيها كل شعور بالقيم الاُخرى ومعانى الحياة الروحية ومقتضياتها . ليكن العقل حراً طليقا فى تفكيره واستنتاجه ، ولكن يجب ألا يغفل عنصر الإيمان الذى هو أداة الروح والنفس . لنستمتع بكل مبتكرات الحضارة المادية ، ولكن يجب أن

نشكر الله عليها ، ولا نهمل القيم المعنوية الروحية فى حياتنا . ولقد اعترف داروين بعد سنوات قضاها فى البحوث العلمية البحتة بأنه فقد القوة التى تقدر الجمال فى الشعر والموسيقى . هذا هو الخطر الذى يتعرض له جيلنا الحاضر : فقدان الشعور بالأشياء الروحية فى الحياة ، والنظر إليها كأنها غير حقيقية .

وقد سمعت خطيباً آخر فى إحدى الكنائس بانكلترا يقول : « من العادات الشيقة بين بعض قبائل بلاد البرازيل أن الفرد إذا اضطر إلى الركض مدة طويلة ، يتوقف مرات ويجلس فترة من الزمن هادئاً ، لا ليستريح وإنما لينتظر روحه لتلحق به ، لأنهم يعتقدون أنهم حين يركضون تتخلف عنهم أرواحهم ولذلك يتريثون حتى تصل إليهم . . . فما أحوج أبناء هذا العصر إلى التشبه بأبناء القبائل البدائية . فكلما قطعوا مرحلة فى مجال التقدم المادى ، يتريثون قليلا حتى يساير تقدمهم الروحى التقدم المادى .

وحين يقضى الإنسان أكثر وقته غارقا فى الفلسفة العقلية ، أو مفكراً فى الآلة وتركيبها ودقائقها ، لا يمكنه تقدير القيم الروحية وفهمها ، بل لعله يحسبها غير حقيقية لا وجود لها . وقد التقيت بكثيرين من مفكرى هذا العصر يعتنقون أفكاراً عن الحقائق الروحية مستعينين فى ذلك بالمشابهات الميكانيكية . فهم يحسبون الصلاة أشبه بالأحاديث التليفونية ، ويصفون المحبة كمثل من أمثال المغناطيسية ، ويدعون الصلة بالله حالة من حالات التنويم المغناطيسى . أما الأشياء التى لا يجدون لها شبيها فى عالمهم المادى العقلى ، فانهم يحسبونها غير حقيقية .

وهذ الموقف العقلى العصرى ليس خطراً على الدين وحسب ، بل هو خطر أيضاً على الحياة ذاتها وما فيها من قدر وجمال ومعان خالدة ... هو خطر على الفضيلة ، وعلى الإلهام ، وعلى الولاء والإخلاص ، وعلى المحبة وغيرها من قيم الحياة الروحية المعنوية ، ذلك لأن هذه الأشياء كلها يصفونها فى الأدب الحديث كأنها مجرد انفعالات

حسّية. والإنسان العاقل ينبغي أن يتخلص من هذه الانفعالات، ولا يقيم لها وزناً في حياته . لذلك نرى الجانب العاطفي في حياتنا العصرية جائعا ضامراً .

والذي يفتقر إليه هؤلاء الناس ليس فلسفة جديدة في الحياة ، ولا وجهة نظر جديدة في الدين، ولكن الحاجة تمس إلى إحياء قوة كامنة خفية في نفوسهم. والعبادات الدينية — في نظر هؤلاء العقليين الماديين — مليلة تسأمها النفس وتبدو عاطلة عن النفع والخير . ولا غرابة في ذلك فالعبادة الدينية — حيّة كانت أو ضعيفة — تتركز في حقيقة الله ، وهي في جوهرها تتجه بالعقل والنفس إلى الله . وطبيعي أن يبدو كل هذا بليداً ، مليلا ، سقيما ، بل ربما غبيا سخيفا ، في نظر الذين لا يفكرون في الله ، وليس لوجوده معنى في حياتهم وتصرفاتهم .

وإنك لتسمع اليوم كثيرين في أوربا وأميركا وبعض بلدان الشرق يقولون لك ان المسيح لا يستهويهم ولا يستميلهم إليه . وهذا طبيعي ، لأن المسيح لا يحدثنا عن مذاهب الفلسفة العقلية ، ولا عن الآلة التي تقتصد الوقود في سياراتنا ، ولا عن الطريقة التي ندير بها إبرة الراديو لنسمع لندن وباريس ومدريد وفينا ، إنما يحدثنا بأشياء عن الله ، أشياء عجيبة مجيدة . فإن كانت كلمة الله لا توحي إلينا إلا حلما من أحلام الحمقى المجانين ، فإن المسيح لا يجذبنا ولا يستهوينا . هو يدعونا إليه ، ولكن ان كان العنصر الذي يستجيب في حياتنا ميتا ، فإن دعوته تذهب هباء وصرخة في الهواء . أجل ، إن الذي يفتقر إليه أبناء هذا الجيل هو إحياء تلك القوة الكامنة الدفينة في نفس الانسان التي تغيّر هذا الاتجاه العقلي الآلي .

ولعل أهم شيء جدير بالرعاية هنا أننا قد نساق إلى إغفال الأشياء ذات القدر والجمال في الحياة دون أن نشعر بأننا نقترف خطأ. فليس خطية أن نفتتن بالآلة الدقيقة العجيبة ، وليس خطية أن نستخدم كل ما لدينا من قوى الخيال والفكر لابتكار آلة نافعة ، وليس خطية أن نفسح المجال للعقل ليفكر في النظريات العلمية والفلسفية . ولكن ما قيمة الحياة كلها في نظرنا ؟ ماذا

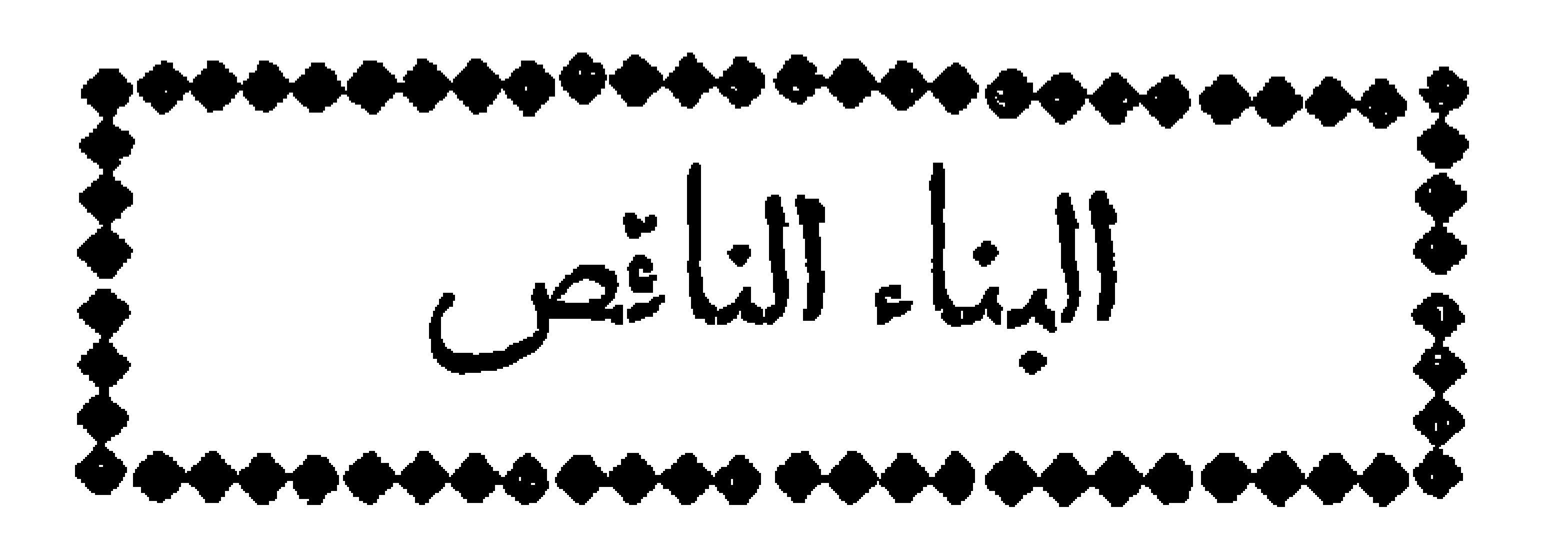
عسانا أن نفعل ازاء العناصر الروحية المعنوية فى الحياة ؟إن للأشياء الميكانيكية وللمذاهب العقلية ، فضلها ونفعها وقيمتها ، ولكن علينا فى فترات معينة أن نطرحها جانبا .ونفسح المجال لأشياء أعظم وأجلّ تغذى أرواحنا وقلوبنا ، وإلا ضمرت ملكاتنا الآخرى الارقى والاسمى .

وحين يغرق الناس فى الميكانيكيات والعقليات ، تفقد الحياة جمالها وروعتها ولذتها ومذاقها ، ولا تعود تشبع الناس ، بل تتركهم قلقين ، أشقياء ، عرضة للأمزجة السوداء ، يتوقون أبداً إلى أشياء تنقصهم ، لا يدركون كنهها ولا يعرفون سبيلها . .

هذا هو الداء الذى يشكو منه جيلنا ، فما العلاج ؟

إنه علاج بسيط ، يتلخص فى اسم واحد ، هو المسيح . فإن انسجمت حياتنا معه ، استيقظ فينا الشعور بجمال الحياة ، وقويت فينا محبة الآخرين ، وزاد اعجابنا بالأشياء الحقة التى تجعل الحياة سعيدة كريمة . هذا هو أثره فى كل النفوس التى تقترب إليه .

ولن يتم هذا طفرة . فعلينا أولا أن نحول تفكيرنا المستمر عن الاشياء التى تطفو على سطح الحياة . ولنذكر أن فى داخلنا ملكة نسميها « النفس »، وهى قوة ترى الاشياء غير المنظورة ، وتسمع الاشياء غير المنطوقة ، وتحب الاشياء التى لا يقدّرها العالم . والحياة العصرية تحاول أبداً أن تدفن هذه الملكة وتطمسها ، وتشلّها . ولكننا نقدر أن نستنقذها ونحييها . ومتى انقذناها وأحييناها ، نقدر أن نعيش حياة مليئة بالقوة ، القوة العظمى التى تنتصر !



البناء الناقص

«الحياة هى بناء يرتفع رويداً رويداً يوماً بعد يوم على مر السنين . وكل درس جديد نتعلمه هو بمثابة حجر يضاف إلى ذلك البناء الداخلى الذى يعلو فينا فى غير شنشنة ولا ضوضاء» .

. . . بالأمس وقع نظرى على بناء كان قد شرع صاحبه فى وضع أسسه وإقامة جدرانه . ثم تركه ناقصاً عديم النفع لا يأوى إليه ساكن دار ، أو نافخ نار ، إلا طيور تبنى فيه أعشاشها ، وعناكب تنسج حول جدرانه خيوطها . .

إن ذلك البناء الناقص العاطل عن النفع ، يشبه الحياة غير المكملة فى كثير من الناس . وكلنا بناؤون مشيدون . وقد لا نشيد قصراً تفتتن به العيون ، أو هيكلا تزدان به الطرقات . ولكن كلاً منا يقيم بناء يراه الله وملائكته . فالحياة هى بناء ، يرتفع رويداً رويداً يوماً بعد آخر على مر السنين . وكل درس جديد نتعلمه هو بمثابة حجر يضاف إلى ذلك البناء الداخلى الذى يعلو فينا فى غير شنشنة ولا ضوضاء . وكل اختبار ، بل كل لمسة رقيقة تلمسنا من الخارج ، وكل أثر ينطبع على نفوسنا ، وكل كتاب نقرأه أو حديث نتبادله أو عمل نأتيه ، هذه كلها تضيف قامة بعد أخرى فى ذلك البناء الداخلى غير المنظور . بل أن للحزن ذاته مكانته فى إعداد الحجارة الصلدة لأساس هذا البناء ـــ الحياة كلها وما فيها من أقوال وأعمال وأحداث ، هى مواد البناء النفسى .

وكم رأت العين من شخصيات كاملة البناء فى العالم . ولكنها رأت أيضاً آخرين لا يشيدون إلا أكواخاً حقيرة ، لا جمال فيها ولا بهاء . لا تلبث أن تنهار أمام عصفات الحوادث والتجارب . وكثيرون تبدو حياتهم كأنها بناء ناقص شُرع فى إقامته ثم تُرك مهجوراً ناقصاً . بدأت الفكرة الأولى فى البناء حسنة نافعة مشبعة بالآمال والأمانى ، ولكن سرعان ما أهملت الفكرة ، وطرحت فى زوايا النسيان ، وظل البناء هيكلا عارياً عرضة للخراب والدمار ، لا شىء فيه من الذكريات الخالدة التى تذكر فتشكر .

ولسنا ننكر أن بين أبنية الحياة ما يبدو لأعيننا ناقصاً مهجوراً ، ولكنه فى نظر الله يستزيد كل يوم من الجمال الخفىّ عن الأعين المجردة . أما عرفت شاباً يافعاً بدأ حياته بكل ما فى الشباب من معانى الاقدام والحماس والاستعداد لتكريس النفس . ولكن مرضاً أو عجزاً عاجله ، فتراخت اليد النشطة ، وخمدت نار الحماس ، وظل البناء ناقصاً .

إن مثل هذا يستحق منا العطف والإشفاق . على أنه لم يترك حياته ناقصة مهجورة ، ولكنه أخضعها كما هى ، تحت أمرة صانعها . وهيكله الروحى فى داخل النفس يتزايد تدريجاً بدروس الصبر والسلام والفرح . ولسنا نرضى أن نقيس البناء الروحى بالمقاييس الأرضية . فإنه متى ظل القلب مخلصا وموالياً لله ، ومتى حمل صليب الألم فى صبر وفرح ، ومتى خضعت الروح ولو مع عجز اليدين وتقييد الرجلين ، فإن الهيكل الروحى يزداد فى القامة حتى يبلغ درجة النضوج والجمال الكامل .

ولكن ثمة أبنية أخرى من الحياة البشرية تنبىء قصتها عن العار والخزى والفشل . فكم من أشخاص بدأوا حياتهم ردحا من الزمن مع الله ، أو اتبعوا عقيدة جديدة ارتضتها ضمائرهم ، أو شرعوا فى عمل نافع جليل . ثم لم يلبثوا أن حادوا عن الخطة المعتزمة بسبب خوار العزم وضعف الهمة .

وبين الأقاصيص الشعرية الى دبجتها براعة الشاعر الانكليزى « وردزورث ». قصة شجية محزنة عن كومة من الحجارة الغشيمة وبناء ناقص لم تكمله يد البناء وذلك أن ميشيل العجوز ، وهو راع من رعاة الأغنام ، عاش مع زوجته مدة طويلة فى هناء من العيش . ولكن زوبعـــة ثارت حملت الابن على أن يهجر موطن أبيه ليعمل مستقلا .

وظلت الأنباء المشجعة ترد من الابن تباعاً . وكان الراعى الشيخ ينتهز فرصة الفراغ من عمله للعمل فى بناء زريبة جديدة لأغنامه . وأخيراً تلقى أخباراً من ولده تنبئه أنه حاد فى أرض الغربة عن الطرق القويمة . وانساق إلى مسلك الشر والاثم . وأخذ يتمرغ فى حمأة من العار والشنار ، حتى اضطر إلى أن يهجر مكان عمله ويلجأ إلى مخبأ بعيداً عن أعين الناس فيما وراء البحار . وكان لهذه الأنباء القاصمة للظهور أثرها السيء فى كسر قلب الوالد الشيخ . ومع ذلك ظل كعادته يختلس الفرص للعمل فى إتمام الزريبة . ولكن فى همة كليلة ، وقلب خائر . وقد لحظ عليه الجيران هذا الملال والضعف فى عمله .

انقضت السنون واختفى الراعى من مسرح الحياة ، وظلت وراءه بقايا هذا العمل الناقص ذكرى حزينة مؤلمة تتحدث عن شخص بدأ عمله ولم يفرغ منه . كسر الحزن قلبه فارتخت يداه .

وفى أحيان كثيرة يكون الحزن داعياً إلى الوقوف فى بناء الحياة . فترتخى الأيدى وقد كانت ناشطة حاذقة . وكان الأولى بنا أن يحفزنا ظرف كهذا إلى الاستزادة من الغيرة والإخلاص للحياة .

وضعف الإيمان وزعزعة العقيدة من البواعث المؤدية بنا إلى ترك بناء الحياة ناقصا مهجوراً . فلقد تبعت الجـــماهير يسوع فى بدء خدمته فى أيام الاشراق والأمل . ولكن عندما لاح فى الأفق ظل الصليب أداروا ظهورهم وولوا هاربين وأضاعوا فيه إيمانهم ، حتى الرسل المقربين إليه اهتزت عقائدهم

ولو لم يسترجعوا إيمانهم عقب القيامة لكانوا خلفوا من ورائهم فى العالم مجرد ذكريات حزينة كئيبة تنبىء عن الفشل . وفى هذه الأيام يحيد كثيرون عن الايمان ، ويهجرون هيكل حياتهم مهدماً ناقصاً . يفعلون ذلك حيال مقاومة ضئيلة لاتعتبر شيئاً أمام الظروف الشنيعة التى جازها أسلافنا .

والخطية أيضاً تشل يد البانى . وقد تكون هذه الخطية فى غرور العالم وأباطيله ، أو فى عشراء السوء وزبانية الاثم ، أوفى شهوة خبيثة دفينة تتملك النفس وتمتص روحانيتها . وأنه لمن المؤلم حقاً أن تقع العين على هياكل روحية ناقصة البناء مشوهة الشكل ، على بدايات حسنة لم تصل إلى خاتمتها المنتظرة ، على مقاصد نبيلة حارة لم تلبث أن فسدت وخبت حرارتها ، على رؤى وأحلام جميلة مستحبة كان يمكن لها أن تصبح حقائق باهرة ، ولكنها ذابت واختفت كالأمواج تصير زبداً ثم تستحيل هباء . والحياة فى كل مناحيها وأوضاعها — الدينية أو العملية — حافلة بكثير من هذه البدايات والمشروعات المهملة الناقصة بسبب فتور فى العزم ، أو زعزعة فى العقيدة ، أو تباطؤ فى الجنى ...

أرأيت إلى نفس بائسة مهدمة مطروحة فى زوايا الطرقات ؟ أرأيت إلى سجين يقضى مدة التقييد والاذلال وراء قضبان السجن ؟ أرأيت إلى ساقط متمرغ فى حمأة الاثم والفضيحة ؟ فى جميع هؤلاء أشرقت يوماً ما أومضة من الأحلام الجميلة ، والرؤى المنيرة ، والآمال الكبار ، والأفكار والمقاصد المقدسة ـ ولكن بالأسف لم تكن تلك الرؤى والأحلام والآمال والأفكار والمقاصد إلا بدايات لم تكمل . إن ملائكة الله تتطلع من العلياء فتقع أعينها المتلمعة على برية جرداء واسعة فيها كثير من الأبنية الروحية الأخـــلاقية الناقصة ، والممكنات المهملة ، والذكريات المحزنة .

أليس فى هذا عبرة لنا لكيلا نتثاقل تحت أى ضغط ، ولانجفل أمام أية

كافة ؟ فلا أحداث مثبطة ، ولا أحزان مذيبة ، ولا غوايات عالميـــة ، ولا صعوبات قاسية ، ولا مضايقات مضنية ، تستطيع أن تحول أنظارنا أو تشل أيدينا عن بناء هيكل حياتنا ، لئلا نحزن قلب الله !

كيفية البناء

بقيت النقطة الايجابية ، هى كيفية البناء وموارده . ولكل حياة بشرية قصد معين أعده لها الله لتسعى إليه . ولايكون هذا القصد إلا سامياً نبيلا .

والشخصية لاتبنى إلاعلى أساس صالح مكين ثابت. وعندنا نحن المسيحيين، لايقوم بناء الشخصية إلا على أسس معينة — هى الحق والطهر والمحبة . ولم تر العين قبل الآن بناءً قام طفرة أو بمعجزة ، إنما يقوم كل بناء حجراً فوق حجر فى شىء من العناء والجهد والبذل . وأنت لاتقدر أن تصيغ نفسك فى حلم . ولابد لك من استخـــدام المطرقة والسنديان والأزميل لبناء الشخصية .

ثم أن الانسان نفسه مسئول عن بناء شخصيته . فان صلوات الأم مثلا ومعونة الأصدقاء أو المعلمين ، قد تنفع بعض الشىء فى تقوية النفس . وما يجوز إلى أنفسنا من مؤثرات العشراء ، ومانشاهده من المناظر الطبيعية والاختبارات المختلفة ، قد يكون له أبلغ الأثر فينا . ولكننا فى آخر الأمر نحن البناة الحقيقيون لأنفسنا. آخرون قد يرفعون لنا الأحجار والمواد ، ولكن نحن الذين نثبتها فى أماكنها وأيدينا هى التى تهذبها وتصقلها . آخرون قد يهيئون لنا الريشة ويمزجون لنا الألوان ولكن نحن الذين نرسم الصورة ونكسوها مسحة من الجمال والكمال .

فإذا تهدم البناء أو تشوهت معالم الصـــورة ، فلا نلومنّ إلا أنفسنا. قد يكون غيرنا قد أساء إلينا منذ الصغر ، أو ربما نكون قد ورثنا عن السلف علة أو عاهة أو ضعف خلقى لاتبعة علينا فيه .

ومع ذلك فنحن — مع الله — نستطيع أن نبنى شخصياتنا . والأجزاء المبعثرة المتهدمة قد يمكن صوغها وتكوينها إلى بناء فخم . وإنه ليدهشنا أن نرى كثيرين — فى ميدان الروحيات والأرضيات — قد نبغوا فى الحياة وصاغوا شخصيات قوية من مواد هزيلة مبعثرة من الفشل والمذلة .

شهدت فى إحدى كنائس رومية الكبرى نافذة صنعها صانع تحت التمرين من بقايا الزجاج المكسور الملقى على الأرض مهملا ، هى أجمل نافذة فى تلك الكنيسة . فأنت تستطيع أن تصنع من نفسك شخصية نبيلة — على الرغم من آثار الايذاء التى تلصق بك من الآخرين عفواً أو عمداً — من الآمال المتهدمة والفرص الضائعة المطروحة عند قدميك . وقد يشعر قوم انهم قد أضاعوا فرصتهم ، وليس لهم مهرب من الهزيمة فى الحياة . وهذا قول لا يصدق على عالم مات فيه المسيح لينتشل الساقطين من وهادهم ، ويحملهم إلى السمى وراء كل ماهو حسن ، كل ماهو جميل ، كل ماهو طاهر ، كل ماهو حق ...

ومما يروى عن أحد الشعراء انه كان مرة سائراً فى حديقة داره ، فأبصر عشا من أعشاش العصافير مطروحا على الأرض . كانت قد اكتسحته الزوبعة وطوحت به على الأرض . فأخذ الشاعر يتأمل حزينا فى ذلك البيت المتهدم ويرثى لحال أصحابه ، ولكنه رفع رأسه فرأى العصافير منهمكة بين الأغصان تبنى عشاً آخر .

وفى هذا درس لنا نحن البشر . فإن كنا قد غلبنا على أنفسنا مرة فلا نيأس ولا نبتئس . بل لننهض ونبدأ البناء من جديد . ولسنا نقدر أن نصلح خطأ أمسى فى ذمة التاريخ ، أو نلم شعث خرائب تبعثرت فى سنوات خلت .

إنما فى وسعنا أن نبدأ عند قدمى الله من جديد ، لنبنى كل شىء جديداً .

حضارتنا الحديثة وهل تزول ؟!

« ينبغي أن نذكر أن يقظة الارادة الاجتماعية لن تتم إلا إذا استيقظت إرادة الأفراد وانتعشت ضمائرهم ».

. . . يمتاز هذا العصر بطابع بارز ، هو أن يعلق كل رجائه على الإنسان — على الأفكار البشرية ، والإرادة البشرية ، والجهود البشرية — هذه كلها التي يسميها « حضارة العصر » . وكثرة الناس يفهمون « الحضارة » على أنها مجموعة المظاهر المادية التي نعيش في كنفها . والفكرة العامة الشائعة أن الحضارة الحديثة هي — المنازل المهيأة بمعدات تكييف الهواء ، والمضاءة بألوان الكهرباء ، والسيارات الفخمة في وفرة هائلة ، والبواخر الضخمة التي تضارع الفنادق الباذخة ، والطائرات التي تنقل المسافرين من أقصى الأرض إلى أقصاها في ساعات معدودات ، وآلات التليفون في كل مكان ، والمعارض والمسارح والمطاعم والمتاحف الخ الخ . . .

صدقوني إن هذه هي الحضارة كما نفهمها ، أو على الأقل كما يفهمها أغلب الناس . ولكن هل هذه المظاهر المادية وحدها تبرر الرجاء في عالم أفضل وحياة أفضل ؟ أخشى أن ننسى في كبريائنا دروس التاريخ . وأخشى أن ننسى أن حضارات أخرى قامت في التاريخ المنصرم على موارد مادية هائلة ، ومخترعات آلية حاذقة — تختلف عن حضارتنا هذه ، ولكنها لا تنقصها من حيث الروعة والكثرة والقوة . فما الذي حل بتلك الحضارات القديمة ؟ أين حضارة رومية واليونان ومصر ؟ إن بقاياها وخرائبها ومعالمها الدراسة تحدثنا

عن عظمة قد تفوق عظمتنا . ونحن المخدوعون حين نفخر بأشـــيائنا الصغيرة الحديثة .

الارتقاء فى العقل البشرى

ورب قائل يقول إن «الحضارة» تعنى شيئاً أعمق من هذا. إنها تعنى الارتقاء فى العقل البشرى والروح البشرية ، فى اتساع دوائر المعارف ، ووفرة الذكاء ونمو أسباب الحرية ، ورقىّ الاحساس الانسانى والضمير البشرى ، وما أشبه. فليكن هذا حقا . فليس من ينكر ان تغييراً هاماً قد حدث فى هذه المتجهات على أننى أشك كثيراً فى صلاحية هذه وحدها أن تكون دعامة للتفاؤل والرجاء فى خلق عالم أفضل ...

وهلمّوا الآن إلى لبّ المسئلة : إن الشيء الوحيد الذى يبرر رجاءنا فى الحضارة هو أخلاق الناس . فهل ارتقت أخلاق الفرد ، وأخلاق الجماعة ، فى ظل الحضارة الحديثة ؟ إن الذى يجيب على هذا السؤال بالإيجاب ، وفى صيغة التأكيد الجازم ، لابدّ أن يكون جريئاً جسوراً . والحق أن المجتمع العصرى تنقصه المبادىء العظمى — ذلك لأن نظرتنا إلى الصواب والخطأ قد طمست فلم تعد واضحة المعالم . واليوم نرى رأياً ، وفى الغداة رأياً آخر . نحرّم اليوم ما حللناه بالأمس . ونحلل لأنفسنا ما نحرمه على غيرنا . تنقصنا المبادىء الأخلاقية المعنوية الثابتة التى نضعها مثلا عاليا لأنفسنا وحياتنا . وليست هذه قاعدة شاملة جامعة . ففى بعض الانحاء وفرة من الخير والحق والعدل والبر ، ولكن مبادئنا بصفة عامة ناقصة مشوهة ، وأشرّ ظاهرة فى المجتمع ليست الحياة الشريرة ، بل المبادىء الوضيعة الحقيرة .

فهل نحن محقون فى أن نعتقد بأن الحضارة الحديثة تكفل لنا تحقيق آمالنا اللامعة فى مستقبل سعيد ؟ إن كثيرين من المفكرين فى العالم يرون فى هذا النظام المتحضر أمائر الانهيار والفناء ، ويؤكدون لنا أننا سائرون فى الطريق ، لا إلى الفردوس الموعود، بل إلى نكبة عالمية ماحقة ولقد قرأت مؤخراً الكاتب

فرنسى بحثاً مستفيضا يحلل فيه حضارتنا العصرية ، ويتنبأ عن مصيرها فى مقتبل السنين على ضوء ما يشاهده من أطماع هذا العصر الجشعة . وهذه هى الصورة التى يرسمها فى بحثه :

تزداد المدن اتساعا وامتدادا ، وتتكدس المبانى طوابق فوق طوابق ، ويتخلل جوف الأرض شبكة من الانفاق والطرق السفلية ، ويتنفس الناس هواء صناعيا ، وتعظم الثروة وتتكاثر ، وتزول الطبقات الارستقراطية القديمة ، ويبدو لنا النظام الاجتماعى قويا مشيداً فترة من الزمن . ولكن تجىء النهاية بغتة بينما يحسب الناس أنفسهم فى أمن وطمأنينة . وتعمّ الاعتصابات الهائلة وتنشب الثورات المقوضه ، وتتعاقب الهزات الاجتماعية بعضها إثر بعض . وأخيراً تضطرم نيران ثورة عالمية لا يفيق منها المجتمع . ثم تختفى الثروة وتندثر التجارة والصناعة ، وتخرب المدن الكبيرة العامرة . . .

ليست الحضارة هى التى تخلق فى قلوب الناس الأمن والرجاء ، إنما شىء آخر . وهنا تحضرنى قولة مأثورة لرسول المسيحية الأكبر: «ليملأكم إله الرجاء كل سرور وسلام » . ولم يكن هذا الرسول من أصحاب النظرة المتفائلة فى الحياة بل لم يخف عن نفسه ، ولا عن أصحابه ، ان حوله اضطرابات فى الخارج ، وفى نفسه مخاوف فى الداخل . وقد ألم بما كان يجرى حوله فى العالم، ولم يغرق فى خيالات الحالمين الذين يزعمون عادة ان روح العالم ينسجم مع روح الله ، أو أن ماديات الحضارة الرومانية المعاصرة كانت إيذاناً بحلول العصر الذهبى .

ومع هذا كله كان بولس متفائلا قوياً . ولعل قوة هـــذا الايحاء كانت مستمدة من اعتقاده بأن القوى الإلهية ستظفر فى آخر الأمر مهما تفاقمت الخطوب وأن القوى البشرية لن تفشل إذا تماشت مع القوى الإلهية وانسجمت معها . ان الحضارة وحدها من دون الله هى الخيبة مؤكدة . ولن يستقيم حال البشر إلا إذا كانوا فى علاقة طيبة مع الله ، وحاولوا جاهدين مخلصين ان يعرفوا

إرادته الصالحة ويتمموها . والله يُعنى بالجماعات كما يُعنى بالأفراد . وهو يدعو كل أمة أن تقوم بنصيبها وخدمتها المعينة ، ويزودها بالقوة على القيام بهذه المهمة . والأمة التى تنبذ الدعوة الإلهية ، ينبذها الله ، ويبحث عن غيرها لتفعل مشيئته . أما الذين يلبثون الدعوة ، فإن « إله الرجاء » يملأ قلوبهم سلاماً وأمناً ورجاء .

الرجاء الوحيد

إن الرجاء الوحيد للمجتمع البشرى يتحقق إذا انسجمت الإرادة الاجتماعية مع الإرادة الإلهية . ولكن ينبغى أن نذكر ان يقظة الإرادة الاجتماعية لن تتم إلا إذا استيقظت إرادة الأفراد وانتعشت ضمائرهم . ذلك لأن كل إصلاح فى التاريخ إنما قام به الأفراد قبل أن تفطن إليه الجماعة . بل إن الأفراد هم الذين يقودون الجماعات ، وكثيراً ما يكون ضمير الجماعة بليداً ، فيعاكس فى أول الأمر الإصلاح الذى يقوم به الأفراد النابهون المقدامون . فهل نقدّر نحن كأفراد مسئوليتنا أمام التاريخ ؟ وهل نحن باذلون ما فى وسعنا لتوطيد أسباب ملكوت البر والحق فى العالم ؟ إن مجهوداً صغيراً ضئيلا من فرد واحد يحدث أثره الكبير الذى لاشك فيه .

ولن نكون متفائلين فى جهادنا إلا إذا سلّمنا أنفسنا لله ليجرى معنا طريقه . ومتى صرنا لله ، غدا المستقبل بأيدينا ، وغدت المواعيد ملكا لنا ، والبركات والمنهج حقاً للذين يطيعون الله :. ذلك لأن الممالك قد تسقط ، والأمم قد تزول ، والحضارات قد تندثر ، ولا يبقى غير ملكوت الله ثابتاً قوى الأركان .

« إله الرجاء » هو رجاء العالم ، ومخلّص الإنسانية ، هو الذى يقيلنا من عثارنا . .



العقوبة !

« المسيحية العملية لا تتحدث كثيراً فى عقاب المجرمين والاقتصاص من المعتدين . إنما دعوتها ونداؤها : أن اضمدوا جراح المبتلين، اعصبوا ضربات المضروبين ، ردوا الضالين الشاردين ، وانتشلوا البائسين المحرومين ... »

تطورت فكرة العقوبة بتطور الإنسانية . والفضل فى ذلك يرجع إلى المؤثرات المسيحية . فقد كانت فكرة الانتقام الشخصى من المجرم هى الفكرة السائدة فى العصور الأولى ، فكان للمجنى عليه أو أهله أو قبيلته الحق فى الانتقام الشخصى والأخذ بالثأر أو قبول الدية . ولما تطورت الأمم ووُجدت السلطات المنظمة استولت هذه السلطة على حق العقاب . إلا ان فكرة الانتقام ظلت متغلبة . وكانت العقوبات عند الأمم قديمة فى منتهى القسوة والصرامة لاتتناسب مع درجة الجرم . فقاتل أبيه أو أمه فى القانون الرومانى القديم كان يوضع فى غرارة ومعه ثعبان وقرد وديك ويُغرق فى مياه نهر التيبر . وفى بلاد العرب كانوا يقطعون يد السارق ويرجمون الزانية . وفى الشريعة الموسوية القديمة كانوا يقتلون الزانى والزانية معاً ، ويقطعون خاطف الإنسان من أرض الأحياء .

وظهرت بعد ذلك — خصوصاً فى الأمم ذات الأنظمة الدينية — فكرة التكفير عن الذنوب ارضاء للآلهة . فكان توقيع العقوبة تكفيراً عن الذنب الذى يرتكبه المجرم لمخالفته القانون . وكانت العقوبات صارمة تشمل أصنافاً

وألواناً من التعذيب زجراً للمجرم نفسه ، ورادعاً وعبرة لمن يحدثه هواه بارتكاب الجرم . ولم تكن العقوبات متعادلة، بل كانت تتفاوت حسب درجة المذنب فى الهيئة الاجتماعية ، وأمرها موكول إلى هويّة القاضى ومزاجه . وبهذا الدور مرّت ممالك أوربا فى القرون الوسطى .

النزعة الانسانية

وجاء بعد ذلك دور النزعة الإنسانية ، يوم قام الفلاسفة والمشتغلون بالعلوم الاجتماعية فى القرن الثامن عشر ضد صرامة العقوبات وقالوا : إن المذنب إنسان كسائر الناس ، وإن الإجرام نقص فى الإرادة ، فلا ينبغى أن يكون العقاب رادعاً بالتعذيب والإيلام ، بل مؤدياً إلى التهذيب والإصلاح. وكان لهذا الرأى أثره فى إصلاح السجون ،وتخفيف وطأة العقوبات، وإلغاء عقوبة الإعدام فى كثير من الممالك ،وإدخال نظم الإصلاحيات . ومافتىء العلماء والمصلحون منذ ذلك الحين يبحثون ويحللون نفسية المجرم وأسباب الإجرام وعوامله من الوجهتين الشخصية والاجتماعية .

وليس يصعب على الباحث المنصف ان يتلمس المبادىء المسيحية متغلغلة فى هذا الدور الأخير ، لأن الحق المسيحى أشبه بخميرة صغيرة تعمل تدريجاً ، وفى بطء ، حتى يختمر تماماً فى العقول والقلوب .

ويجب ألاّ نخلط بين الحكومات المسيحية وبين المبادىء المسيحية،فليس بين الحكومات الأرضية حكومة مسيحية بالمعنى الصحيح . حتى ولو كانت غالبية أبناء الأمة من المسيحيين ديناً . وشرائع الحكومات الزمنية مهماسمت وارتقت هى دون المبادىء المسيحية فى كثير أو قليل . ولم تعتنق بعدأية حكومة أرضية مبادىء المسيحية فى أسمى معانيها ومظاهرها .

على أن هذا لايمنعنا من القول ان الحكومات التى يدين شعبها بالمسيحية تتأثر غالباً فى شرائعها وأنظمتها وسياستها بالمبادىء المسيحية ، خصوصاًمتى كان التشريع فيها وليد إرادة أبناء الشعب . فالشريعة التى تسنها إنكلترا

أو أميركا أو فرنسا مثلا تكون أقرب إلى المبدأ المسيحى من شريعة تستنها حكومة تركستان أو حكومة بلاد الصين .

ويزعم كثيرون أن العقوبة الزاجرة الرادعة تتنافى مع أحكام الانجيل القاضية بأن تعفو عن الأخ المسيء حتى إلى سبعين مرة سبع مرات . غير أن المقصود هنا أن تعفو أنت عمّن يسيء إليك شخصياً . أما أن تتهاون مع المعتدين على الله أو الإنسان ، أوأن تغض الطرف عن تعديات ناموس المحبة، والانتقاض على نظم الجماعة ، وشرائع الحق والعدل والانصاف، فهذا ليس من روح الوصية فى شيء . وهنا نسمع قديسنا الكبير يوحنا فم الذهب يقول : « ليس تدينا وورعاً ان نتغاضى عن سيئات ترتكب ضد الله » .

عقوبة القتل

أما عقوبة إزهاق النفس التى حرّم الله قتلها ، فقد كانت — وما تزال — موضع كثير من الجدل والنقاش . وأنا لست أدرى المصدر الذى أوحى بها وجعلها سائغة فى أحوال القتل فقط دون سواها . فإن كان أصلها مأخوذاً عن سفر التكوين ، فهذا قول هراء، لأن الشريعة الموسوية شرعت عقوبة الإعدام فى أحوال شتى كالزنى وكسر يوم السبت . وأما إن كانت أثراً من آثار النظرية البائدة « عين بعين وسن بسن » ، فهذا لا يتفق وروح الحضارة الحديثة .

وليس من ينكر على الهيئة الاجتماعية حقها فى توقيع العقوبة ودفع خطر الإجرام عنها ومنع تكرار الجرائم . وهى تسلك هذا المسلك عينه فى مقاومة الأمراض ووقاية نفسها من غوائل الطبيعة . وللحكومة الحق فى إبعاد أو تقييد أبنائها غير المرغوب فيهم ، كما يفعل البستانى الماهر فى اقتلاع الأعشاب الضارة من بستانه . وليس هذا الفعل عقوبة بالمعنى الصحيح بل هو ضرب من ضروب الإصلاح الصحى الاجتماعى . وليس إثماً أو خطأ أن يوضع السفاكون واللصوص والسالبون والثائرون على الهيئة موضعاً قصيّاً عن

الجماعة — على أن لا يكون فى ذلك إذلال أو تعذيب أو إنتقام ، بل إصلاح وتهذيب وتقويم .

والدافع إلى عقاب المجرم هو الشعور الأدبى الصادر من الجماعة . هذا هو المبرر لفكرة تقييد المسىء وكبح جماحه . ولكن ينبغى أن يكون شعور الجماعة الأدبى راقياً مستنيراً . فلسنا نرضى فى القرن العشرين أن يُعذّب السحرة المنافقون ، ولا أن يُحرق الهراطقة الملحدون،ولا أن يُسام المخالفون لنا فى العقيدة نوعاً من أنواع الخسف والاذلال . ولسنا نرضى أن يُعطى المُضار الذى لحقته الإساءة أو وقعت عليه الجريمة حق الاقتصاص والأخذ بالثأر ، ولا أن نسلّم المجرمين إلى هياج الرأى العام وسخطه ، ليفعل بهم حسبما تمليه عواطف الغوغاء الثائرة التى لا جماح لها .

ولسنا نظن أن حبس السارق مثلا وحجزه فى مكان للاصلاح ينافى مبدأ الغفران والتسامح فى المسيحية . فإنك بوضعك المعتوه فى معزل مرضى العقول لا تفرض عليه عقوبة ، ولكنك تعمل على إتقاء شره وتقويم شذوذه ، حتى يزول خطره على نفسه وعلى الهيئة . كذلك يعتبر المجرم مريضاً شاذاً . فمن الواجبات الإنسانية على الهيئة أن تعمل على علاجه وإبرائه .

علة الداء

ولكن ما لنا والإجرام والجريمة . فاننا إذا حللنا العوامل المختلفة ودرسنا روح الجماعات ، وجدنا أن علة الداء وأصل الجريمة ينبعث من مصدر واحد هو «الخطية» فى نفس الفرد ، الخطية التى تتشكل فى أوضاع مختلفة من أنانية ، واستئثار بالمنافع ، واهتمام بالذات ، والمصالح الشخصية. وهذه هى التى تولد فى النفوس شذوذاً وإعوجاجا ، وكراهية وإجراماً . وما لم نلجا إلى نبع آخر نستمد منه بواعث العمل الصالح ، لن يمكن احداث أى تبديل فى طبائع البشر .

وقد لجأ قوم إلى العلم لعلهم يجدون فيه ركيزة جديدة ، ونبعاً فياضاً لتقويم الحياة . فأخذوا يدرسون علم طبائع المجرمين وفن العقوبة وما إلى ذلك .ولسنا نبخس العلم حقه ولا نغمطه فضله ، ولكنه ليس أداة التقويم والإصلاح ، ولا مبعث التجديد والاحياء .

الوسيلة الوحيدة

وكمسيحى أعتقد أن هناك وسيلة واحدة لانتشال المجرمين الشاردين ، وتقويم الأغصان المائلة المعوجة فى شجرة الحياة ...

فإنه منذ ألفى سنة عاش شخص لم يكن كاملا فى كماله ومثاله فحسب ، بل كان مصدراً لقوة جديدة فى نفوس الأفراد ، جمع اليه شرذمة من ضعاف القوم لم يفهموا رسالته الا بشق النفس . بل قد خيبوا آماله مراراً فى مآزق حرجة وأخيراً تركوه وهربوا عند موته . . . ونراهم بُعَيد ذلك شرذمة طريدة يائسة ، يتحادثون همساً ، ويجتمعون وراء أبواب محكمة الإيصاد ، مخافة افتضاح أمرهم . وبعد ذلك بقليل خرجت تلك الفئة المستضعفة من مخابئها ووقفت مستبسلة أمام جرائم البشر ، وعقوبات القانون . ولم يقدموا للعالم قانونا مكتوباً ، ولا شريعة مسطورة . بل قدموا « قوة » و « حياة » هى الحق والطريق والحياة — قوة تنتشل المجرم من إجرامه ، وتسمو بجمود القانون وبطشه ، إلى ليونة المحبة وحنانها . وتلك القوة هى (روح المسيح) التى تخلق الحياة الروحية الجديدة فى الفرد .

ولسنا نعنى بذلك ان العالم المسيحى يخلو من المجرمين الذين تطاردهم شرعة العدالة والحق . إنما أردنا القول انه على الرغم من الفشل المتكرر الذى تعثر بأذياله المسيحيون فى معالجة الجرائم والمجرمين، نراهم الآن يعودون الى استلهام وحى المسيح ، والاستنارة بمشكاة حقه وعدله ومحبته .

والمسيح فى حياته لم يرذل أنين القصب المنسحق ، ولم يكسر قصبة

مرضوضة ، ولم يحتقر إناء مكسوراً ، ولم يطرد من حضرته مجرماً زنيماً ، ولا لصاً تائباً . . .

والمسيحية العملية لا تتحدث كثيراً عن عقاب المجرمين والاقتصاص من المعتدين . إنما دعوتها ونداؤها : أن اضمدوا جراح المبتلين ، اعصبوا ضربات المضروبين ، ردوا الضالين الشاردين ، وانتشلوا البائسين المجرمين .

هذه هي المسيحية العملية !

هذه هي مسيحية المسيح !



جمال الورد

« ... إذا كان إنبات الأزهار والرياحين فى بقعة الأرض عملا يستحق الذكر والثناء ،فكم بالاولى استنبات ثمار الروح فى نفس بشرية ... »

لاشك أن الله يحب الورود والأزهار لأنه نثرها فى كل رقاع الأرض. لا فى البساتين والحدائق التى تستنبتها يد الانسان فقط ، بل فى الحقول والمروج والغابات ، فوق قنن الجبال وفى بطون الأودية وعلى جوانب مجارى المياه ، حيث تنبت من تلقاء نفسها دون أن تمتد بها يد البستانى . وان وفرة الورود والأزهار فى أوان ازدهارها لما ينبىء البشر بأن الله يحب الجمال ويعنى بالإنسان الذى زين له الأرض موطنه . ولم يصنعها جرداء عارية من أسباب البهاء والرواء .

والمثل الأعلى لحياة الإنسان هو أن يكون شبيهاً بالله ، وأن يحب الجمال الذى احبه الله. ويروى أن رجلا صعد ذات يوم إلى جبل عال حيث وقع نظره على كوخ صغير وقف أمامه رجل عجوز عرفه منذ زمن بعيد . ترقف الرجل خاشعا مطاطىء الراس وقبعته فى يده، فانتظر الطارق هنيهة ثم أقبل إليه وقال:

— لم أشأ أن أكلمك ياصاح ، لأنى ظننتك تصلى !

فأجابه العجوز :

— ليس ماتقول هو الواقع تماما .

ولكننى تعودت منذ أربعين عاما على أن أقف كل صباح هذه الوقفة الخاشعة أطاطىء الرأس أمام جمال الطبيعة !

والحق أن الجمال الذى كان هو انعكاس وجه الله . هو شعاعة النور السماوى المسلطة على الأرض . وكلما رأينا الجمال فى الطبيعة أو الانسان أو الحيوان نذكر أن الله قريب ، وانا أمام نور وجهه .

ومتى كان الانسان شبيها بالله، فهو لايكتفى فقط بحب الجمال والاتصاف به فى حياته وصفاته ، بل يسعى إلى خلقه فى كل الأوساط التى يتصل بها . لايحب الأزهار فقط ولكنه يعمل على إنباتها وازهارها وتعهدها بالسقيا لاروائها وانمائها . وبين الناس من إذا توافرت لديه رقعة صغيرة من الأرض فى مسكنه تفانى فى تهذيبها وتجميلها . وإذا لم تتوافر لديه أية رقعة عمل على إنبات الأزهار فى أوعية يضعها على النوافذ وفى الشرفات . ومن يتراخى فى تجميل رقعة الأرض المحيطة بمسكنه ، ولايعنى شيئا بالأزهار والخضرة ، نتهمه بالتجرد من حسن الذوق . ولاعبرة بالفقر والغنى فإنك تستطيع أن تجعل أحقر غرفة بهية المنظر جذابة الشكل .

وما أحوجنا نحن الشرقيين إلى تهذيب أذواقنا وتعويدها على تقدير جمال الطبيعة وحب الأزهار والعناية بها وتلقين أولادنا هذا الدرس حتى يتعلم الصبى أن قطع زهرة لمجرد التلهى ، أو الدوس على نبتة ، خطية ضد قدسية الجمال الذى أحبه الله !

جمال القلوب

وثمت أزهار أخرى فى حياتنا غير الأزهار الطبيعية تبدو للنواظر جميلة محببة . فان قلوبنا أشبه بحدائق يجب أن يسطع جمالها فتانا ، ويفوح أريجها رائحة زكية ، والقلب البشرى فى حاجة مستديمة إلى التشذيب والتهذيب . فأعشابه الضارة يجب إن تقلع ، وتربته الوعرة يجب ان تمهد ، ويزرع فيها ثمار الروح . . .

وإذا كان إنبات الأزهار والرياحين فى رقعة من الأرض عملا يستحق

الذكر والثناء ، فكم بالأولى استنبات ثمار الروح فى نفس بشرية أخرى .
والأزهار تبدو جميلة جذابية فى أوفر الرقاع خصبـــاً وغنى ، ولكنها تبدو أشد جمالا وجاذبية وروعة عندما تقع عليها العين حيّة مزهرة فى أمكنة جدباء موحشة . فاذا ما أبصر المتسلق فوق الجبل زهرة أنيقة تحوطها الثلوج نابتة فوق صخرة شامخة ، يقف خاشعاً معجباً أمام هــذه الحياة الجميلة الغضة المتهادية فوق الأكمة الجرداء . ويروى عن أحد الرحالة أن نفسه فاضت بعوامل التأثر العميق إذ رأى زهرة جميلة نابتة على حافة بركان « فيزوف » بإيطاليا . فهناك فى فجوة صغيرة وسط المقذوفات والحمم البركانية تجمعت الأتربة والرماد التى تصادف أن بها حفنة من التربة الخصبة نزلت عليها مياه الأمطار وحملت إليها الرياح ـــ أو ربما بعض الطيور ـــ بذرة تلك الزهرة ، فنمت وازدهت على حافة تلك الفوهة التى تقذف الحمم والنيران ! فلا عجب أن يقف الرحالة خاشعاً متأثرا حيال منظر جميل فى مكان كهذا ! !

ونحن نلتقى فى حياتنا بأنفس بشرية مجدبة موحشة فى أحوالها وظروفها . أنفس قد جردتها الخطايا أو الاحزان فأمست عارية قاحلة . وأنا وأنت ـــ أيها القارىء العزيز ـــ نستطيع أن ننبت فى مثل هــذه النفس زهرة ناضرة بروح العطف والمشاركة والمعونة، فتخلف وسط المقذوفات والرماد حياة عذبة يكسوها الجمال .

ويميل كثيرنا إلى فعل الخير والعطف على من توافرت لديهم أسباب الرخاء والغبطة فى الحياة . وتبدو فى أوساطنا الاجتماعية وحفلاتنا ظاهرة غريبة هى أن نشرك معنا المغبوطين أو المتعلمين ، أو ذوى المزاج المفرح ، أو أصحاب النكتة الرائعة . أو من نشعر حيالهم بميل ومودة . وقلما تمتد أيدينا إلى الموحشين أو الثقيلى النفوس الذين تجردت حياتهم من أسباب الجمال والهناء . ولكن هل فاتنا أن محبة المسيح هى المحبة التى تسعى لخدمة الآخرين ومعونتهم ممن نبذتهم أوساطهم ، واهملتهم حظوظ الحياة . وهل فاتنا ان أجمل الأزهار

هي التي تنبت فوق الصخور الشامخة وعلى جوانب الفوهات البركانية ؟ !

ان المحرومين في الحياة هم أولى الناس بعطفنا ومشاركتنا . فاذا رأيت في جماعة شخصاً لاصديق له ، أو غريباً ،أو خجولا ،أو متباعداً ، فثق أن ذاك هو أجدر الناس برعايتك أو محبتك . ومن الأساطير التي تروى عن المسيح غداة قيامته من القبر ان الإزهار الجميلة كانت تنبت سراعاً في الطرقات التي سار فيها . وهذه أسطورة حقة من الوجهة الروحية ، فان خطوات المسيح مدى هذه الأجيال الطويلة قد خلفت وراءها في كل البلدان والرقاع أزهاراً ناضرة — هي أزهار المحبة والعطف والرقة والخير والخدمة .

وأتباع المسيح وأنصاره والمؤمنون به هم خلفاؤه على الأرض والقائمون بعمله ومهمته . فمن يقصّر في تجميل رقعة الأرض المحيطة به يكون خائناً للأمانة التي أؤتمن عليها ، ويكون مخالفاً للتعليم الذي تلقاه عن سيده .

ويعرف المسافرون في البيداء أنهم اقتربوا إلى عين الماء متى رأوا أشجاراً مورقة وخضرة رطبة . وهكذا يعرف العالم محبة المسيح عندما يرى في تيه وحشته واحة مخضرة تنبع منها عين ماء الحياة ، رقعة هادئة يسطع جمالها ويفوح عبيرها ، ويسودها السلام والمحبة والحق والعدل .

هل الانتحار جناية ؟!

« فى أكثر حوادث الانتحار ، ترى جرثومة الشر تنبع إمامن عادة مسترذلة تستعبد الانسان ،أو من خوف مستحوذ يتسلط على النفس ، أو من إيمان ضائع يعقبه اليأس ، أو من فضيحة يخشى حاملها العار والخزى » .

فى كل يوم تذيع الصحف أخباراً مطولة عن جرائم الانتحار يخيب بعضها ، وفى البعض الآخر يبلغ المنتحرون أمنيتهم التى دفعتهم إليها عوامل شتى . وقد كثرت هذه الحوادث كثرة هائلة حتى لايكاد يخلو يوم واحد من أمثال هذه الحوادث .

وأنها لظاهرة من ظواهر هذا العصر التى تستدعى علاجا حاسماً فى حكمة وهوادة وصبر كثير . ولقداحتدم فى كل العصور نقاش وجدل حول جواز أو عدم جواز إفناء المرء ذاته وإزهاق روحه . وليس من الهين أن نتجاهل الحقائق ونفترض أن الأقدام على إرتكاب هذه الجريمة ، يرجع فى أصله وعلى اطلاقه ، إلى خبال فى العقل أو شذوذ فى الشخصية ، ولو أن الأمراض العقلية تؤدى أحياناً إلى الانتحار . والواقع أن هناك عوامل شتى تقود إلى هذه الجريمة نذكر منها ادمان المخدرات ، والوقوع فى ارتباكات مالية ، والخوف من فضيحة أو عار ، والكلال من الحياة أو اليأس فى ميدانها ، وضيق ذات اليد ، والأمراض العاصية التى لابرء منها ، وخيبة الأمل فى مسعى أو امتحان أو حب ، وغير ذلك من البواعث التى لايمكن سردها بطريق الحصر .

وتنوع هذه العوامل يجعل المشكلة عسيرة الحل ، ويدعو إلى تضافر الجهود والقوى للتغلب عليها من جانب المجتمع ، ومن جانب رجال الاصلاح ، ورجال الدين والتربية والطب .

ولعلنا لانخطىء إذ قلنا ان وراء كل هـذه البواعث حقيقة صارخة ألا وهى انهيار صرح الرجاء، وفقدان الايمان بالله وحياة المستقبل . ومما لايحتاج إلى دليل أن الذى يقدم على ارتكاب هذه الجريمة هـــو الشخص الذى أقنع نفسه بأن الموت نهاية كل شىء فى الحياة . فتقدم العلوم التى أضعفت إيماننا بالله ، وضاعفت مخاوفنا من الجراثيم والميكروبات، ومادية هذا العصر الخانقة التى تعتبر الخير كله فى اللذة ، والشر كله فى الألم ، وتقلقل الحياة الدينية فى الأسر والجماعات ـــ كل هذه القوى تعمل على انتزاع الايمان بحياة أخرى وراء اللحد . وتحمل المنتحر على التساؤل قائلا : ـــ ماشأنى وهذه الهيئة الاجتماعية التى نبذتنى طريداً مهملا ، وأسلمتنى فريسة سائغة إلى ناموس أعمى هو ناموس تنازع البقاء ، وبقاء الأفضل ، وفناء العاجز الضعيف ؟!

ولكن متى احتفظ المرء بإيمان حىّ فى الله ، علم أن لحياته قدسية وكرامة وان لها قيمة ذاتية بغض النظر عن موقف الهيئة حيالها . وأدرك أنه صادر من الله ، ومنه بزغ وإليه يعود . وهو من هذه الناحية ينتمى للهيئة ، وليس من حقه الانفصال عنها بدون رضائها . ولا مناص من القول هنا انه قلما ينحو المنتحر هذه الناحية الفلسفية من التفكير العميق ، وربما كانت أشهر حوادث الانتحار الفلسفية فى التاريخ ، تلك الجريمة التى ارتكبها ضد نفسه ذلك الشاب النابغة العبقرى « وينينجر » مؤلف كتاب « الحياة الجنسية والأخلاق» "Sex and Character" الذى جردفيه الانسانية من كل مزاياها وخواصها النبيلة ، وعرضها أمام الأنظار فى شكلها الحيوانى البشع العارى . وبعد أن فرغ من كتابه لم يجد مبرراً للبقاء فى عالم كهذا، فاطار رأسه برصاصة من مسدسه ، وكذلك الرهبان البوذيون الذين أحرقوا أنفسهم إحتجاجاً على الحرب فى فيتنام .

وإذ قد عرفنا بعض البواعث التى تدعو إلى ارتكاب هذه الجريمة، يهمنا أن نبين بعض وسائل العلاج لدرء هذا الخطر الداهم الذى يتهدد هيئتنا الاجتماعية :

عقوبة المنتحر

ونحن فى هذا العصر نميل إلى العطف على المتألمين والمنكوبين ، ونأبى الالتجاء إلى تلك القوانين الوحشية الصارمة التى أخذ بها المنتحرون فى القرون الأولى . وربما نكون قد أفرطنا فى استعمال اللين والهوادة مع مرتكبى هذه الجرائم ضد النفس . وأغلب الشرائع فى العالم لا تعاقب على الانتحار ولا على الشروع فيه . وبهذا الرأى أخذ القانون الفرنسى وتبعه القانون المصرى . أما القانون الإنكليزى فيعد الانتحار جناية . والذى بقى من عقوبة الانتحار فى انكلترا أن المنتحر يدفن بغير احتفال دينى . وقبل الآن كانت تصادر أملاكه فوق ذلك . وجدير بالهيئة المسؤولة أن تخلق فى الرأى العام — وخصوصاً فى عقول الشباب — رعباً وكراهية لهذه الجريمة، كأن يوضع نص فى القانون للعقاب عليها ، ودفن الجثة فى منتصف الليل فى صمت وسكون، أو غير ذلك من النصوص ، التى تولد الرهبة والخوف فى النفوس.

ولكن العقوبات القانونية والاجتماعية لا تكفل وحدها القضاء على هذه الظاهرة الشريرة فى حياتنا . فإن الانتحار هو فى الواقع شعار الضعف الأدبى . فلابد لنا من ادخال عناصر أخلاقية قوية فى نظم تعليمنا ، وتدريب أحداثنا على فضائل ضبط النفس ، والشعور بالواجب ، وانكار الذات . ومما ذكرته الصحف مؤخراً أن شاباً انتحر وترك لوالديه رسالة يقول فيها : « ... أرجو أن تغفرا إلى ما ارتكبت من ذنب ، وما جلبت عليكما من ألم ومرارة . ولكننى أشعر أن الحياة أمامى أضيق من سم الخياط ...وإذا عدت إلى حياتى أجدها سلسلة من الفشل والاستسلام . ولو كنت قد أوتيت قسطاً من ضبط النفس، لما أقدمت على هذه الفعلة الشنعاء . الوداع . » .

ولو تتبعنا حوادث الانتحار خصوصاً بين الشباب ، لرأيناها ترجع فى

الغالب إلى نقص فى التدريب الأخلاقى وضمور فى الصفات الأدبية . وربما كان من أقوى الوسائل لعلاج هذا الداء ، العمل على بث أخلاق متوازنة معتدلة فى النفس ، ليس فى المدرسة وحسب بل فى البيت ، وتعويد أطفالنا على عادات صالحة قوامها الجد والنشاط والخدمة المضحية ، والاعتدال فى المأكل والمشرب ، والامتناع بتاتاً عن جميع المنبهات والمكيفات . وطريق هذا ليس النصح ولا الزجر ، بل المثال الصالح الحكيم .

ويقول العلم الحديث ان تدريب الصغار عن طريق العقل الباطن يترك فى أنفسهم ذكريات وانطباعات وأفكاراً تبقى كامنة إلى حين ، على أن تستقيظ يوماً ما . ولقد حدث أكثر من مرة أن هاجمت تجربة الانتحار شخصاً ما . ولكنه نهض من كبوته ، وعاد إلى رشده ، بعد أن لاح من أعماق عقله الباطن وميض فكرة خاطفة ، أو عبارة منسية ، أو ذكرى وجه محبوب عاد إلى خيالاته . إن فى البيت قبل كل شىء آخر تتكيف أوضاع حياتنا ، وتوضع مصائر مستقبلنا .

وثمت وسيلة أخرى لمكافحة هذه الظاهرة ، هى موقف الصحافة والكتاب . وكثيرون من ضعاف النفوس يستلهمون وحى الحياة مما يقرأونه فى الصحف والمجلات . وأنت اذا ألقيت نظرة على بعض صحفنا ومجلاتنا رأيتها تنتهج نهجاً خاطئاً . فهى تضع فى الاعتبار الأول جذب القارىء وارضاء هوايته ليس الا ، ولذلك تكثر من وصف حوادث الانتحار ، وتتخذ كل حادثة موضوعاً لرواية عاطفية ، وتحشوها بوقائع وتفصيلات تثير مكامن الحس وتستهوى الألباب . فتصف المسدس أو الحبل أو السم الذى تناوله المنتحر ، وكيفية وقوع الحادثة ومكانها وأسبابها ونتائجها فى أسهاب روائى مطول . وجدير بالمحررين ورجال الصحافة — وهى مرآة الرأى العام — أن تقصر فقط على اسم المنتحر وعمره وتاريخ وفاته ومكان اقامته فى الباب المخصص للوفيات . لأن المحرر الأمين والكاتب الذى يدرك قدسية مهمته العظيمة ، ليس هو من

مجارى الجمهور فى آرائه ورغباته ، ولا من يسعى إلى اجتذاب قرائه وتسليتهم وتفكهتهم وحسب . انما الكاتب الأمين هو الذى يكتب من صميم قلبه ، ويعصر ذهنه ، ويسلخ من لفائف مخه أفكارا منيرة ، ويسلط نوراً نفسانياً على الشكوك والهواجس والجهالات فيبــــددها ، ويقف موقفاً عدائياً نحو الجريمة فيقضى عليها فى مهدها .

وهنا أيضاً مجال للمصلح الاجتماعى ، للساعين إلى خير الوطن ورفعة شأنه، للعاملين على إيقاف تيار الانحطاط الأدبى . وما الانتحار فى الواقع إلا عرض من أعراضه .

وقد دلت الإحصائيات على أن بين هذه الجريمة وادمان المخدرات والمكيفات والمسكرات علاقة وثيقة . يضاف إليها مانشاهده من فقر وبؤس فى الأوساط الفقيرة العاملة أو فى الأحياء الوطنية القذرة فى كثير من المدائن . وللمسيحية الحقة وأنصارها شأن خطير فى القضاء على هذه الظاهرة ، وصد الناس عن ارتكاب هذه الجريمة النكراء ، ولرسالة العزاء والرجاء التى جاء بها انجيل الناصرى أثر كبير فى النفس البشرية . ونحن إذا رجعنا الى القرون المسيحية الأولى يوم سادت المسيحية على الامبراطورية الرومانية ، لوجدنا جرائم الانتحار قد اختفت تقريباً . والذى نعتقده أن هذه الرسالة عينها هى اليوم العلاج الشافى لكل نفس حائرة يائسة لاترى فى الحياة بصيصاً من نور الرجاء .

وفى أكثر حوادث الانتحار نرى جرثومة الشر تينع ،امامن عادة مسترذلة تستعبد الانسان ، أو من خوف مستحوذ يتسلط على النفس ، أو من إيمان ضائع يعقبه الياس، أو من فضيحة يخشى حاملها العار والخزى ـــ وفى كل هذه الحالات تهب رسالة الانجيل عطفاً وعزاء ومخرجاً حميدا ، فيها تهدأ الروح الحائرة المرة ، ويجد الضمير المعذب سلاماً وبرداً . وأمام نورها الوهاج

تختفى كل عوامل الشر والاثم والعدوان من حياة المتألم وعقله وفكره . وإذ يدرك المرء قيمة نفسه ومعناها فى نظر الله ، وعلاقتها بالكون ، تتبدد من حياته كل سحب اليأس والظلمة ،وتستنير بروح الايمان الحى والتفاؤل الصادق .

ومؤسس المسيحية لم يكن أعظم المعلمين والمصلحين وحسب .ولكنه جاء الى العالم بكشف جديد ، يبدد غياهب الشقاء الأدبى الذى يدفع عادة الى ازهاق الروح . وما أحوج أبناء الانسان فى هذا العصر الى سماع نداء الرسالة المسيحية ، الرسالة المضادة لليأس والتشاؤم ، القائمة على الايمان بإله شخصى يشترك مع خلائقه فى بأسائهم ونعمائهم ، وبحياة خالدة لاتفنى، وبنظام الملكوت سماوى على الأرض يضم تحت لوائه كل أنفس البشرية .

وحسبنا عزاء قوله الصريح : « جئت لتكون لهم حياة ، وليكون لهم أفضل » .

أنشودة الكراهية

« أنا أكره الرأسمالية ، والدين، والجهل ، والغوغاء
ورجال الدين ، والدموع ، والأحزان . وأكره نفسى
لانه لم يكن لى الجرأة الكافية لأقضى عليها .. » .

« فيلسوف »

.. أرسل أحدهم إلى جريدة أمريكية بامضاء « فيلسوف » رسالة جاء فيها هذه العبارة :

« .. أنا أكره الرأسمالية ، والدين ، والجهل ، والغوغاء ، ورجال الدين، والدموع ، والأحزان . وأكره نفسى لأنه لم يكن لى الجرأة الكافية لأقضى عليها .. » وختم رسالته بقوله « ولعل أحداً من الساخرين المتهكمين الذين لا يؤمنون بصلاح البشر يخبرنى ماذا عسانى أن أفعل فى مثل هذه الحال » .

ولبعض إخواننا الأمريكان أساليبهم الخاصة فى التعبير عن أفكارهم والافصاح عما يبطنون بطريقة تجذب اليهم الأنظار .

هذه أنشودة الكراهية الشاملة يرتلها إنسان يسمىّ نفسه « فيلسوفا » . ولست بطبيعتى من الساخرين ، ولا من المتهكمين ، ولكنى أقبل تحديه ، وذلك لأن الكاتب يمثل حالة شائعة بين الناس اليوم . وأنت واجد فى هذا العصر ، أينما ذهبت ، جمهرة من الناس الساخطين — الناقمين على كل شىء فى الحياة لا يعجبهم العجب ، ولا الصيام فى رجب ، كما يقول العامة فى أمثالهم .

وأنا لا أجد باعثاً لليأس من هؤلاء الناقين الكارهين . بل على نقيض ذلك أشعر بشيء من العزاء حين أسمع الناس يسخرون وينقمون ، ذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يكره إلا إذا كان يحب . فالمحبة والكراهية إحساسان لا غنى لأحدهما عن الآخر . والإنسان يكره حين يشعر أن الشيء الذى يحبه يهدده الشيء الذى يكرهه . يكره حينما يرى إن المبادىء التى هى موضوع إعزازه تغزوها عناصر غريبة مستكرهة فينقم ويسخط عليها . ومثل هذا الغليان فى الشعور دليل على هجر موقف الحياد الراكد البليد ، وموقف الفتور وعدم الاكتراث بين النقيضين ، وهو الموقف الذى عيبت عليه كنيسة لاودكية فى القديم . ومثل هذا الموقف لا يلجا إليه إلا الإنسان الذى يُعنى بحياته وراحته وأنانيته ومصلحته .

إن الكراهية ، أو المحبة ، دليل على يقظه الشعور وفورة الإحساس الدفين .

ومؤخراً قرأت كتاباً يلح الكاتب فى أحد فصوله على قرائه ويوصيهم بالا" يكرهوا الأشخاص أبداً ، ولكنه يحرضهم على أن يكرهوا كل شيء يهدد الشخصية الإنسانية . يحرض الناس على كراهية أنظمة السجون العتيقة ، والأنظمة القانونية السخيفة التى تعذب الناس، ويحض على كراهية الرياء فى كل أوضاعه وألوانه ، وعلى كراهية التعاظم الوضيع والكبرياء والقسوة وكل ما تجرّه من إيذاء وألم .

و « فيلسوفنا » فى موقف سليم حين يكره هذه الأشياء وأمثالها . ولكنه يخطىء حين يجمل ويعمّم . وأكبر الظن أنه حين يقول « رجال الدين » مثلا لا يقصد رجال الدين إطلاقا، بل يقصد رجال الدين الذين يتوسلون بالدجل والخداع والغش والتغرير بالناس وإيهام البسطاء . وحين يقول إنه يكره « الدين » أظنه يقصد الدين المتعصب ، الضيق الفكر ، الذى يؤثر الظلمة على النور ، والذى يعتصم بالعرَض دون الجوهر، والذى تخلو الحياة والسلوك والأخلاق من آثاره

ولم يبق على « فيلسوفنا » الا أن يسال نفسه :

هل أنا أكره الرأسمالية لأنى أرغب فى نظام اجتماعى سليم ؟هل أنا أكره الدين الضيق السقيم ، لأنى أحب الناس يعبدون الله بالروح والحق ؟

هل أنا أكره الغوغاء والدهماء لأنى أرغب فى عالم ينتفى منه الجهل والفقر والتعصب ، ويسوده النور والكرامة والتسامح والتعقل ؟

هل أنا أكره « الناس كما هم الآن » لأنى أريدهم على الحال الذى يجب أن يكونوا عليه حسب قصد الله ؟ وهكذا فى كل الأشياء التى يكرهها — وعندى ان هذا موقف سليم لا غبار عليه. وليست الكراهية فى مثل هذه المواقف اثماً أو عيباً نفسياً .

والذين يصلحون العالم هم أمثال الفيلسوف الناقم ، الذين لا يتسامحون فى الأشياء على أوضاعها الحالية . ولن يأتى ملكوت الله على الأرض الا بهذا العناء الروحى المنيف . فانت لا تقدر أن تكره الجهل كرهاً تاماً الا اذا أحببت المعرفة ، وسعيت اليها سعياً صابراً فى جهاد قوى . ولكن «فيلسوفنا» مستغرق فى الناحية العكسية من تفكيره ، والظاهر أنه يكره قبل أن يحب ، وكأنه يضع المركبة أمام الجواد ، ويدهش لأنها لم تتحرك ، و أحرى به أن يبدل وضعه ، ويتقدم إلى الأمام فلا يلبث أن يجد نفسه فى الجانب المشرق ، يلتمس الحياة لا الموت .

روى ان رجلين كانا يسيران معاً فى طريق ريفية ، وانهما لكذلك واذا بشخص غريب ثالث ينضم اليهما . وقد ألفياه رفيقاً منشرح الخاطر طروب النفس ، فيه من الحيوية وخفة الروح ، ويقظة الاحساس ، ونشاط العزيمة ، وعذوبة الحديث — ماجعله موضوع اعزازهما وتقديرهما .

فقدما نفسيهما اليه ، وكان اسم أحدهما «المتفائل» واسم الآخر «المتشائم» وأما هو فلم يعرفا اسمه . وفيما هم يسيرون وقفوا عند مركبة قد انقلبت فى حفرة على حافة الطريق ، ووقف صاحبها الى جانبها حائراً لا يدرى ماذا يفعل. نظر

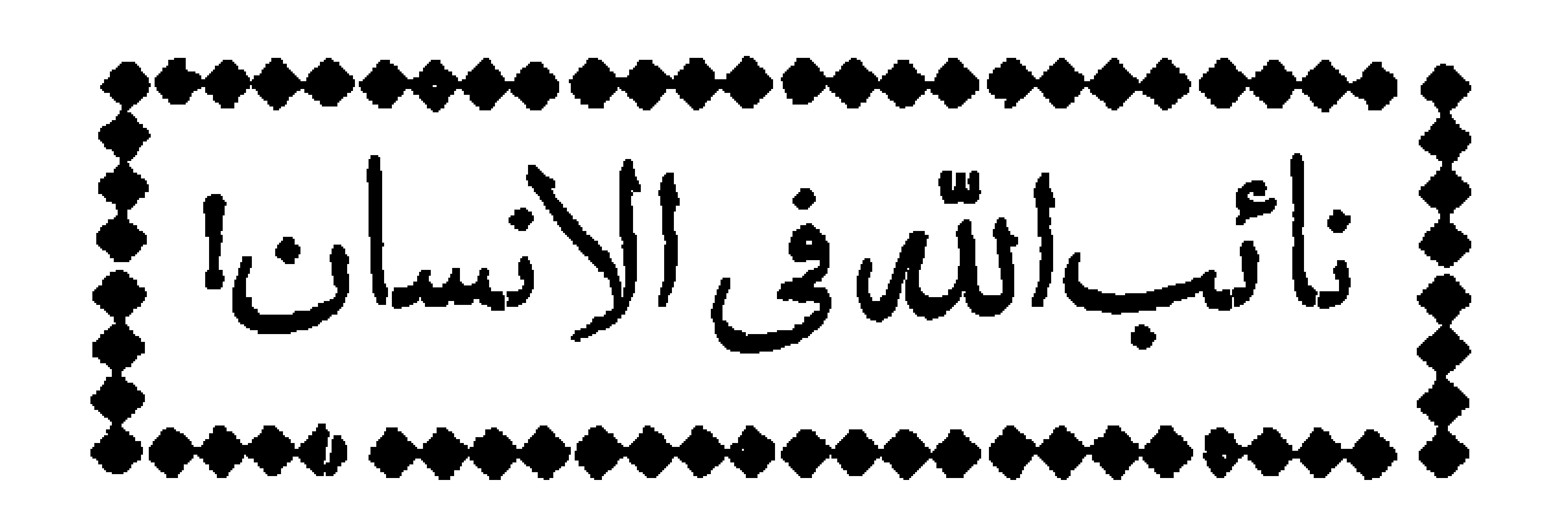
الاثنان إلى هذا المشهد ، فقال المتفائل — وعلى وجهه ابتسامة البشر : — لا بأس، سوف يصلح هذا الوضع ، وعما قليل سيمر في هذا الطريق أحد الخبيرين بهذه الشئون ويعالج الأمر . وقال صاحبه المتشائم وقد علت محياه نظرات الاشمئزاز : إن حوادث كثيرة تقع فى هذا المكان ، وتبقى المركبات فى هذه الورطة أياماً . .

ثم التفتا ليقفا على رأى الغريب المرافق لهما ، فلم يجداه . ولما بحثا عنه رأياه تحت المركبة وقد خلع سترته ، وراح يجاهد ويكافح لعلاج الأمر . وبعد قليل أصلحت المركبة وسارت فى طريقها . فالتفت الصديقان إلى هذا الغريب وسألاه : « عفواً ياسيدى . ولكن ما اسمك » . فأجاب بابتسامة « يدعونى الناس العامل المجاهد » .

وما على « فيلسوفنا » الحانق الناقم إلا أن يخلع سترته ويجاهد فى سبيل ما يحب ، بدلا من أن يرثى ويلعن ما يكره فى جمود واستكانة .

إن بلوانا المحرقة التى نشكو منها هى هذا الموقف الذى نجد فيه فلاسفتنا وكتابنا وساستنا ومصلحينا وقادة الرأس فينا ، يسخطون وينقمون، ويكتبون ويتكلمون ، ويخطبون ، ويعظون . ولكنهم قلما يعملون ويجاهدون ، وما أكثر الصناعة الكلامية فى صحفنا ومجلاتنا ، وأنديتنا ومجتمعاتنا ، ومعابدنا وهياكلنا !

كفى ثرثرة رخيصة ، وجعجعة لاتطحن ، وهيا إلى العمل والجهاد فى سبيل المبادىء التى نعتز بها ،والمثل العليا التى نتعشقها، والاصلاحات التى ننشدها .



نائب الله فى الانسان!

« الضمير ... هو نائب الله فى الانسان . هو الشاهد الأمين والقاضى العادل . هو السلطان المتربع على عرش النفس . هو الدليل الممسك بمقود الانسان فى آجام الحياة وشعابها الملتوية ... »

يروى أن إنساناً ضلّ طريقه فى دغل من الأدغال ، فنقيه نمر مفترس انتزع منه بعض أعضائه ، وألقاه على الأرض مضرجا بدمائه . فمر بهذا الانسان عابر سبيل وسمعه يقول وسط أنات الألم وتأوهات النزع : « أشكرك ربى فانى أتألم من جراح النمر ، لا من وخزات الضمير » .

أشعر الآن وأنا ممسك بقلمى لأكتب ما يمليه علىّ وجدانى أن بى قوة خفية هائلة تحبذ لى خيراً فعلته ، وتؤنبنى على وزر أتيته . ويشعر القارىء الكريم وهو يقرأ هذه الأسطار التى يخطها هذا القلم الضعيف بهذه القوة الخفية عينها — قوة أشعر بها ويشعر بها معى كل إنسان كائن من كان ، ولكن لست أدرى مصدرها ولا أتفهم ماهيتها ... أهى غريزة فطرية أم هبة مكتسبة ؟ لست أدرى — أنا أعرف انها قوة ممتازة تحكم على أعمال الفرد وتتحكم فى ارادته وهويته وتعرف فى مصطلح علماء النفس والأخلاق (بالضمير) ...

الضمير ... هو نائب الله فى الانسان . وهو الشاهد الأمين والقاضى العادل . هو السلطان المتربع على عرش النفس . وهو الدليل الممسك بمقود الانسان فى آجام الحيـــاة وشعابها الملتوية . . . هو ذلك الصوت الصارخ

فالذى تخشى النفس رهبته أكثر من كل الشرائع والدساتير والنظامات، والعقائد والتقاليد والخرافات . هو أثمن مايحرص عليه المرء ، ويحسب التجرد منه سبة وعاراً .

وكل امرىء يدّعى أن به « ضميراً » متسلطاً على أعماله ، وأن سلام العقل لايكون موفوراً الا اذا خضعت النفس لندائه . فكيف اذن نعلل تماشى قوة الخير والشر معاً فى هذا العالم ؟ وكيف يدفع الضمير بهذا الى انتهاج سبيل صائب ، وذاك الى انتهاج سبيل مغاير ؟

ليس الضمير قوة مستقلة عن النفس وقائمة بذاتها يمكن استشارتها آونة والاستغناء عنها آخرى . بل هو محاط بما حوالنا من المؤثرات العقلية والأدبية. وأحكامه تتكيف طبقاً لمتجه حياتنا ومجراها . الضمير يحثنا على الاستمساك بأسمى المبادىء التى وعتها مداركنا المفكرة . وكلما ازددنا من الاستنارة والرقى الأدبى، سهل علينا عرفان الواجب الذى يحتمه علينا الضمير .

وأرانى مضطراً الى القول إن الفيلسوف أفلاطون وأتباع فلسفة زينون لم يحيدوا كثيراً عن جادة الصواب فى زعمهم أن الضمير والمعرفة سيان ، وأن أعمال الانسان تصيب وتخطىء تبعاً لإيحاء العقل الذى يشير بها . ومن المسلم به أن الأعمال والتصرفات الخاطئة لا تجدى نفعاً . وقد يكون فى أغلبية الناس ميل الى موآزرة الحق وفعل الصواب لو عرفوا ذلك يقيناً. ولذلك أقول ان الضمير مفتقر فى كل أحكامه الى عقل راجح وادراك بصير ليكون بنجوة عن الخطل وفساد الرأى .

وليست الحاجة ماسة الى العقل الراجح فقط ، بل الى الأخلاص فى القول والعمل . فان الضمير شأنه شأن كل موهبة أخرى تشينه الخيانة والمواربة والضلال . وكما ان القاضى لايحكم بالصدق والذمة وفى غير محاباة ولا تحيز الا اذا تنزهت نفسه عن الغاية ، وتشبعت بروح العدل والاخلاص والفضيلة

والـكمال ، كذلك الضمير فى الانسان لا يُحق الحق ويزهق الباطل الا إذا أحاطت به عوامل شريفة واكتنفته قلوب طاهرة وأيد بريئة .

قلت ان لكل امرىء ضميراً وان الضمير ينزع دوماً الى الخير متى صقله العلم والتهذيب وتعهده الاخلاص والنزاهة . وضمائر الأفراد هذه تكوّن مجتمعة ضمائر الجماعات التى هى أنفذ فعلا وأقوى نفوذا فى مجريات العالم من الضمائر الفردية .

وليس من ينكر أن فى هذا العالم « قوتين » تتصارعان وتتطاحنان : هما قوة الخير والشر . وقد يخال لقوم من المتشائمين أن مصارع الخير فى العالم مروعة . وأن دولة الشر والبطل أبقى من دولة الخير والحق .

هذا قول يجرى كل يوم على ألسنة المتشائمين الذين تسرب الى قلوبهم اليأس فى مصير العالم المريض . ولـكن فاتهم أن ضمائر الجماعات ـــ ولو ماتت لأجل ـــ قد تدب فيها الحيـاة فتتحفز للقضاء على الشر والباطل وتأييد الخير والحق .

ان قوى الشر فى العالم أشبه بالادواء التى تنتاب الجسد ، لاتتضاعف متى وجدت صدا عنيفاً . ويؤيد هذا الزعم وقائع التاريخ البشرى . فقد أجاز البشر فى الاعصر المنصرمة مساوىء مخزية مثل تجارة الرقيق، والاستمساك بالخزعبلات والخرافات ، والاستسلام الى الارواح الشريرة والاستهتـار بالضعفاء،واستثمار الاولاد والبنات فى المعامل،والمصارعات الدموية،وصنوف التعذيب والإيلام وغير ذلك مما لايقع تحت حصر . كل هذه شرور وسيئات قضى عليها لما أحس ضمير الانسانية وانتبه من غفلته وقام من سباته.

ان الشر مع قوته ضعيف فى ذاته لاحول له ولا طول . ويكفى للقضاء عليه أن نوقظ ضمائر الجماعات ونحيى مواتها، فتتنكب عن الشرور وتحيد عن العثرات . ولـكن ليس كذلك شأن قوى الخير متى ترضاها الضمائر وترتاح لها

النفوس . فهب مثلا انك اعتليت المنابر وأذعت النشرات والدعوات قائلا ان الموسيقى شر مستطير، أو أن جمعيات البر والاحسان وبال على البشر ،فهل تجد لدعايتك هذه نصيراً أو سامعا ؟ كلا لأن الضمير البشرى يعرف الخير ويرضاه قبل أن تدلّه عليه . ولكنه قد يجهل الشر أو يتجاهله فيفتقر للدلالة عليه إلى شيء من الارشاد والايقاظ .

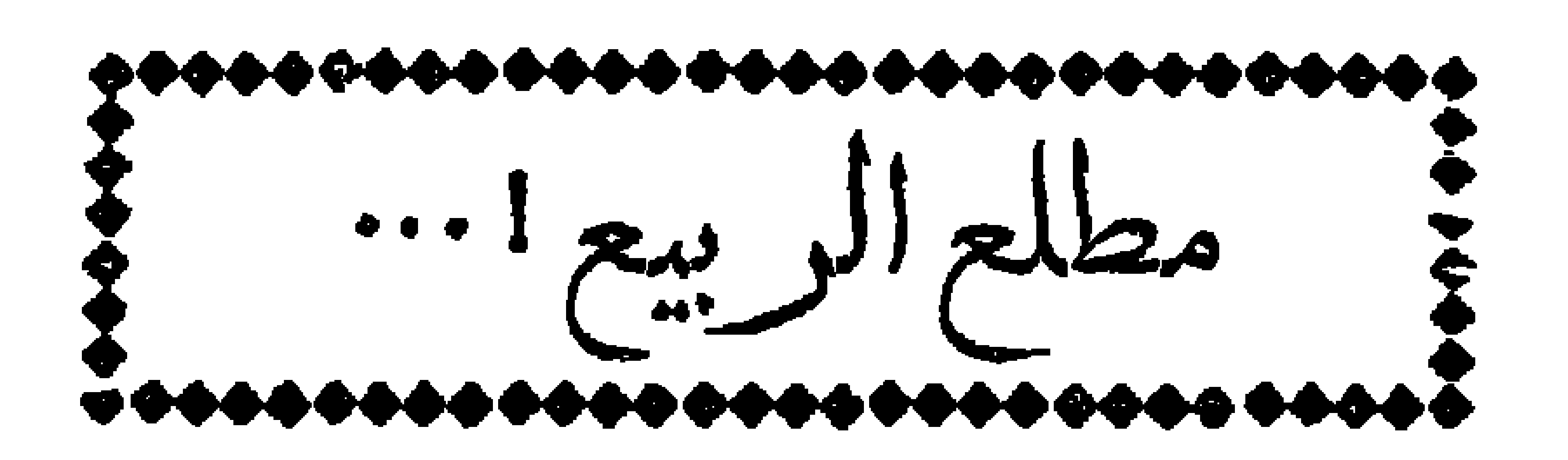
ليس حقاً أن العالم سائر إلى البوار والاضمحلال بفعل قوى الشر الرائجة فيه ، بل أن نفرا من البشر ماتت ضمائرهم فحاكوا بأيديهم الآثمة غشاء يحجب نور الحق ويضلل الناس . ولكن فى الانسانية ضميرا . وان خمد فترة كالبركان الهادىء ، لابد له من الثوران يوماً ما .

وعلينا نحن — بل على كل راغب فى الخير — أن ينبه ضمير الانسانية إلى مواطن الضعف والشر فى الحياة البشرية ، ويتعهد ضمائر الأفراد بالإحياء والإنعاش ويحوطها بعوامل تولد فيها اليقظة والحياة .

نحن لسنا من المتشائمين الذين ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور نحو مصير العالم . لسنا من القانطين الذين ألقوا سلاح جهادهم مستسلمين . بل نحن من المتفائلين خيرا ، نعتقد أن للأنسانية ضميرا حساساً وأن قوى الخير أكثر رواجاً وفعلا فى الحياة من قوى الشر . ولئن قامت دولة الباطل ساعة فدولة الحق قائمة حتى قيام الساعة .

لهذا كان دأبنا أبدا النصح والارشاد والتدليل إلى مواطن الخطأ وإيقاظ الضمائر النائمة — ضمائر الأفراد والجماعات — وأن العالم ليفتقر إلى كثيرين من المنصحين والمرشدين ، العاملين على الخير المناجزين للشر . انه ليفتقر إلى الإرشاد — ليس الإرشاد الممزوج بمرارة القلب والمصوغ فى قوارص الكلم ورشائق القول — بل الارشاد الخالص فى هوادة ولين ودعة ومحبة .

ولهذا فليعمل العاملون ، والله يعين من أعان نفسه .



مطلع الربيع !...

« ... الشتاء قد مضى والمطر مر وزال ، الزهور ظهرت فى الأرض ، بلغ أوان القضب . وصوت اليمامة سمع فى أرضنا . التينة أخرجت فجها . وقعال الكروم تفيح رائحتها » . نشيد الأنشاد ٢ : ١١ — ١٣

بهذه العبارة الشعرية الرائعة ، يتغنى الشاعر العبرى القديم ، فى وصف مطلع الربيع فى بلاده ، بأسلوب موسيقى طريف ، ويمتع بصره ، وسمعه ، وذوقه ، وشمه ، بألوان الجمال ، وتغاريد الطير ، وحلاوة الفاكهة ، وأريج الزهر .

فها قد أقبل الربيع مشرقاً ينثر فى الأرض حياة وبهجة ، ويكسوها جمالا ورونقاً . وأول مايطالعنا به الربيع هو يقظة الحياة بعد موات . . وكأنما قوة سحرية تسرى فى الطبيعة ، فتحيل الكائنات الصامتة الجامدة ، حياة نابضة نامية . وهذه مظهر للقوة الخفية التى أيقظت يسوع من القبر منذ ألفى سنة ، واقامته من الأموات ، مقدمة للبشرية وثيقة حية غير مسطورة ، تثبت حق الانسان فى مثل هذه القيامة المجيدة .

ونحن لانعرف فى الطبيعة قوة تعمل بمعزل عن الله . فهو الذى « يرسل روحه ، فيجدد وجه الأرض » ، وهو الذى « يروى البلقع والخلاء ، وينبت

مخرج العشب » ، وهو الذى « ينبت عشباً للبهائم ، وخضرة لخدمة الانسان ، لإخراج خبز من الأرض » .

وفى قصيد الشعراء نراهم يعالجون مظاهر الطبيعة وتقلباتها وأحوالها ، كأنها صورة تعكس أحاسيس الانسان وأمزجته ومعانى نفسه الداخلية . والحق أن الطبيعة — للعين الباصرة — مظهر خارجى منظور لنعمة روحية داخلية . ولسنا نجد لفظاً يعبر أصدق تعبير عن اليقظة التى يحدثها المسيح فى نفوس الناس وحياتهم ، مثل تلك الأوصاف الطليّة المشوقة التى يخلعها الشعراء على روعة الربيع ويقظته . فهو حين يجىء إلى القلب، أو البيت، أو الأمة « يمضى الشتاء ، ويزول المطر ، وتظهر الزهور فى الأرض » .

حدث هذا يوم مجيئه الأول . فقد كان العالم الذى تجسّد فيه مائتاً مضمحلا ضامراً من قرصة الشتاء . وكان الدين — حتى بين الشعب المختار — قد بات مظهراً خاوياً أجوف تجرد من الحياة ، وكفناً أسدل على جثة هامدة فارقتها نبضات القوة . أما العالم الوثنى الذى احتضن حضارة الاغريق والرومان ، فكان أسوأ وأضل ، وانهارت عروش الآلهة القديمة ، وساد المجتمع كله روح الشك والالحاد . واذ يجىء المسيح إلى هذا العالم القديم المائت يبدل شتاءه ربيعاً ، وظلمته نوراً ، ومواته حياة جديدة انسابت إلى البشرية ، فأيقظتها وأحيتها ورفعتها إلى مستوى عال ، وخلعت عليها نعمة ونشاطاً جديدين .

وهذا بعينه هو الذى يفعله اليوم حين يجىء إلى حياة الانسان .

مضى الشتاء

انه شتاء رهيب موحش كئيب ، ذلك الذى يملأ القلب الخاوى من المسيح . ألم يأتك نبأ ذلك السائح المستكشف الذى صعد يوماً إلى ذرى جبال الألب الثلجية ، وهناك يقف يكتب وصفاً للمشهد الذى يقع عليه بصره فيقول : « المشهد كله جدّ كئيب موحش ، عالم يرفرف عليه

الموت الرهيب ، خلو من العواطف والأشـــواق الانسانية ، وحتى مغيب الشمس يخلع عليه بهاء قاتماً تتخلله أشباح الموت » ...

... ثم يقول إنه لم يسبق له من قبل ان فهم ، كما يفهم الآن ، المعانى العميقة التى انطوت عليها كلمات المرنم القديم : « يذرى الصقيع كالرماد ، يلقى جمده كفتات ، قدام برده مَن يقف » . وإذ يلقى السائح نظره إلى جبال الثلج الراسيات يقول : « ما أرهب هذا المكان ، وما أرهب السكنى فيه ! » وهذا يذكرنا بشاعر الطبيعة الأندلسى أبى اسحق ابراهيم بن خفاجة الذى نظم وصفاً كهذا بقوله :

ألا نسخ الله القفار حجارةً	تصوب علينا والغمام غموما
وكانت سماء اللهلا تمطر الحصى	ليالىَ كنّا لانطيش حلوما
فلما تحولنـا عفاريتَ شرةٍ	تحوّلَ شؤبوُب السماءِ رجوُما

هذه صورة قد لاتكون وافية المعالم لوحشة النفس التى تقصى المسيح عنها، وتعيش عامدة بدونه .

الزهور ظهرت فى الارض

وقد حل بالأرض المقدسة فلسطين جائحة جعلتها فريسة للمظالم السوداء ، ولكن القادمين إلينا يروون أن الارض تكتسى فى فصل الربيع بالأزهار البرية ، تبدو كأنها حديقة زاهرة مبسوطة الجنبات ، وأن الحقول تلمع بألوان قرمزية ، صفراء ، زرقاء . كذلك يكون مجىء المسيح إلى النفس ، فتكتسى بهاء وجمالا لايعدلها شىء فى الأرض ، ذلك لأنه يخلع على تلاميذه وأتباعه « المجد الذى أعطاه إياه الآب » .

بلغ أوان القضب .

العبارة الأصلية تعنى « بلغ أوان تغريد الطير » . وليس شىء أروع فى فصل الربيع من تلك الأنغام الفوارة الخصيبة التى تحيى بها الأطيار مطلع الدفء . ولهذه الفورة الخصيبة نظير فى العالم الروحى . فبينما

يجدد المسيح أرواح الناس ، ويجمّل أخلاقهم بنعمته ، فانه أيضاً يملؤ قلوبهم بالفرح والبهجة . وكان الفرح من المميزات التي عُرف بها أتباع المسيح في العصر الأول ، كما تروى لنا قصة سفر الأعمال . ومرة قرأت شيئاً عن عادات الرعاة فوق قمم جبال الألب السويسرية ، فرأيت فيها مايقرّب إلى الأذهان بعض معاني هذا الجذل الطروب . ذلك أن أولئك الرعاة يحملون أبواقاً ، والشمس عادة تغيب عن الأودية الخفيضة أولا ، فتكتنفها الظلال الربداء ، ولكن تبقى أشعتها الذهبية ساطعة فترة طويلة فوق القمم العالية . فينهض أحد الرعاة ممن يسكنون فوق أعالي القمم ، ويمسك ببوقه ويرتل لله أنشودة التسبيح والحمد من أجل هذا النور المبارك الذي يسطع حوله . وعندئذ يسارع الرعاة الآخرون عند سماع هذا البوق ، ويخرجون من أكواخهم ، ويكررون بأبواقهم هذا النشيد مدة ربع ساعة تتجاوب أصداؤه من قمة إلى قمة . وإن كان أولئك الرعاة يرتلون ويسبحون الله من أجل هذا النور العادي ، فكم بالأولى يليق بنا أن نسبحه من أجل النور الباهر الذي شقّ سدفة الظلام في فجر القيامة منذ ألفي سنة ، فضمن لنا الحياة والخلود .

صوت اليمامة سمع في أرضنا :

وهذه اليمامة تهجر عادة أرض فلسطين في الشتاء إلى المناطق الجنوبية ، ثم تعود عند اشراق الربيع . وهي من الأطيار المهاجرة التي وصفها النبي أرميا بقوله : « اليمامة والسنونة المزقزقة حفظتا وقت مجيئهما . . . » . وإذ تعود اليمامة في بكور الربيع من مهجرها ، تعلن بصوتها الحنون الهادئ أن الربيع قد جاء . وانه لصوت عذب ، حلو الشدو والسجع ، يحدثنا عن الحب . وهل المسيحية في جوهرها شيء آخر غير المحبة !

«التينة أخرجت فجها، وقعال الكروم تفيح رائحتها»

والنفس التي أيقظتها محبة المسيح وحياته، لا تتفتح فقط براعمها عن عواطف وأشواق محببة، بل تعطى ثمراً كالتينة تخرج فجّها. وثمار الروح هي الصلاح والبر والحق. ولن يقتصر الامر على الثمر، فان «الكروم تفيح رائحتها». ومن خواص الربيع تلك الروائح العبقة التي تفيح من النباتات والازهار والورود وتملأ الجو أريجاً.

وفي العالم الروحي شيء شبيه بهذا، تلك الرائحة الزكية التي تفيح من كل حياة طيبة فتعطرّ الجوّ كله، وذلك النفوذ القوي الذي ينساب من الاخلاق الكريمة الفاضلة، فينشر حوله محبة وصلاحاً وجمالا.

أزاهير الشتاء

« لا ننكر أن فى البقاع الفقيرة الجرداء أعشاباً برية ضارة من أبناء الانسانية . ومن المستغرب إلا نجدها هناك . ولكن لا نغض الطرف عن تلك الازاهير النضرة التى تجالد الحياة فى وسط الموت . . »

... أرأيت إلى تلك الورود والأزهـــار التى ينبتونها أحياناً فى أحواض صغيرة ؟ فى فترة من السنة يشتد بردها ، تتجرد تلك النباتات عادة من النضرة الزاهية التى تكسو الأزهار اليانعة ، وتذبل أوراقها كأنما تنظر إلى الحياة بعين كايلة ، من فرط ما عانت من صراع مستميت لتحيا فى جو يحرمها أسباب الحياة .

وهذه تذكرنى بأناس من البشر يجالدون قوة الزمن ، ويصمدون لأهواله فى سبيل الحياة . وعلى الرغم من العقبات الكأداء وعوامل الحرمان ، يبدون ألواناً باهتة من الجمال فى حياتهم التى قسا عليه الزمن .

والذى يذهلنى ، ليس ما أرى فى أمثال هؤلاء البائسين من شر والتواء ، بل ما أراه فيهم من خير وصلاح . ولست أنكر أن فى تلك الأوساط غماراً من الشر والخبث والدمامة ، وان المشكلة الأساسية التى تعانيها الإنسانية هى التى يسميها كتابنا المقدس « الخطية » . وما لم نقف وجهاً لوجه أمام تلك المشكلة العاصية ، نضلل أنفسنا ونخدعها فى التحدث عن الحضارة والرقى . ولن يمكن

للعقول أن تتحرر من أغلال الجهل التى كبلتها ، ولا النفوس أن تتطهر من أرجاس الذل التى دنستها ، ولا العزائم أن تستفيق من سلطان المادة التى استنامت إليه ، قبل أن نكون صريحين ونواجه فى جرأة مشكلة الخطيئة فى الإنسان .

والأمر الواقع أن فريقاً كبيراً من أبناء الإنسانية يعانون فى الحياة أحوالا قاسية تكفى فى حد ذاتها لأن تجعل من الأخيار أشراراً ، وتخرج من العسل الحلو صاباً وعلقماً . أرأيت إلى إنسان قد هدّته الحياة فلم تبق على شىء فيه ، فلا قلب ولا عزم ولا رجاء . ثم أرأيته يُساق على أثر ذلك فى تيار جارف من الاثم والإجرام والخروج على أوضاع المجتمع ، وتزداد نفسه مرارة حين يدينه المجتمع ويحكم عليه ؟ وكلمة حق أقولها هنا : لو أن أغلبنا وجد فى مكانه ونشأته ، وعانى من قسوة المجتمع ما عاناه هو، وحمل من الأعباء القاصمة للظهور ما حمل ذلك المسكين ، لما كنّا خيراً منه . فلماذا نقسو عليه فى الحكم ؟ وترمقه شذراً ، وندّعى الفضل عليه ؟ لماذا لا نتمهل قليلا قبل نقده ونقدّر تلك الظروف التى خلقت منه الإنسان الذى نرى ؟ إنه من نبل الأخلاق وكرم النفس ، وروح الدين ، أن نسمح لأمثال هؤلاء بمجال أوسع عند تقدير أحوالهم . ولكن ما أقل الدين يتسامحون إلا مع أنفسهم !

ولن يقولنّ أحد انى التمس المعاذير للخاطىء الشرير والأثيم والمجرم ، وأفسح له سبيل الخطا والغواية . إنما أردت القول ان عالما يعبد العظمة والثراء والجاه والرقى ، ثم يحكم على الوضاعة والفقر والمذلة والفشل ، دون أن يسال عن العوامل التى أدت إلى هذه أو تلك ، هو عالم أعمى فى أحكامه ، غرّ جاهل فى منطقه واستنتاجه . وكم يكون ذهولنا يوم تشتعل الأكاذيب الدفينة فى النفوس ، وتُكشف السجف التى تختفى تحتها الحقائق المرة ، وتبدو لنا أشياء الناس كما هى على حقيقتها دون طلاء كاذب وتمويه مضلل ، وكم يكون ذهولنا

فى ذلك اليوم الذى تقف فيه النفوس أمام خالقها عارية عن كل رداء مصطنع زائف ! !

ثم لنعد إلى تلك الأزهار التى تغالب الحياة ، وتبدى رغم هذا ألواناً من الجمال الكليل الباهت . فى بعض أولئك الناس الذين تقسو عليهم الحياة نحو ما وصفت ، تبدو نفوس كريمة باسلة . وقد لا يكون فى مظهرها شىء يبهر النظر أو يستأهل التقدير ، ولكن فى أعماقها إيماناً جباراً ، وشجاعة لا تقهر ، وسجايا مليحة ، يسارع الله إلى تحبيذها ، وإن تباطأ الإنسان فى تقديرها .

وإن أردت رؤية البسالة فى أنضر ازدهارها ، سر إلى حى وضيع من أحياء الفقراء فى أية مدينة ، أو قرية محرومة من قرى الريف، تر هناك الكثير من الأشياء الجميلة — رعاية الجوار فى تعاون ومودة ، وروح الفكاهة والدعابة فى وسط قاتم يخيم عليه البؤس والشقاء ، وروح المثابرة والمصابرة والجلد والرضى والقناعة — مثلهم مثل النباتات البرية تتعلق بالأرض الصخرية الصلبة القاسية فى غير تعمق ، وتنشر ألوان الجمال على حوافها . وأنت قد لا تتوقع أن ترى فى بقعة جرداء صخرية إلا الأعشاب البرية المؤذية ، ولكن فى جنباتها أحيانا أزهاراً جميلة بهجة . ولا ننكر ان أن فى كل البقاع الفقيرة الجرداء العارية أعشاباً برية ضارة من أبناء الإنسانية ، ومن المستغرب ألا نجدها هناك ، ولكن لا تغمض الطرف عن تلك الأزاهير النضرة التى تجالد الحياة فى وسط الموت . . .

ومَن منكم بلا خطية . فليرم الحجر الأول !

وما الذى يحمل البشر على الاستقامة فى الحياة والميل إلى الخير

إنه لمن اليسير فى عالم تكثر فيه شواذ المسالك أن ينتهج الإنسان طريقاً عوجاء . والطبيعة البشرية فى حد ذاتها حافلة بغرائز مستغربة يصعب أحياناً فهمها ،

ويتعذر دائماً كبحها . وهنا قد أتسمّع ناقداً من الساخرين المتهكمين يجيب على هذا السؤال بقوله : إن كثرة الناس ملتوون في مسالكهم ، وان الإنسان مخلوق لا يعرف إلا نفسه وأهواءها وشهواتها ، وما يحشّه من رغباتها . وعندي أن هذا الرأي يفتقر إلى كثير من الإثبات ، وذلك لأن في الكون نظاماً أدبياً من نوع ما ، وان لكل إنسان شرعته في الحياة تمثل مستوى معيناً قد يكون خفيضاً وقد يكون رفيعاً ، وهذا مرجعه للفرد وما بلغ من رقي نفسي وأدبي ، ولكنه هناك على أي حال .

ووراء هذا في أكثر الأحيان ، الخوف — الخوف الذي أحسبه أشنع لعنة تلصق بالحضارة الحديثة . ولعلي لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه مصدر لكثرة الشرور والمساوىء التي تسيطر على العالم في هذا العصر . فكيف يكون هذا مبعث الفضائل الأدبية ! أمستطيع أنت إخراج الماء العذب والماء الاجاج من نبع واحد !

ولقد فطن علماء التربية إلى هذا الأمر الواقع في تربية الحدث ، فاسترعوا الأنظار إلى انتزاع عنصر الخوف من أصول التربية الحديثة ، لئلا تقمع روح الطفولة وتمنع من أن تتفتح وتزهو . وخير الآباء والمربين ليس الذي يرضى عن أبنائه أو عما يعتقد فيهم ويظن بهم ، فقد يكون مخدوعا وهذا هو الأغلب . وإنما أفضل الآباء والمربين هو الذي يرضى عنه أبناؤه ، ويبسمون له ، ويتباهون به ويعتزون ، دون خشية أو خوف .

الفرد والنظم الاجتماعية

وأتسمّع فريقاً آخر يجيب على هذا السؤال بقوله ان سبيل الاستقامة والخير في الفرد معلق بتلك النظم الاجتماعية التي اتخذت منها الحضارة الحديثة مجاري تتدفق فيها العواطف والغرائز الإنسانية الساذجة الفطرية . مثال ذلك أن الحب هو الذي يرجع إليه الفضل في نظام الزواج الذي صلح به أمر المجتمع إلى الان . ذلك أن الرجل كان فيما خلا من عصور الاستيحاش تأخذ عينه

امرأة، فتروقه فيخطفها، أو يستحوذ عليها بالقوة أو غير ذلك من الوسائل، ويستأثر بها ويقاتل دونها مادام راغباً فيها . ثم يدعها أو يبقيها بعد الفتور عنها إلى أخرى تستولى على هواه . وكان الأمر كلـــه فوضى ولكنه انتظم بالزواج . فلا خطف ولا قتال ولا عنف . وكذلك الوطنية ليست فى مردّ أمرها إلا مظهر أنانية وأثرة ، ولكن نطاق الأثرة اتسع فشمل الجماعة المتماثلة كلها بعد أن كان مقتصراً على القافلة الصغيرة ، أو على الفرد قبل ذلك . ولا سبيل إلى نكران فضل النظم الاجتماعية والشرائع الوضعية القائمة فى ترويض الانسان، ووضع اللجم والقيود ، وعدم إرسال النفس على سجيتها بغير كابح أو رادع . ولكن تلك النظم حتى فى أرقى أوضاعها وأشكالها لم تقو على بثّ الفضائل وصقل النفوس .

عنصر المحبة

وعندنا نحن المسيحيين، عنصر للصقل والتهذيب غير الزجر والتخويف والتهديد بالعقاب ، هو عنصر المحبة . لأن التخويف سلبي قوامه الرهبة ، وأما المحبة فإيجابية قوامها الرغبة . وأمام هذه القوة الحافزة تتضاءل آثار الشرائع والقوانين ، كما يقول رسول المسيحية الأكبر: « هذا ما كان الناموس (الشريعة) عاجزاً عنه » .

وشواهد التاريخ ووقائع الاختبار تؤيد هذا فيما أظن، فان الرغبة إلى الخدمة الخالصة تتفجر عن نبع المحبة الفياض . وقد تكون المحبة لشخص أو لوطن أو لقضية ، ولكنها المحبة على أى حال . وقد يكون فيها عنصر العطف أو الامتنان أو الإعجاب ، ولكن هذه كلها بواعث ثانوية تصدر عن النبع العميق المتأصل فى النفس .

جرّد الحياة من المحبة ، فماذا يبقى بعدها ؟ ماذا عسى أن تكون حالة الإنسان العقلية لو تجردت عن المحبة فى محنة أو بلوى أو خيبة ؟ ألم تكسب المحبة فى مرار كثيرة إلى جانبها أقسى المجرمين وأعند المتمردين ؟ أفليست هى

القوة التى استخدمتها السماء فى اجتذاب البشرية الأثيمة الخاطئة إلى عرفان حق الله والانصياع إلى مشيئته ؟ أليس الصليب ثمرة من ثمار المحبة . بل قل هو المحبة مجسمة ؟ قد يساق المرء إلى فعل أعمال عظيمة حباً فى الكسب ، أو إشباعا للذة ، أو ارضاء لمطمح ، ولكنه يفعل أعظم الأشياء وأشقها على نفسه طوعا لنداء المحبة .

ههنا اذن أقوى حافز للحياة المستقيمة الخيرة ، العزوف عن المنكر والسوء ، محبة الوطن ، محبة الوالدين ، محبة الزوج أو الزوجة ، محبة الأطفال ، محبة الأصدقاء — هذه هى الوثق التى تربطنا إلى أسمى ما نعهده فى الحياة ، هى القوى التى تسير سفينة الكون .

وفوق هذه كلها محبة أسمى وأرقى ، هى محبة الله الذى خلقنا « والذى لايحب لايعرف الله ، لأن الله محبة » .

الثورة الإخلاقية

«إن محبة الذات أصل لكل الشرور. وهي اللوثة الكريهة في الطبيعة البشرية التي تخلق المآسي في العالم».

في كل أمة تجد أمتين: الهيئة الحاكمة، وعامة الشعب. وفي عصر المسيح كان في فلسطين فاصلان يباعدان بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة. وما كان أحدهما اقتصادياً، كذلك الفاصل الاقتصادي الهائل الذي نشهده في هذا العصر الحديث، ومع ذلك فقد كان لذينك الفاصلين عواقب اقتصادية بارزة، كان لها أثرها في امتصاص موارد الفلاحين والطبقات الكادحة.

أما الفاصل الأول فقد كان مقترناً بالدين، فهناك طبقة ممتازة سيطرت على أنفس الناس وجعلت الدين عبئاً ثقيلا تنوء به الظهور. وكان الفاصل الثاني مقترناً بالسياسة، تمثل في النير الروماني الاجنبي، الذي حمله الشعب على أعناقه في كثير من الشكوى والمرارة.

وقد بدا لكثيرين في عصر المسيح أن المخرج الوحيد من المحنة القومية والضنك السياسي، هو في تحطيم السلطة الرومانية وقلب الاوضاع القائمة بالعنف والقوة. على أن المسيح أدرك من أول وهلة عقم هذه السياسة التي تعلق بها مواطنوه، وعرف أن مواطن الداء أعمق كثيرا مما يتوهمون، وأن الخروج من المأزق القومي لن يتم عن طريق استبدال نظام سياسي بنظام

آخر . ولما تقصّى مصدر الداء إلى جذوره ، رآه علة دفينة وسقماً خفياً أصاب اليهود والرومان على السواء . وقد كانت العلة مزمنة مستعصية حتى برزت بقرنيها بين خلصائه الأوفياء وأصدقائه الأقربين أنفسهم . كانت تلك العلة مصدر كبرياء الفريسيين ، ومصـــدر كبرياء الرومان — هي محبة الذات التي أنكرت شريعة المحبة ، محبة الله والقريب . ذلك لان شهوة محبة الذات ترفع الاقوياء على العروش ، وتذل الضعفاء تحت مواطىء الاقدام ، ليس لان الضعيف برىء من محبة الذات ، بل لانه عاجز تعوزة القوة والنفوذ .

ولست أدري أيهما أشر من الآخر : قلب القوي حينما يقسو ويتحجّر ، أم قلب الضعيف حينما يسحق ويتكسر !

ان محبة الذات أصل لكل الشرور ، واللوثة الكريهة في الطبيعة البشرية التي تخلق المآسي في العالم . وليت شعري ما الذي جعل الشيطان شيطاناً غير هذه الشهوة ! ما الذي أضلّه وأغواه غير أنه طلب ما لنفسه ، واعتز بمطالبه ورغباته الى حد الصلف والتعنت ، فسقط وهوى . وأصدق وصف «للخطية» هو الاعتداد بالذات حيال الله ، وحيـــال الانسان . هي اساءة للانسان ، وتمرد على الله .

ولان شهوة محبة الذات هي الغالبة في الطبيعة البشرية ، فإنها تولد المنازعات والمخاصمات بين الأفراد والجماعات والشعوب والأمم . ومن أروع ما قرأت في وصف الخطية ما قاله كاتب فرنسي مشهور : « الخطية مبدأ قائم على الأنانية والعزلة ، وهي ترغم كل فرد على أن يفقد ذاته في فرديته ، وتنفث الذات التي لا تشبع ، أنفاسها في كل ما حولها ، فتنتفخ وتنمو وتمتص كل ما هو ضعيف . ولن تقف الذات في طغيانها الا اذا اصطدمت بقوة ظالمة تحدها أو تتفوق عليها . وهنا ينشب النزاع الدموي القتّال الذي لا يرحم . وكل مجتمع خبيث يتألف من هذه الأشياء انما هو مجموعة من الأفراد الجياع

المتقاتلين ، الذين يجتمعون معاً ليلتهم أحدهم الآخر . . هذا هو فعل الخطية فينا . . . . »

وهذا تشخيص اجتماعي دقيق ، يصدق على كل عصر من عصور التاريخ ، عصر المسيح وعصرنا الحاضر . ومشكلة الانسان خالدة أزلية لم تتغير ، وعلاجها هو إبراء داء الفردية والأنانية .

وقد أدرك يسوع أنه حتى بعد طرد الرومان من فلسطين ، فان الحبل يترك على الغارب للأمراء والأغنياء ، وأهل الجاه والنفوذ ، ورجال الدين والكهنة، فيسام الشعب بأيديهم صنوفاً من الذل والاستبداد أبشع وأشر من استبداد الرومان . ويخيل إلينا أن يسوع فى عصره لم يكره الرومان بالقدر الذى كره به أساليب مواطنيه وتصرفاتهم الأثيمة المستبدة ، ونزعاتهم الأنانية الماكرة ، وإذلالهم عامة الشعب ، بالقوة تارة وبالحيلة والدعاية الخبيثة أخرى . وما قرأت فى الإنجيل كلمة واحدة قاسية جرت على لسانه ضد الرومان ، ولكنه صلق الفريسيين ورجال الدين بألفاظ قوية ساخرة ، وأشبع الأمراء المحليين ورجال الحكم من مواطنيه لوماً ونقداً ، حتى لقد دعا هيرودس ، الأمير المستهتر ، الخليع ، المبذر — ثعلباً .

أدرك المسيح أن ثورة تفلح فى طرد الرومان من البلاد ، لن تبرئ العلة الدفينة التى تنخر فى حياة الأمة ، وأن الداء سيستشرى ويتسع ، وأن الشعب سيكون ضحية حكامه وأولياء أموره وزعماء الدين الأشرار الخبثاء . لذلك حث المسيح على ثورة من نوع آخر ، هى الثورة الأخلاقية لاصلاح ما فسد من أخلاق ، وتقويم ما أعوج من أعمال وتصرفات : « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » .

وما أشد افتقارنا اليوم فى العالم كله ، إلى تغيير فى القلوب والضمائر ، إلى ثورة أدبية أخلاقية تجتث شأفة الفساد والاثم والعفن من الحياة العامة .

وهنا فى بلادنا قامت ثورة مباركة . وقد أفلحت الثورة فى تغيير أنظمة الحكم ، والقضاء على الإقطاع والرجعية والرأسمالية المستغلة ، ووضع دعائم نظام اشتراكى جديد ، وتوفير الخدمات لكل أبناء الشعب دون تمييز ، ورفع مستوى العمال والفلاحين . وما إلى ذلك من اصلاحات اقتصادية واجتماعية وثقافية .

ولكن يبقى علينا نحن أبناء الشعب أن ندرك بأن هذه الحقوق التى نلناها تقابلها مسئوليات والتزامات يتحتم علينا الوفاء بها ، وأن الجدّ والاخلاص فى العمل ، والأمانة والنزاهة فى التصرفات ، والتجرد من الأنانية ومحبة الذات ، والاقبال على التضحية من أجل الوطن ومن أجل الآخرين — هذه كلها يقتضيها ويدعو إليها النظام الإشتراكى الذى نعيش تحت ظلاله . هذه هى فلسفة الإشتراكية . إنها تتطلب ثورة أخلاقية فى نفوسنا إلى جانب الثورة السياسية والاقتصادية والإجتماعية .

الاصلاح السلبى

لقد نادى المسيح ، أول ما نادى ، قائلا : توبوا . ولكنه لم يقف عند هذا الحدّ لأن التوبة شىء سلبىّ ، والناس يكتفون عادة بالمواقف السلبية . ولطالما زعم الناس ، كما تدلنا أحداث التاريخ — انه بإزالة سيئة من السيئات العامة ، أو تحطيم بعض المزايا التى تنعم بها طبقة من الناس ، يحلّ العصر الذهبى المرموق من تلقاء ذاته . ولكن هذا لم يحدث أبداً ، بل على نقيض ذلك انفسح المجال لشرور وسيئات أدهى وأمرّ .

والمسيح يحذرنا — فى مثل صغير من أمثاله — من مجرد الاصلاح السلبى فيقول : « متى خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز فى أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة . وإذ لا يجد يقول ارجع إلى بيتى الذى خرجت منه . فيأتى ويجده مكنوساً مزيناً . ثم يذهب ويأخذ سبعة أرواح أخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك » . والمأساة الأليمة التى نشهدها فى ثورات التاريخ انها لا تقترن عادة بعناصر الإصلاح الداخلى الصحيح ، اصلاح القلوب والضمائر ،

ولا تهدف إلى مُثل إنسانية عليا . وحينما قال المسيح « توبوا لأنه قد أقترب ملكوت الله » ، فهم سامعوه قصده ومراده ، ولكنهم رسموا فى أدمغتهم ، صورة غير التى أرادها المسيح ، وتوهموا أن « الملكوت » هو شىء سياسى ، نظام خارجى من الحياة يكونون فيه سعداء أحراراً ، ولم يفكروا قط فى إصلاح نفوسهم الداخلية .

على أن « الملكوت » الذى دعا اليه المسيح ، كان شيئاً آخر غير ما توهموا . وكأنما أراد أن يقول لهم ان الإصلاح الذى تنشدونه ، والحياة السعيدة التى تهدفون اليها ، والنظام الجديد الذى تبغونه ، لا يتمّ بتغيير الأوضاع السياسية ، أو استبدال حكومة بأخرى ، انما هو شىء قريب منكم ، فيكم وبينكم . فانهضوا وخذوه !

وكل تغيير فى الأنظمة والأوضاع — فى الدنيا والدين على السواء — لن يجدى فتيلا الا اذا اقترن بتغيير القلوب والضمائر ، والنوايا والمقاصد . وكل نظام سياسى أو دينىّ ، يصطنعه الناس اصطناعاً ، ويخلو من عناصر البر والحق ، والخير ، والعدل ، والمساواة ، مقضىّ عليه بالفشل ، لأنه لا يمتّ بصلة الى « ملكوت » الله .

